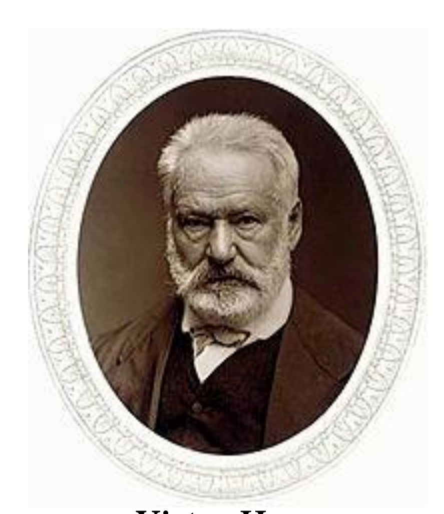
فيكتور هوجو

البؤساء

Les Maiserables



Victor Hugo

إعداد خاص

عصام عبد الفتاح



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اســـم الكتاب : رواية البؤساء

المـــــــــؤلف : فيكتور هوجو

إعــداد خاص : عصام عبد الفتاح

رقـــم الإيداع :

الطبعة الأولى ٢٠١١

مكتبة جزيرة الورد

القاهرة : ٤ ميــدان حليـــم خلـــف بنـــك فيصـــل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ـ ٢٧٨٧٧٥٧٤

Tokoboko_٥@yahoo.com

كلمة أولى

هناك أعمال روائية.. وأدبية عالمية أشهر من أن يحاول أحد أن يعرف بها القارئ..

ورواية «البؤساء» من بين تلك الأعمال التى تحظى بجانب كبير من الشهرة العالمية.. مما يجعل التقديم لها وكأنه لا يضيف للقارئ شيئاً على الإطلاق.. لذلك لن نطيل في تقديمنا لهذا العمل.. وإنما بهذه الكلمة الأولى وما سيتبعها من تعريف بمؤلفها وأجوائها نحاول فقط أن نهيئ القارئ للتفاعل مع أحداثها.. وتوضيح رؤية خاصة نقدمها من خلال هذه الطبعة ترتكز على روح النص أكثر من ارتكازها على نص الترجمة الحرفية له.. خاصةً أن النص في شكله الأصلي تمت كتابته تقريباً في منتصف القرن التاسع عشر.. متخذاً مؤلفه من السمات الاجتماعية.. والأجواء السياسية المعاصرة له إطاراً عاماً للتناول.. وهو ما يضعنا في مأزق الاختلاف الزمنى للأحداث.. فكان لابد من محاولة الخروج من هذا المأزق بقدر الإمكان دون الابتعاد عن مقاصد والمعطيات الأساسية للرواية.

وفي هذه الطبعة الخاصة أيضاً بدار «جزيرة الورد» سيجد القارئ اختلافاً كثيراً عما سواها من طبعات أخرى متواجدة بسوق الكتاب العربي.. الاختلاف الأول أشرنا إليه فيما يخص التركيز على روح وجوهر النص أكثر من اهتمامنا بشكل القالب اللُغوي الموجود به النص في ترجمته العربية الأولى.. لكننا بين هذا وذاك لم نحد إطلاقاً عما بالنص من حقائق وجماليات مختلفة.

كما احتفظنا لأنفسنا أيضاً من خلال هذه الطبعة ببصمتنا الخاصة فيها فالتتابع الزمنى للأحداث في هذه الطبعة.. مختلف عن باقي الطبعات الأخرى.. هنا نسير مع الأحداث بترتيبها الزمنى الطبيعي.. بينما الطبعة الأشهر في المكتبة العربية والتى نقلت عنها جميع دور النشر الأخرى قائمة على ما يمكننا تسميته بـ «التقاطع الزمني».. أى الرجوع إلى الوراء.. أو التقدم للأمام زمنياً في مواضع ما تتقاطع.. أو تتواصل درامياً.

بقي أن نشير إلى أنه عندما سمى المؤلف روايته باسم «البؤساء» إنما كان يقصد باللفظ عموم الفقراء.. والمطحونين.. في مقابل الطبقة المُترفة.. التى تنعم بكل شيء.

وقد اتخذ «فيكتور هوجو» من بطل روايته رمزاً للشعب الفرنسى ـ كله فى تصديه للمظالم.. ونضاله فى سبيل كرامته.. وفى معاناته من البؤس والمرض والجهل.. مبرزا عددا من الشخصيات فى أجمل وأكثر ملامحها تناقضاً.

وقبل أن نبدأ قراءتنا للرواية نتوقف أولاً عند التعريف بمؤلفها.. ثم توضيح وتعريف بأهم شخصياتها.

دار جزيرة الورد

الراوي .. والرواية

«فيكتور هوجو» هو واحد من أشـهر وأبرز أدباء فرنسـا.. تميز بالمهارة التعبيرية الشـديدة.. وقوة خياله.. وقدرته على إحياء التاريخ ضـمن كتاباته.. تُرجِمَت أعماله إلى معظم اللغات العالمية.. كتب الرواية.. والمسرحية.. والمقال.. والشعر.. وكانت له أعماله الفنية في مجالات الرسم.. وعُرِفَ عنه اهتماماته السياسة.

وُلِدَ في «بزانسون» في ٢٦ فبراير ١٨٠٢ بمنطقة الدانوب شرقي فرنسا.. وهناك عاش بداياته الأولى..

كان والده ضابطا في الجيش الفرنسي برتبة جنرال.

تلقى «فيكتور هوجو» تعليمه الأول في باريس.. حيث قضى طفولته باسـتثناء فترة قصـيرة انتقل فيها مع عائلته للإقامة في إيطاليا.. ثم مدريد بإسبانيا.

وكان مهتماً بالأدب منذ بواكيره الأولى.. ويصف ذلك بنفسه قائلاً:

«قضيت طفولتي مشدود الوثاق إلي الكتب»

لذلك نراه أتم كتابة أول أعماله الأدبية وهو لا يزال دون الرابعة عشرة من عمره.. وكانت مسرحية من نوع المأساة.

وفي السابعة عشرة من عمره أصدر مجلَة أدبية.

وكان مثله الأعلى فى عالم الأدب هو الكاتب والشاعر «شاتو بريان[1]»

جوائز مبكرة

كان ما يزال فى الخامسـة عشر عندما نال جائزة من الأكاديمية الفرنسـية.. وجائزة أخرى من مدينة «تولور» بعد ذلك بسنتين.

وبهذا التقدير الأدبي الذي لَقِيَهُ.. ا ستطاع أن يقنع والده باتجاهه إلى الأدب.. متخلَياً بذلك عن الدرا سات العلمية أو الحقوقية التى كان يريدها له أبوه.

وحين بلغ سن العشرين نشر أول ديوان من دواوين شعره.. ثم نشر بعض أعماله القصصية ليبرز اسمه ويتصدر طليعة أدباء عصره حتى أصبح منزله مركزاً لصالون أدبي مشهور ضم وقتها رواد الحركة الرومنطقية.

---

(1) الكاتب الفرنسي شاتو بريان عاش بين تاريخي «١٧٦٨ – ١٨٤٨» يعد من رواد الرومانسية الحديثة.. وكذلك من رواد المذهب الثائر على الأدب اليوناني القائم على تعدد الآلهة.. ومن أبرز المفكرين والأدباء الذين اعتنقوا الرومانسية تماماً مثل المفكر والأديب الفرنسي جان جاك روسو ١٧١٢ – ١٧٨٨م.

زواج مبكر

فى العشرين من عمره تزوج «هوجو» فرُزِقَ بأربعة أبناء.

مأساة وفاة ابنته

كان لوفاة ابنته «ليوبرلدين» غرقاً مع زوجها في نهر السين «سنة ١٨٤٣» أثر هائل فى نفسه.. انعكس عليه بشدة فيما تبقى من سنوات عمره.. فكان الحزن الدائم هو السمة الغالبة على أحاديثه.. وتصرفاته.

قائد بالكلمة

كان يري في نفسه أنه صاحب رسالة خاصة يقود من خلالها الجماهير.. قائد بالكلمة والفكرة وليس بالمدفع أو السيف.. ومن هنا يجب ألا نندهش عندما نراه مؤسساً.. ثم رئيساً فخرياً لجمعية الأدباء والفنانين العالمية عام ١٨٧٨م.

بين التمرد والرومانسية

في الوقت الذى جَسَّدَ فيه «هوجو» الرومانسية الفرنسية الناعمة في أعماله الأدبية بكل براعة.. كانت عيونه مفتوحة على التغيرات الاجتماعية الحادثة في القرن التاسع عشر ــ والتى كانت تفرض نفسها بكل قوة على معظم الدول الأوربية.. والتى تجسدت في الثورة الصناعية.. والدعوة إلى إصلاحات اجتماعية جديدة.. ونشوء البروليتاريا الجديدة في المدن.. وبالتالى ظهور قراء جُدُد من الطبقة الوسطى.

مؤمناً في ذلك بالحرية المطلقة وتلك كانت من بين أهم الجوانب في حياته.

وقد دفعته هذه التغيرات إلى التحول من نائب محافظ بمجلس الشيوخ الفرنسي ــ مؤيداً للملكية.. قريباً إلى السلطة.. إلى مفكر اشتراكي ونموذج للسياسي الاشتراكي المثالي في القرن العشرين.. بل وفيما بعد أصبح يُنظر إليه باعتباره رمزا للتمرد على الأوضاع القائمة.

ووضح هذا جلياً في اتخاذه مواقف سياسية متشدّدة.. ورفضه القاطع لعقوبة الإعدام.. ونقمته الشديدة على الظلم الاجتماعي.

هوجو في المنفى

وكان من جراء ذلك أن نُفِيَ هوجو إلى«بلجيكا» أثناء فترة حكم «نابليون الثالث[٢]» ليقضى هناك تسعة عشر عاماً من «١٨٥١ – ١٨٧٠» وخلال هذه الفترة كتب القســم الأهمّ من انتاجه الأدبيَ.. فضــلاً عن القصــائد ذات المنحى السياسيّ المُعارض التى كان الفرنسيون يتداولونها خفية عن أعين السلطة.. كما نشر هناك روايته الأشهر «البؤساء» سنة ١٨٦٢ ثم عمّال البحر.. والرجل الضاحك.

عودته إلى فرنسا

وفور إعلان الجمهورية عاد «هوجو» إلى باريس.. وانتُخب نائباً فى الجمعية الوطنية «١٨٧١» ثم أصــبح عضــواً فى مجلس الشيوخ مدى الحياة منذ ١٨٧٦ وتحول إلى رجل كل اهتمامه الأول والأخير بالنشاط السياسي.. وبرز وسط أنصار الحكم الجمهورى.. وتحول للكاتب الأوسـع شـعبية فى فرنســا.. حتى أنه في عيد ميلاده الثمانين.. قام الفرنســيون بمسـيرة حاشـدة ليكرّموا في شـخصـه ثمانية عقود من الشـعر والإبداع الأدبي والعبقرية.. ويحيوا قرناً كاملاً من تاريخ فرنســا.. كان هوجو شاهده الأكبر فى معظم مؤلفاته.. واحد أبرز مناضليه السياسين .

وفاته

وتُوُفِيِّ «فيكتور هوجو» بباريس في ٢٢ مايو ١٨٨٥ بعد أن تخطى عمره وقتها الــ «٨٣» عاش خلالها حياةً عريضة متبوءاً مكانة كبيرة كواحد من أشــهر.. وأهم أدباء القرن التاســع عشرــ. وما بعده.. وبعد أن ترك أثّراً كبيراً في بلده.. وعصره اللذين عاش فيهما.

وأُقيم له فى الأول من «يونيو» ١٨٨٥ مأتمٌ رسـمى وشـعبى حاشـد.. وسـار الباريسـيون خلف جثمانه من قوس النصر إلى مبنى البانتيون حيث يرقد عظماء الأمة الفرنسية.

---

[٢] نابليون الثالث.. معروف كذلك باسم لويس نابليون بونابارت عاش خلال الفترة بين «٢٠ أبريل ١٨٠٨ – ٩ يناير ١٨٧٣» وهو أول رئيس للجمهورية الفرنسـية من ١٠ ديســمبر ١٨٤٨ إلى ٢ ديســمبر ١٨٥١ ومن هذا التاريخ أصـبح الإمبراطور الثاني للفرنسـيين تحت اسـم «نابليون الثالث» وحمل لقب الرئيس الأول والملك الأخير لفرنســا.. وهو الذي أصـدر الحكم الجائر على مصـر بدفع ٣،٥ مليون جنيه مصري كتعويض لشركة قناة السويس.

مشواره الأدبي

نشر «فيكتور هوجو» أكثر من خمسين عملاً أدبياً في حياته.. تنوعت بين الرواية.. والمسرحية.. وغيرها.. من أشهر أعماله:

- هرناني «١٨٣٠»..
- أناشيد العشَق «١٨٣٠»..
- أوراق الخريف «١٨٣١»..
- الأشعة والظلال «١٨٤٠»..
- العقاب «١٨٥٣»..
- الشاملات «١٨٥٦»..
- أسطورة العصور «١٨٥٩ – ١٨٨٣»..
- أحدب نوتردام.. التي أثارت الأعجاب وترجمت إلى العديد من لغات العالم..
- البؤساء.. والتى نُشِرَت عام ١٨٦٢ وهي أروع وأعظم أعماله الأدبية.
- رواية «رجل نبيل»..
- رواية «عمال البحر» «١٨٦٦»..
- رواية «آخر يوم في حياة رجل محكوم عليه بالإعدام».
- وفي عام ١٨٢٧ نشر مسرحيته التاريخية «كرومويل» التي استُقبلت بحماس شديد وحققت نجاحاً كبيراً في الأوساط الفنية والأدبية..
- رواية «الرجل الضاحك»..

من أقواله:

تزخر كتابات.. وأعمال «فيكتور هوجو» بالعديد من الأقوال التى تحولت فيما بعد إلى حِكم.. وأمثال أدبية تتكرر في العديد من كتابات الأدباء والمفكرين.. وربما تتكرر على ألسنة العامة دون أن يعرف أحدٌ من قائلها.. ومن هذه الأقوال:

- إذا حدث وأعيق مجري الدم في شريان فستكون النتيجة أن يصاب الإنسان بالمرض.. وإذا أعيق مجري الماء في نهر فالنتيجة هي الفيضان.. وإذا أعيق الطريق أمام المستقبل فالنتيجة هي الثورة.

- أنا الذي ألبست الأدب الفرنسي «القبعة الحمراء» أي قبعة الجمال.

- كل صـخرة هي حرف.. وكل بحيرة هي عبارة.. وكل مدينة هي وقفة فوق كل مقطع وفوق كل صـفحة لي هناك دائماً شيء من ظلال السحب أو زبد البحر.

- لا قوة كقوة الضمير.. ولا مجد كمجد الذكاء..

- ليس هناك جيش أقوى من فكرة حان وقتها..

- أعظم سعادة في الدنيا أن نكون محبين..

- الحب هو أجمل سوء تقدير.. بين الرجل والمرأة !

- في قلبي زهرة.. لا يمكن لأحد أن يقطفها..

- قد يكتب الرجل كتاباً عن الحب.. ومع ذلك لا يسـتطيع أن يعبر عنه.. ولكن كلمة عن الحب من المرأة تكفي لذلك كله..

- عندما تتحدث إلى امرأة.. أنصت إلى ما تقوله عيناها..

- من الممكن مقاومة غزو الجيوش.. ولكن ليس من الممكن مقاومة الأفكار..

- إن أجمل امرأة هي التي لا تشعر بجمالها..

- وكان يصف الشرق بقوله:

"الشرق عالم ساحر مشرق وهو جنة الدنيا.. وهو الربيع الدائم مغموراً بوروده.. وهو الجنة الضاحكة.. وأن الله وهب أرضه زهورا أكثر من سواها.. وملأ سماءه نجوما أغزر.. وبث في بحاره لآلئ أوفر"



الرواية

يمكننا أن نصـنف «البؤسـاء» باعتبارها رواية سـيكولوجية.. فلسـفية.. ودينية بحتة.. ترصـد حياة الإنسـان من الخطيئة إلى التوبة.. وعمق شعور الإنسان بالندم.

وفيها تتقاطع.. وتتلاقى الكثير من المعطيات المختلفة.. بأكثر من شـكل ونوع أدبي مختلف خاصـةً في النص بلغته الأصـلية.. من شـعر ونثر ومذكرات وتاريخ وتوثيق.. كل ذلك فى تكامل وتمازج.. وعبر تفاعل مسـتمر أو منقطع بين النماذج الإنسانية التى جسّدتها شخصيات روايته.

وقد بدأ «فيكتور هوجو» كتابة هذه الرواية سـنة ١٨٤٥ وبعد ثلاث سـنوات توقف عن اسـتكمالها لمدّة طويلة حوالي أربعة عشر عاماً.. ثم عاود كتابتها وأصدرها سنة ١٨٦٢

وقد مهّد لروايته بكلماتٍ موجزة عَبَرَ من خلالها عن مقصوده من كتابتها فقال:

«طالما يوجد فى العالم ظلمٌ اجتماعى.. يبقى الإنسان الفقير متردياً فى الطبقات الدنيا.. وتُجبر المرأة على السقوط في الرذيلة بدافع الجوع.. وتضـيع الطفولة فى ليل البؤس.. وما دام على الأرض جهل وشـقاء.. فإن روايةً من هذا النوع.. لا يمكن أن تكون بلا جدوى».

ومن هذه الكلمات نستطيع أن نرسم ملامح الصورة الروائية التى نسج من خلالها «هوجو» أحداث روايته.. فقد جَسَّدَ فيها نقمته على الأعراف والتقاليد الاجتماعية التى يسقط بسببها الناس ضحايا اليأس.. ويعيشون مغلوبين على أمرهم.. تتلاعب بهم أقدارهم.. ومصائرهم.

وو سط مفردات لغوية تتأرجح بين الواقعية.. والمثالية.. والتأملات الفلسفية.. صنع «هوجو» الإطار العام للحبكة الدرامية.. وتوقف عند شـواطئ السـياسـة.. والتاريخ.. وعرض للملكية.. والديمقراطية من خلال إشـارات وإسـقاطات مقصودة.. ضفرها بحرفية عالية.

ونراه مثلاً يتحدث عن «معركة واترلو[٣]» وما عاشته باريس من أحداث خلالها.

وينقدُ فيها أيضاً بشكلٍ لاذع المحاكمات القضائية التى تستند إلى أكاذيب وأوهام الشهود.. وتُصدر الأحكام على الأبرياء بجرائم ارتكبها غيرهم.

ونراه ينقض تعامل الـصحافة مع الحقائق إما بالـسلبية.. أوالتجاهل والإهمال أو تحقيقاً لأهداف معينة.. وعندها تقلب الحقائق إلى نقيضها.

وفيها تشريح لكل طبقات المجتمع من النبلاء.. إلى المهمشين.. إلى البورجوازيين.. إلى المجرمين والأشقياء واللصوص.



(٣) معركة واترلو «Battle of Waterloo» تعتبر الفصل الختامي لحياة «نابليون بونابرت» تلك الشخصية التاريخية الفذة.. وكذلك بداية عصر جديد.. وهي آخر معارك نابليون.. وهُزِمَ فيها هزيمة شديدة لدرجة أن الإنجليز يصفون الشخص الذي يعاني من حظ سيء جداً بأنه صادف واترلو.. وقعت أحداثها في ١٨ يونيو عام ١٨١٥ قرب مدينة بروكسل.. وهى معركة فرضها نابليون على الحلفاء بعد فراره من منفاه في جزيرة ألبا.. واضطر أعضاء مؤتمر فيينا لإنهاء المؤتمر والتفرغ لحرب نابليون.. فوصلت إلى بلجيكا مباشرة جيوش إنجلترا وبروسيا.. ومن الطرف الآخر جيوش فرنسا على أن تتوافد إلى جهة الراين جيوش بقية الحلفاء.. وكان في الجانب الأول القائد دوق ويلينجتون الإنجليزي والمارشال «بلوخر» الألماني.. وبالطرف الثاني «نابليون».. وسبق معركة واترلو الحاسمة معارك تمهيدية فرعية هي: معركة كواتر براس.. ومعركة ليني.. أما في واترلو فقد احتلت المدفعية قمم التلال التي يتمركز فيها الطرفان.. واستطاع «بلوخر» أن يرفد بقواته ويلينجتون الذي كان موقفه حرجاً أمام نابليون.. وتم التحام القوتين في الوقت اللازم.. وتأخر بدء المعركة بعض الوقت بسبب الأمطار والوحل في اليوم السابق.. ثم زج نابليون بالصف الأول من جيوشه وتراشقت المدافع النيران بالتناوب.. ولما حاول توجيه ضربة لقلب جيش الإنجليز مُني بخسارة كبيرة وتساقطت أمامه زهرة شباب جيشه.. بينما اجتمعت قوات «بلوخر» و«ويلينجتون» معاً.. ورغم أن «نابليون» أوقع في صفوف أعدائه خسائر فادحة لكنه لم يسحقها.. بل بدأت مدفعية الإنجليز تحصد خيالته التي وجهها إلى قلب القوات الإنجليزية.. ولما أدرك «نابليون» النهاية الأليمة ركب جواده وصف حرسه الخاص صفوفاً متلاحقة.. وأشار بأصبعه نحو الإنجليز.. ووصلت حرارة المعركة أوجها.. ونابليون على رأس قواته.. وتكبد الإنجليز خسائر كبيرة بالأرواح والعتاد في هذا الهجوم الأخير.. واضطر «ويلينجتون» بعد أن أصيب تحته جوادان أن يترجل حاملاً سيفه ويتقدم حرسه إلى المعركة.. واصطدم الحرسان ببعضهما البعض.. وأراد «نابليون» أن يزج بنفسه وسط النيران لولا أن أثناه ضباطه فلوى رأس جواده وبرح الميدان وهو يقول: خسرنا كل شيء إلا الشرف.. وعاد إلى باريس ليتنازل عن العرش.. بينما كان ميدان واترلو مليئاً بجثث القتلى والجرحى الذين بلغ عددهم من الجانب الفرنسي ٢٥ ألف قتيل.. ومن الجانب الآخر ٢٢ ألفاً .. فضلاً عن عشرات الآلاف من الجرحى بين الجانبين.

الشخصيات

تتعدّد الشخصيات فى هذا العمل الروائى الضخم وتنتمى إلى فئات سياسية واجتماعية متعدّدة.. ويمكن أن نقسم شخوص هذه الرواية إلى قسمين أساسيين:

شخوص رئيسية تشكل العنصر الرئيسي في الرواية.. وتحتلّ مساحة واسعة من الأحداث مثل:

«جان فالجان»: بطل الرواية.. .. وهو المحور الأساسى الذى تدور حوله الأحداث كلها.. بجانب بعض المحاور الثانوية المعاونة له لإكمال الصورة التى تصدى لرسمها المؤلف.. جمع فى شخصه عدة طبقات اجتماعية.. وعدة نماذج إنسانية مختلفة.. بحسب المراحل التى مرّ فيها والأدوار التى قام بها.. وهو لا يشكل شخصية ثابتة.. بل يتغير شكلياً وخلقيّاً.. ويستقل فى مستويات متعدّدة.. وتصوّره الرواية فى تنازُع بين الخير والشر بل فى صراع عنيف بينها.. كان فتى طيب القلب يعمل بجهد فى سبيل من يَعولهم.. ثم قُبض عليه وسُجن لأنه سرق خبزاً من أحد الأفران.. وهرب مِراراً.. وأُعيد إلى محبسه.. واستمر مسجوناً فى الأشغال الشاقة تسعة عشر عاماً.. خرج من السجن وهو فى أواسط العقدالخامس من عمره.. لا يجد ملابس تستر جسده.. وعلى أشدّ ما يكون من الحقد على المجتمع الظالم.. وبعد مسيرة يوم كامل من التعب والجوع.. كان الناس يرفضونه.. والأطفال يتبعونه ويرمونه بالحجارة.. والأسقف هو من أعاد إليه كرامته الإنسانية.. وقيمته الاجتماعية.. ودعاه وأحسن إليه.. وعفا عنه عندما سرق بعض الأوانى الفضية من منزله.. فحدث فى نفسه تحِوَّل عظيم.. ويتحول إلى التعاطف مع الناس بدلاً من النقمة عليهم.. وأخذ يساعدهم بأعمال الخير.. ويؤسس صناعة مزدهرة تحيى الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى مدينة مونفورميل.. وتكسبه المال والمجد والشهرة ومحبة الناس.. فيعينه الملك عُمدة.. ويمنحه وسام «جولة الشرف» وكما كان صعوده فى المجد سريعاً.. كذلك كان انحداره إلى الحضيض.. فقد نشأ فى نفسه صراع بين مصلحته الخاصة وضميره.. وعندما عرف أن أحد الأبرياء يُحاكم بجرم كان هو من ارتكبه ذات يوم.. يتخلى عن وضعه الاجتماعى.. ويذهب إلى المحكمة ليعلن «براءة المتُهم» ويكشف أنه المجرم المطلوب فيُلقى فى السجن.. بعد فراره قصد الطفلة «كوزيت» وخلصها من الأسرة الظالمة التى كانت أمها قد سلمتها إليه.. ولجأ معها إلى دير حيث عمل باتيا.. وعندما شعر أن رجال الشرطة قد نسوه.. عاد إلى باريس.. يعيش حياة الطبقة البورجوازية موزَعاً وقته بين التنزه والمطالعة وعمل الخير وهناك تزوجت «كوزيت» من «ماريوس» فأخبره الحقيقة الكاملة.. وأنه أنقذه من الموت فذهب إليه مستغفراً وكان «جان فالجان» فى لحظاته الأخيرة.. فأسلم الروح رضىّ البال بين يدى «ماريوس» و«كوزيت».

«كوزيت»: تظهر فى شخصيتين مختلفتين تبعاً للمرحلة الزمنية من حياتها.. فهى في بداية الأحداث فتاة صغيرة تعيش حياة تعسة.. كانت فى الثالثة من عمرها اضطرت والدتها إلى تركها لدى عائلة تياردييه التى عاملتها بقسوة.. فكانت تؤذيها وتضربها وتكلفها القيام بالأعمال المنزلية وبحمل الماء من النبع.. بينما كانت ابنتا تلك العائلة تلهوان وتنعمان.. وعندما كانت ليلة عيد الميلاد أرسلتها الأسرة لتستقى الماء من النبع.. وهناك قابلت رجلاً قوياً وطيب القلب هو «جان فالجان» حمل عنها الماء ثم خلصها من العائلة الظالمة.. وتولى أمرها.. وانتقل بها إلى أحد الأديرة

حيث قضيا سنوات قبل أن يغادرا إلى باريس.. لتبدأ مرحلةً جديدة من حياتها مكرمةً وسعيدة.. وعند خروجها من الدير كانت قد أصبحت فى الخامسة عشرة من عمرها.. فتاة يانعة.. بديعة الجمال.. أنيقة المظهر.. وهناك تتعرف إلى «ماريوس» ويتحابان ويتزوجان.. وفى بادئ الأمر أخفت «كوزيت» هذا الحب.. ولم تخبر به «جان فالجان».. وبعد الزواج اضطرت إلى الامتناع عن زيارته.. ثم عرفت بعض الحقائق التى بدلت موقفها.. وأقرت بفضل «جان فالجان» على «ماريوس».. كفضله عليها.

الأسقف: هو «رجل الدين» الذى شكّل نقطة تحول محورية فى حياة بطل الرواية.. وهو نفسه مَرَ بمراحل تحول في توجهه الحياتي اكتفى «هوجو» بالإشارة إليها بشكلٍ سريع دون تفاصيل.

«جافير»: شخصية تمثل رجل الشرطة المصر على أداء واجبه بحزم.. مهما تكن الظروف.. وحين يتناقض الواجب الوظيفى بإلقاء القبض على «جان فالجان».. مع الإقرار الوجدانى العميق بفضل غريمه عليه.. يفضل الموت انتحاراً فى نهر السين.. على الإخلال بالواجب.. أو نكران الجميل.

«فانتين»: أم «كوزيت» وهى فتاة لعبت بها الحياة.. بعد أن غرر بها شابٌ التقته وأحبته في باريس.. ثم تخلى عنها تاركاً فى أحشائها «كوزيت» فعاشت حياةً بائسةً.. واضطرت إلى التخلى عن ابنتها بإيداعها لدى إحدى العائلات.. خوفاً من العار.. وكانت تمتلك ثروة تتمثل فيما تملكه من شعرٍ ذهبى.. لكنها اضطرت إلى قصه وبيعه لتدفع ثمنه لتلك الأسرة الجشعة مقابل الاهتمام بابنتها وتربيتها.. ثم تردت فى مهاوى الضياع.. وفي أواخر حياتها لم تجد العطف إلا لدى «جان فالجان» الذى رافقها حتى ساعاتها الأخيرة.

«ماريوس»: ينتمى «ماريوس» إلى عائلة ميسورة.. عاش طفولة هانئة تختلف كلياً عن الطفولة البائسة التى عاشتها «كوزيت».. وكان فتى قوى البنية.. جميل الشكل.. يلفت نظر الفتيات.. ولم تكن «كوزيت» هى الوحيدة التى أُعجِبَت به.. بل كذلك إحدى ابنتى عائلة تيتارديه.. وهناك من النقاد من يقول أن «هوجو» جعل «ماريوس» من بعض الجوانب شبيهاً له في العديد من الجوانب سواء من الناحية الشكلية أو من حيث المواقف السياسية.. كان وفياً تماماً لأبيه المتوفى.. ومن أجل ذلك قطع صلته بجده وهو من أنصار الملكية.. وحُرم المال الذى كان يغدقه عليه.. فعاش فقيراً وقضى هكذا سنوات حياته فى الجامعة.. أحب «كوزيت» بشدة.. وبالرغم مما اعترضه من صِعاب تغلب عليها بإرادته.. وحقق مع حبيبته حلم حياته.

***

وهناك ثمة شخصيات أخرى تمثل بعض وجوه المجتمع فى كل زمان.. ومكان.. مثل: تبنارديه وزوجته الجشعين.. والذين لا يبالون بالدناءة والاحتيال فى سبيل كسب المال.



البؤساء

جون فالجان .. وبداية الحكاية ..

كان «جان فالجان» ينحدر من عائلة فقيرة في «فافيرول».. مات أبوه وهو صغير.. فكفلته أخته وما زالت تعنى به حتى مات زوجها وترك لها سبعة أولاد.. أكبرهم كان لا يتجاوز الثامنة من عمره.. وأصغرهم لا يزال في شهوره الأولى.. وكان «جان فالجان» قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره.. فحل محل الوالد.. وعمِلَ جهد طاقته على مساعدة شقيقته التي ساعدته في صغره.. وفعل ذلك بدافع الشعور بالواجب..

وهكذا قضى الفتى أيام شبابه الأولى كما يقضي الفقراء الكادحون أيامهم.. لقاء أجرٍ لا يكاد يعيش به رجل بمفرده.. فضلاً عن أخته وأبنائها السبعة.. وكان يعود في المساء متعبًا منهوك القوى.. فيتناول الحساء الدافئ وقطعة الخبز دون أن ينطق بكلمة.. وكثيراً ما كانت أخته تلتقط من طبقه أفضل قطعة من طعامه فتقدمها إلى ابنها وابنتها.. ويرى «جان فالجان» ذلك ويتظاهر بأنه لا يرى.. كان يشتغل بالتحطيب والحصاد وحراثة الأرض.. ويفعل كل ما يستطيع لإطعام ذلك الجيش المحزن من الأطفال الجِياع.

إلى أن جاء شتاء شديد القسوة لم يجد فيه جان عملاً.. فبات الأطفال بلا طعام.. سبعة أطفال في البرد القارس.. وليست في الدار قطعة من الخبز !

وذات ليلة.. كان «موبير» الخباز يهم بالرقاد.. حين سمع صدمة عنيفة تهشم نافذة حانوته.. ورأى يدًا تمتد من الزجاج المحطم.. وتختطف رغيفًا.. فصاح مستنجدًا.. وانطلق في أثر اللص.. وأمسك به.. كان اللص قد ألقى الرغيف.. ولكن بعد أن خدش الزجاج ساعده وأسال دمه.. وسجل عليه جرمه.. كان هذا اللص «جان فالجان».. وحوكم «جان فالجان» بتهمة السطو.. وحُكم عليه بالسجن خمسة أعوام.. وقال أحد الذين أبصروه حين غُلّ عنقه بحلقة من حديد تمهيدًا لنقله إلى ليمان «طولون».. إنه كان مندهشًا.. لا يكاد يفهم شيئًا مما يدور حوله.. وعندما فرغ حداد السجن من تطويق عنقه.. بكى حتى خنقته العبرات.. وراح يتمتم: لقد كنت أشتغل بالتحطيب في فافيرول..

ثم شوهد وهو يرفع يده اليمنى ويخفضها سبع مرات بالتدريج.. كمن يمس رؤوس سبعة أطفال على التعاقب.. وكأنه أراد أن يقول إنه مهما تكن جريمته.. فإنه لم يقترفها إلا لإطعام الأطفال السبعة.. ووصل إلى «طولون» بعد رحلة استغرقت سبعةً وعشرين يومًا.. وهناك زالت الحياة التي ألقاها.. بل زال الزي الذي عُرف به.. فأصبح رقمًا بعد أن كان إنسانًا..

وفي نهاية العام الرابع.. تمكن «جان فالجان» من الفرار.. وهامَ على وجهه في الحقول يومين كاملين.. ثم قُبض عليه وأُعيدَ إلى الليمان.. وحُكم عليه بالسجن ثلاثة أعوام أخرى لاقترافه جريمة الهرب.. وأعاد الكرة في العام السادس وهرب للمرة الثانية.. ولكنه لم يدرِ إلى أين يذهب.. ووجده مطاردوه مختبئًا في سفينة ما تزال قيد البناء فاعتقلوه.. وحُكِمَ عليه في هذه المرة بالسجن خمسة أعوام..

حاول الفرار مرتين بعد ذلك.. وأخفق وعوقب بالسجن ثلاثة أعوام عن كل محاولة..

وبعد تسعة عشر عامًا أُطلِقَ سراحه من السجن الذي دخله لأنه سرق رغيفًا..

دخل السجن باكيًا.. جزعًاً.. مرتجفًا.. وغادره متجهمًا.. ناقمًا..

ولم يفقد خلال ذلك شيئًا من قوته البدنية التي كانت مضرب الأمثال..

كان يحمل من الأثقال مايعجز عنه أربعة رجال.. ويستخدم ظهره في كثير من الأحيان في ما تستخدم الآلة الرافعة لِحمله..

وكان قليل الكلام.. لا يضحك إلا نادرًا.. وإذا ضحك انبعث منه صوت قهقهة الأبالسة.. وفيما عدا ذلك كان دائم الوجوم.. كمن ينظر دائمًا إلى شيء بعيد مخيف..

والواقع أنه كان منصرفًا بكل عقله.. ونفسه المحطمة.. وحواسه الشاردة إلى تأمل ذلك الصرح المخيف الذي يوشك أن ينقض عليه ويهشمه.. وتلك الأكوام الهائلة من القوانين والحقائق التي تخيفه والتي هي الهرم الذي نسميه «المدنية»..

وكان يتأمل ذلك كله ويفكر فيه .. يحاول أن يفهمه.. ولكن هل تستطيع حبة الحنطة أن تفهم لماذا وُضعت بين شقي الرحى ؟

كانت تأملاته وأفكاره حلقة مفرغة تنتهي إلى حيث بدأت.. وتبدأ من نقطة واحدة لا تتغير هي كراهية القوانين البشرية.. تلك الكراهة التي تتطور مع الزمن إلى كراهيةٍ للمجتمع.. ثم كراهيةً للبشر.. فكراهيةً للخليقة.. تعبر عنها رغبة ملحة مهمة في إلحاق الأذى بأي إنسان.. وهكذا لم يبالغ القوم حين سجلوا عليه في الورقة الصفراء أنه رجل شديد الخطر..

وقد مات ضميره بالتدريج.. وأخذت مشاعره وإحساساته في الذبول حتى جفت.. ومن جفت مشاعره نضبت دموعه..

وها قدانقضى تسعة عشر عامًا منذ بكى «جان فالجان» للمرة الأخيرة..

ولما قيل له «اذهب.. فأنت حر».. تألق في ظلمات نفسه شعاع من الأمل والإيمان بحياة جديدة حرة.. ثم اضمحل هذا الأمل وتلاشى حين فهم معنى هذه الحرية المحدودة بورقة صفراء..

وامتزج اليأس في نفسه بالمرارة.. فقد قدر أجره عن عمله في الليمان بمائة وسبعين فرنكًا.. وفاته أن أيام العطلة والأعياد لا أجر لها.. فلما نقدوه مائة وتسعة فرنكات فقط.. لم يستطع تعليل ذلك.. وتوهم أن القوم قد سرقوه أخيراً كما ظلموه أولاً .



الغريب المنبوذ

كانت الشـــمس قد مالت إلى المغيب عندما دخل إلى «بريول» عابر ســـبيل يمشىـ على مهل.. وينتزع قدميه من الأرض انتزاعًا.. وكان بعض سـكان المدينة الصـغيرة يطلون من نوافذهم.. لينظروا إلى القادم بعيون ملؤها الخوف والقلق.. ذلك لأن أحدًا منهم لم ير إنسـانًا فى مثل رثاثته وهول منظره.. كان الرجل القادم متوسـط القامة.. متين البنية.. قوى العضـلات.. يُخيلُ للناظر إليه أنه فى السادسة أو الثامنة والأربعين من عمره.. وهو يرتدى ثوبًا أصفر اللون يكشف عن صدر تنمو فيه غابةً من الشعر الأسود.. وسِرِوالاً أزرق تطل منه إحدى ركبتيه.. وقبعة عريضة تخفى نصف وجهه الذى لفحته الشمس.. وقد أمسك بيده عصاً طويلة كثيرة العقد.. وتدلت فوق ظهره حقيبة منتفخة بما فيها.

ولابد أن يكون الرجل قد قضى النهار كله سائرًا على قدميه تحت أشعة الشمس المحرقة.. فقد كان ضعيفًاً منهوك القوى.. والغبار يعلو ثيابه.. والعرق ينصـــب على وجهه.. كان يشـــعر بظمأٍ شـــديد.. وأخذ يغترف الماء من النوافير العامة.

وما إن بلغ الرجل شارع بواشفر حتى استدار إلى اليسار.. ودخل مكتب البوليس وقضى هناك ربع ساعة تقريبًا.. وكان بباب المكتب شرطى جالسـاً على مقعد حجرى هناك.. فرفع الرجل قبعته وحيا الشرطـى باحترام وخضـوع.. ولم يرد الشرطى تحيته.. بل نظر إليه طويلاً.. ثم نهض من مكانه ودخل المكتب.

قصد عابر السبيل حانة كبيرة يملكها رجل يُدعى «لابار» وكان مطبخ الحانة بباب يؤدى إلى الشارع.. فنفذ الرجل إلى المطبخ.. وألقى بنفسه بين طائفة من الأفران والمواقد تتلظى فيها النيران تحت شرائح اللحم وأوانى الطعام.. وشعر صاحب الحانة بدخوله فرمقه بنظرةٍ سريعة.. ثم سأله دون أن يحول عينيه عن أوانى الطعام.. ماذا تطلب يا سيدى؟

فأجاب الرجل: أطلب طعامًا وفراشًا.

- ليس عندنا أيسر من ذلك..« ثم رفع عينيه نحوه» واستطرد: ما دمت تملك الثمن.

فأخرج الرجل من جيبه كيساً مليئاً بالنقود وأجاب: إن معي نقودًا..

فقال لابار: إذًا أنا في خدمتك..

فأعاد الرجل كيس النقود إلى جيبه.. ورفع الحقيبة التي تثقل كاهله ووضـــعها على الأرض.. وجلس على مقعد منخفض بالقرب من إحدى المواقد..

واستمر صاحب الحانة في عمله.. دون أن يكف عن النظر إلى الرجل خلسة..

سأله الرجل: هل أعددت طعامًا ؟

- سأعده فورًا..

وحوّل الرجل بصره إلى الباب لمراقبة المارة.. فتناول صاحب الحانة قلمًا.. واقتلع قصاصةً من جريدةٍ قديمة كان يغطي بها إحدى الموائد.. وكتب على القصاصة سطرًا أو سطرين.. ثم طواها.. ودعا خادمه.. ودفع بها إليه.. وهمس في أذنه كلامًا..

تناول الخادم القصاصة وأسرع بها إلى مكتب مدير البوليس..

ولم ير عابر السبيل شيئًا من ذلك.. وسأل للمرة الثانية عما إذا كان الطعام قد أُعد..

عاد الخادم بورقة دفعها إلى سيده.. فتناولها هذا بلهفة.. وقرأها بإمعان.. ثم هز رأسه.. ووقف لحظة مفكرًا.. وأخيرًا قصد إلى حيث كان الزائر.. وقال له:

- ليس في استطاعتي أن أجد لك مكانًا في حانتي يا سيدي..

فتحوّل إليه الرجل بطء وقال: ماذا تعني ؟ أتظن أنني سأحتال عليك وأخدعك؟ أتريدني أن أدفع الأجر سلفًا ؟ إن معي نقودًا كما قلت لك..

- ولكن ليس في الحانة فراش لك..

فقال الرجل في هدوء: إذًا دعني أنام في الإسطبل !

- لا أستطيع.. لأن الجِياد تحتلُ الإسطبل كله..

بحسبي إذًا كومة من القش أرقد عليها فوق السطح.. على أننا نستطيع إرجاء الكلام في هذا إلى ما بعد الطعام..

- ليس في استطاعتي أن أقدم لك طعامًا..

- ماذا تقول؟ إنني أكاد أموت جوعًا.. إنني أسير على قدمي منذ بزوغ الشمس.. وقد قطعت اثنى عشر فرسخًا.. إنني أطلب طعامًا.. وأستطيع أن أدفع الثمن..

فأجاب صاحب الحانة بلهجة حاسمة: لا طعام عندي..

فانفجر الرجل ضاحكًا.. وقال وهو يلوح بيده نحو شرائح اللحم:

- لا طعام عندك؟! ما كل هذا إذًا ؟

- هذا طعام نزلاء الحانة..

- وكم عدد هؤلاء النزلاء ؟

- اثنا عشر..

- هذا الطعام يكفي عشرين شخصًا..

وتنهد .. واستطرد في هدوء: إنني في حانة.. وأشعر بالجوع فكيف يُراد مني أن أظل جوعان؟!

عندئذ انحنى صاحب الحانة وقال له في همس: خير لك أن تنصرف !

فرفع الرجل رأسه بحدة.. وفتح فمه.. وهَمَ بالكلام..

ولكن صاحب الحانة قاطعه بصوت خافت:

- كفى! كفى! أتريدني أن أذكر لك اسمك ؟ إن اسمك «جان فالجان».. أتريد أن أقول لك من أنت ؟ لقد ارتبت في أمرك عندما رأيتك.. فاتصلت بمكتب البوليس وجاءني هذا الرد.. أتعرف القراءة ؟

قال ذلك وبسط الورقة أمام عيني الزائر.. وأردف بعد صمت قصير:

- إنني تعودت أن أعامل جميع الناس بالحسنى.. لذلك أرجوك أن ترحل.. فنهض الرجل واقفًا.. وحمل حقيبته وعصاه .. وانصرف !

مشى ببطء ملتصقاً بالجدران.. ذليلاً..حزيناً.. منكسراً.. لا يتلفت يُمنةً أو يُسرة.. ولا ينظر وراءه.. ولو فعل لرأى صاحب الحانة واقفًا بباب حانته وحوله زبائنه وبعض المارة وهو يتحدث إليهم ويشير نحوه.. ولو رأى نظرات الذعر والارتياب التي ارتسمت في عيون القوم وهم يُصغون إلى حديث صاحب الحانة لأدرك أن وجوده لن يمكث طويلاً حتى يصبح حديث الناس جميعًا في المدينة.. لكنه لم ينظر أبداً وراءه.. لأن البؤساء لا ينظرون وراءهم.. فهم يعلمون أن النحس يلازمهم.. وأن الشقاء يطاردهم.. فما الحاجة إذن للنظر للوراء؟!

قضى الرجل الغريب وقتًا طويلاً وهو يسير في طرقاتٍ لا يعرفها.. ونسي تعبه.. فالحزن أيضاً يُنسي التعب.. وما لبث أن شعر بوطأة الجوع ثانيةً.. ورأى الظلام يحيط به من كل جانب.. فأدار البصر حوله في البحث عن مكان يلجأ إليه.. ومن بعيد رأى مصباحًا مضيئًا في آخر الشارع.. فقصد إليه.. وجده مصباح حانة صغيرة.. فوقف أمام نافذة الحانة.. وأرسل بصره إلى الداخل.. فإذا بعض الناس يحتسون الخمر.. وإذا بصاحب الحانة يحرك طعامًا في آنية فوق الموقد..

وكان للحانة بابان: أحدهما كبير يؤدي إلى الشارع.. والآخر صغير يوصل إلى فناء ضيق !

ولم يجرؤ عابر السبيل على الدخول من الباب الكبير.. بل تسلل إلى الفناء.. ووقف قليلاً بالباب الصغير.. ثم تشجع.. ودفعه بيده ودخل..

وعندئذ هتف صاحب الحانة: من هذا ؟

فكان الجواب: رجل يطلب طعامًا ومرقدًا !

- هذا حسن .. ستجد مطلبك هنا..

وتحوّلت جميع الأنظار إلى الرجل وهو يرفع الحقيبة عن عاتقه..

قال له صاحب الحانة: إن الطعام في الموقد.. فاقترب من النار وتدفأ إذا شئت..

فجلس الرجل على مقعد.. ومد قدميه المتورمتين من تأثير التعب..

وامتلأت خياشـيمه بالرائحة الشـهية المنبعثة من وعاء الطعام.. وارتسـمت على وجهه علامات الارتياح ممتزجة بتلك الكآبة التي يخلقها الشـقاء الدائم.. وكان بين الموجودين رجل قضى— قبل ذلك بعض الوقت في حانة «لابار».. وسـمع حديث هذا الأخير عن ذلك الزائر الغريب المريب.. فدعا إليه صـاحب الحانة وهمس في أذنه كلامًا.. أصـغى إليه صاحب الحانة باهتمام.. ثم قصد إلى حيث كان الزائر.. وألقى بيده على كتفه وقال: يجب أن تنصرف من هنا..

فتحوّل إليه الزائر.. وهتف بلطف: آه .. أنت تعلم ..

- نعم..

- لقد طُرِدتَ من الحانة الأخرى.. وستُطرد من هذه الحانة كذلك..

- وأين تريدني أن أذهب ؟

- اذهب إلى أي مكانٍ آخر..

فحمل الرجل حقيبته وعصاه وانصرف..

وكان بباب الحانة بعضُ الصـبية الذين تعقبوه منذ غادر الحانة الأولى.. فما كاد يخرج من الباب حتى راحوا يقذفونه بالحجارة.. فتحول إليهم الرجل.. وهددهم بعصاه فتفرقوا بسرعة كما يتفرق سِرب من الطيور..

ومر الرجل بباب السجن.. ودق الجرس.. فأطل الحارس من كوة صغيرة بالباب..

قال الرجل وهو يرفع قبعته بتواضع: سيدي.. هل تتفضل بأن تفتح لي الباب لأقضي ليلتي هنا؟

فأجاب الحارس بصـوت أجش: إن السـجن ليس حانة.. دعهم يلقون القبض عليك فأفتح لك الباب عن طيب خاطر..

ولم يكن الرجل يعرف شــوارع المدينة.. فراح يضربــب في الطرقات على غير هدى.. ولا يعلم إلى أين يذهب.. ومر بالكنيســـة.. فلوح نحوها بقبضـــة يده مهددًا.. كان التعب واليأس قد هدّا قواه.. فتهالك جالســـاً على مقعد حجري بالقرب من الكنيسة..

وخرجت من الكنيســة ســيدة متقدمة في الســن.. ورأت هذا الرجل الممدد في الظلام.. فســألته في رفق: ماذا تفعل هنا أيها الصديق ؟

فأجابها في غِلظة وخشونة: ها أنت ترين أنني أطلب النوم..

- أتنام على هذا المقعد الحجري ؟!

فأجاب الرجل: منذ تسعة عشر عامًا وأنا أنام على قطعة من الخشب.. وهأنذا الآن أرقد على حجر..

- هل كنت جنديًا ؟

- نعم يا سيدتي ..

- ولماذا لا تذهب إلى الحانة ؟

- لأنني لا أملك نقودًا..

فقالت المرأة في حزن: وا أسفاه.. ليس لدى من النقود سوى «سنتيمان[٤]»..

- في استطاعتك على كل حال أن تجودي بهما عليّ.. وتناول السنتيمين..

وقالت المرأة: هذا المبلغ الزهيد لا يكفي لمبيتك في الحانة.. ولكن يجب عليك أن تجرب.. فأنت جوعان بغير شك.. والليل هنا شديد البرودة.. ومن المحتمل أن تجد من يطعمك ويؤويك على سبيل الإحسان..

- إنني طرقت جميع الأبواب..

- وماذا كانت النتيجة ؟

- لقد طردني الجميع..

فألقت المرأة بيدها على ساعده.. وقالت وهي تشير إلى منزل صغير بجوار الكنيسة..

- تقول إنك طرقت جميع الأبواب.. فهل طرقت هذا الباب ؟

- لا..

- أطرقه إذاً..

---

(٤) السنتيم : عملة صغيرة القدر كانت تستخدم في فرنسا آنذاك.

بيت الأسقف

الأب «شـــارل فرنســـوا ميريل» هو أســـقف «برينول».. ولا يعلم الناس عنه أكثر من كونه ينتمى لأسرة كريمة فى «إكس» وأن أباه كان عضواً فى مجلس النواب.. وقد زوجه أبوه وهو فى سن العشرين.. وعنى بإعداده لكى يخلفه فى نيابته بالمجلس كما هى العادة فى بعض الأسر.

لكن الفتى كان وقتئذ متين البناء.. رشـــيق القامة.. سريع الخاطر.. ممتلئاً قوة وفتوة.. فآثر دنياه على دينه.. وقضى أيام شبابه الأولى فى إشباع شهواته الدنيويه..

ثم جاءت الثورة الكبرى.. وتبعثرت الأسر العريقة.. فرحل «شارل «ميريل» مع زوجته إلى إيطاليا.. وهناك أصيبت الزوجة بالتهاب الرئة.. وقضت نحبها.

ولا أحد يعلم على وجه الحقيقة نوع الأزمات والكوارث التى تعرض لها « شارل «ميريل» بعد ذلك.. وكل مايعرفه الناس عنه أنه عندما عاد بعد ذلك من إيطاليا.. كان يرتدى ثياب القسّ.. وكان العمرُ قد تقدم به.. وا ستحوذت عليه ملامح الشـيخوخة.. وتبدل به الحال إلى رجلٍ آخر.. فأقام فى «بريتول» مع أخته الآنسـة «باتسـتين» وخادمته مدام «ماجلوار».

لم تكن «باتســتين» على شيء من الجمال.. فهى طويلة القامة نحيفة الجســم شــاحبة اللون.. ولكنها وهبت كل حياتها للعبادة وعمل الخير.. فخلع عليها ذلك كله مع تقدمها فى السن شيئاً من النقاء وجمال التقوى.

وأما مدام «ماجلوار» فقد كانت قصــيرة.. بدينة.. لاهثة الأنفاس على الدوام لســببين.. أولاً لكثرة حركتها.. وثانياً لإصابتها بأزمة تنفسية مزمنة.

أقام الأب «ميريل» فى قصر الأبرشية«٥».. وهو قصر عظيم تم تشييده فى بداية القرن السابع عشر.. وأُحِيطَ بحديقة واسعة.. وكان أول ما فعله أنه زار مستشفى المدينة فوجده قديمًا ضيقًا لا يكاد يتسع للمرضى.. فانتقل إلى المستشفى.. ونقل المرضى إلى القصر.

لم يكن الرجل ذا ثروة فقد عصفت الثورة بأملاك أسرته.. وبقى لأخته إيراد لايتجاوز خمسمائة فرنك.. وكان الأب «ميريل» يعتمد فى نفقاته الشخصية على مشاركته شقيقته هذا الإيراد.

أما راتبه بصـفته أسـقفاً «وهو ١٥ ألف فرنك فى العام» فإنه رصـده لأعمال الخير.. والبر بالفقراء.. ورتب حياته على هذا الأســاس.. وعرض أمره أولاً على شـقيقته «باتسـتين».. فابتسـمت ووافقت فى الحال.. ذلك لأن هذه المرأه الملائكية كانت ترى فى الأب «ميريل» أخاها.. وقسها فى وقت واحد.. وكانت تحبه.. وتحترمه.. وتحنى رأسها إذا تكلم.. وتوافق على كل ما يفعل.

([1]) الأبرشية هى كلمة ذات أصل يوناني تعنى في مُجمل استخدامها دور العبادة أو الإقامة الكُنسية.

وكان للأسقف إيراد آخر غير محدود من الهبات والمناسبات المتصلة بأعمال الكنيسة.. كالزواج والعِماد وغيرهما.. وفى هذه المناسبات كان الرجل يُلح فى تحصيل أجره من الأغنياء.. لا لشئ إلا ليوزعه على الفقراء.

ثم كانت له بحكم عمله مركبةً خاصة.. يسرع بها لنقل المرضى إلى المستشفى.. وراح يقوم بزيارته إلى كنائس أبرشيته المترامية الأطراف سيراً على قدميه.

وكانت للأسقف طريقته الخاصة فى الحكم على الأشياء.

فقد سمع ذات يوم بقضية تقرر النظر فيها أمام محكمة «برينول».. وهى قضية رجل ضاقت به الحياة.. فاصطنع نقوداً زائفة.. لإطعام زوجته وولده. وكانت عقوبة التزييف فى ذلك الإعدام[٦].

ومن سوء حظ الرجل أن زوجته ما كادت تعرض للتناول أول قطعة صنعها حتى افتضح أمرها وأُلقى القبض عليها.

ولم يكن من دليل على جرم الرجل إلا أن تعترف زوجته وتشى به.. وتسوقه إلى التهلكة.

لكن المرأة أنكرت.. وضيَّق المحقق الخناق عليها.. فأمعنت فى الإنكار.. وأخيراً خطر للمحقق خاطر.. فأوهم المرأة أن زوجها يخونها وأنه اتخذ لنفسه من دونها خليلة.. وأقنعها برسائل اصطنعها لهذا الغرض.. فدبت الغيرة فى قلب المرأة دبيب الموت فى الحياة.. واعترفت بكل شيء.. وقدمت من الأدلة ما يكفى لإدانة الزوج.

وهكذا ضاع الزوج التعس.. وأُرسِلَ إلى السجن انتظاراً للمحاكمة.

وتحدث الناس ببراعة المحقق وبعد نظره.. ودهاءه ومقدرته على استغلال غيرة المرأة وتسخير العاطفة لإبراز الحقيقة.

وسمع الأسقف هذه القصة فسأل: وأين بحاكم الرجل وزوجته؟ فأجيب: أمام محكمة الجنايات.

قال الأسقف: وأين يُحاكم المحقق؟

وكان الأب «ميريل» على استعداد فى كل ساعة من ساعات الليل والنهار لتلبية دعوة مريض أو محتضر.. بل لم يكن يترك للعائلات المنكوبة والثكلى فرصةً لدعوته.. لأنه كان يذهب إليها من تلقاء نفسه.

كان يعرف كيف يجلس الساعات الطويلة صامتاً بجانب الزوج الذى فقد زوجته الحبيبة.. أو بجانب الأم التى اختطف الموت فلذة كبدها.

([١]) هنا يُعرضُ هوجو لعقوبة الإعدام التى سيكون فيما بعد من أهم معارضيها.. والمطالبين بإسقاطها من القانون الفرنسي.. بل ومن كافة قوانين.. ودساتير العالم.

وكما كان يعرف متى يصـــمت.. كذلك كان يعرف متى يجب عليه أن يتكلم.. ليدخل الســـلوان والعزاء إلى نفس المنكوب.. وهو عندئذ لا يعمل على محو الحزن بالنســـيان.. بل ينفخ فى الحزن روح الأمل فيجعل منه شـــيئاً نبيلاً سامياً.

وكان المنزل الذى يُقيم فيه الأسـقف يتألف من طابقين.. طابق أرضى فيه ثلاث غرف.. إحداهما للطعام.. والثانية لنوم الأسقف.. والثالثة لإيواء الضيوف.. وطابق علوى تُقيم فيه المرأتان .

أما الغرفة الصغيرة القائمة فى ركن الحديقة.. والتي كانت فيما مضى مطبخاً للمستشفى.. فقد وضع فيها الأسقف بقرتيه الحلوبتين اللتين اعتاد أن يرسل نصف ألبانهما إلى المستشفى فى كل صباح.

ولما كانت غرفة نومه فسيحة جداً يصعب تدفئتها فى الشتاء.. وكان الخشب المستخدم في هذا التوقيت غير متوفر.. وغالى الثمن.. فإنه وضـــع فى حظيرة البقرتين حاجزاً شـــطرها إلى شـــطرين.. جعل أحدهما للبقرتين.. واتخذ الثانى مخدعاً لبيبته فى الشتاء.

أما أثاث المنزل فكان متناهياً فى البـساطة.. وأثمنُ ما فيه بعض الأطباق الفـضية.. و شمعدان من الفـضة ورثهما الأ سقف عن عمُته.. فإذا جاء ضيف لتناول طعام العـشاء.. أسرعت مدام ماجلواز فأ ضاءت الـشمعدانين.. وو ضعت الأطباق الفـضية على المائدة.

ومتى رُفِعَ الطعام.. أعيد الشمعدانان إلى مكانيهما فوق الموقد.. ووضعت الصِحافُ فى خِزانة جرت العادة أن يُترك بابها مفتوحًا.

ولا عجب فى ذلك فالأبواب فى منزل الأ سقف كانت تُترك مفتوحةً ليل نهار.. وكان لهذه الأبواب مزاليج من حديد.. ولكن الأســـقف أزالها جميعًا ليتمكن عابر الســـبيل من الدخول فى أى وقت.. وكم ذعرت المرأتان من هذه الأبواب التى لا تُغلق أبدًا.. وكان الأسقف يقول لهما فى هدوء: بابان يجب ألا يغلقا.. باب الطبيب.. وباب القس.

جان فالجان

كانت مدام «ماجلوار» تتحدث بحدة وحماسة.. و«باتستين» تصغي إليها في هدوء ودعة.. وكان موضوع الحديث تلك المزاليج الحديدية التي أمر الأسقف بإزالتها..

وكانت مدام «ماجلوار» قد خرجت لشراء بعض الأشياء.. فسمعت أحاديث الناس عن ذلك الشريد المريب الذي هبط على المدينة.. وكان رأيها أن الأسـقف أخطأ حين أزال مزاليج الأبواب.. ولا سـيما أن الأمن في المدينة مضـطرب بسبب الخلاف بين العُمدة ومدير البوليس.. فكلا الرجلين يسره أن تتعدد الحوادث المزعجة ليلقي التبعة على الآخر..

ودخل الأسقف في هذه الأثناء.. وسمع الشطر الأخير من كلام مدام «ماجلوار» عن وجوب الأخذ بأسباب الحيطة والحذر.. ولكنه لم يلق بالاً إلى حديثها.. لأنه كان في شغل بالتفكير في أعمال اليوم التالي..

وأرادت «باتستين» أن تُرضي مدام «ماجلوار» دون أن تزعج أخاها.. فقالت للأسقف:

- أسمعت حديث مدام «ماجلوار» يا أخي ؟

فأجاب الأسقف في لطف: لا.. لا.. ماذا كانت تقول ؟

فسردت مدام «ماجلوار» قصتها فيها كثير من المغالاة..

قالت: إن متشردًا مريبًا عاري القدمين.. مخيف المنظر.. قد هبط على المدينة وأراد النزول في حانة «لابار» فطرده صاحبها.. وهذا المتشرد يبدو أنه شخص خطر.. أو شقي هارب من السجن.. فقد شوهد وهو يتسلل في شوارع المدينة تحت جنح الظلام..

- أحقًّاً ما تقولين يا مدام «ماجلوار» ؟

- نعم يا سيدي.. ومن رأيي ورأي الآنسة..

فقاطعتها «باتستين»: إنني لا أرى غير ما يراه أخي..

فقالت مدام «ماجلوار» بحدة: من رأيي أن هذا المنزل ليس مأمونًا.. وإذا أراد سـيدي.. فإنني انطلق في الحال إلى «بولان» الحداد.. وأطلب منه إعادة المزاليج إلى أماكنها في الأبواب.. نعم يا سـيدي.. يجب أن نوصـد الأبواب ولو هذه الليلة فقط.. فإن في اسـتطاعة أي عابر سـبيل أن يدفع الباب الخارجي بيده ويدخل .. وهذا مخيف.. ثم إن سيدي قد اعتاد أن يقول للطارق «ادخل» قبل أن يتحقق من أمره .. فإذا حدث في منتصف الليل أن..

وفي هذه اللحظة سمعوا طرقًا على الباب.. فقال الأسقف: ادخل..

فانفتح الباب بقوة.. ودخل الرجل الغريب.. وكان لايزال حاملاً حقيبته وعصـاه.. وعلى وجهه علامات التعب والسأم.. وفي عينيه نظرة صارمة شرسة.. أبصرته مدام «ماجلوار».. فارتجف قلبها.. ولم تقو حتى على الصياح..

وحوّلت «باتســـتين» عينيها نحو القادم.. فشَـــلَ الذعر حركتها لحظة.. ولكنها ما لبثت أن نظرت إلى أخيها وبدأ وجهها يعود إلى هدوئه وانبساطه..

أما الأسقف فإنه كان ينظر إلى الزائر ببساطة وفتح فمه ليسأله عما يبتغي..

ولكن الزائر لم يترك له فرصة للكلام.. بل نظر إلى المرأتين بسرعة ثم أسند يديه على عصاه.. وقال محدثًا الأسقف بصوت مرتفع:

- اسمي «جان فالجان».. وقد خرجت من الليمان بعد أن قضيت فيه تسعة عشر عامًا.. خرجت منذ أربعة أيام.. واعتزمت الوصـول إلى «بونتارلييه».. ومنذ أربعة أيام وأنا أسـير على قدمي.. وقد قطعت اليوم اثنتي عشرـة مرحلة.. ووصلت الليلة فقط إلى هذه المدينة.. فقصدت الحانة.. ولكني طُرِدتُ منها لأنني أحمل التذكرة الصفراء التي يحملها سجين سابق.. ولأنني أبرزت هذه التذكرة في مكتب البوليس كما يتعين عليّ أن أفعل في كل مكان أصل إليه..

ولما ذهبت إلى حانة أخرى طردني صاحبها أيضًا.. جميع الناس يطردونني.. ولا أحد يريد أن يكلمني..حتى السجن قصـدته.. ولكن السـجان رفض إيوائي.. ولجأت إلى حظيرة أحد الكلاب.. ولكن الكلب عضـني وطردني.. كأنه إنسـان يعرف حقيقة أمري.. وخطر لي أن أنام في الحقل.. ثم تذكرت أن السـماء قد تمطر ولا يوجد من يمنع المطر من أن يهطل.. وأخيراً تمددت على حجر أمام الكنيسة حتى مرت بي إحدى النساء وأ شارت إلى بيتك.. وقالت لي: «اطرق بابه».. فأي بيت هذا؟ هل هو حانة ؟! إنني أملك مائة وتسعة فرنكات وخمسة عشر سنتيمًا ربحتها من عمل تسعة عشر عامًا في الليمان.. وأنا على استعداد لأن أدفع الأجر.. فقط إنني متعبٌ.. وجوعان.. فهل تسمح لي بالبقاء هنا ؟

فقال الأسقف: مدام «ماجلوار».. ضعي طبقًا آخر على مائدة الطعام..

فاقترب الزائر خطوة أخرى.. وهتف كأنه لم يفهم:

ـ صبراً لحظة.. ألم تسمعني يا سيدي ؟ لقد قلت لك إنني سجين سابق.. إنني قادم من الليمان..

وأخرج من جيبه ورقة صفراء كبيرة.. فبسطها بين يديه وأردف:

ـــ ها هي تذكرتي الشخصية.. إنها صفراء كما ترى.. وفيها الكفاية لطردي من أي مكان أذهب إليه.. هل تريد أن تقرأها.. دعني أتلو عليك ما جاء فيها.. فإنني تعلمت القراءة في الليمان.. إليك ما جاء فيها يا سيدي:

«جان فالجان».. مولود في «فاتيرول» قضىـ في الليمان تســعة عشرـ عامًا.. منها خمســة أعوام لارتكابه جريمة السطو.. وأربعة عشر عامًا لمحاولته الفرار أربع مرات.. وهو رجل خطير..

هل سمعت يا سيدي.. إنني رجل خطير.. وجميع الناس يجتنبونني ويطردونني.. فهل ترغب مع ذلك في إيوائي ؟! هل تقدّم لي طعامًا وفراشًا؟ هل لديك اصطبل أقضي فيه ليلتي؟

فقال الأسقف: مدام «ماجلوار».. ضعي غطاءاً نظيفًا على فراشي.. وتحوّل الأسقف إلى الزائر وقال: اجلس بجانب الموقد يا سيدي وتدفأ سنتناول الطعام في التوّ واللحظة..

فذُهِلَ الرجلُ وظهر على وجهه مزيج من الشرود والشك.. ثم هتف كالمجنون:

- أحقًّاً ما تقول ؟! أتسمح لي بالبقاء ؟ وتقول لي «يا سيدي» بدلاً من أن تنهرني وتصرخ في وجهي « اذهب أيها الكلب»؟! لقد كنت واثقًا من أنك ستطردني كما طردني الآخرون.. ولذلك صارحتك بحقيقة أمري.. إذًا سأتناول طعامًا.. وسأرقد على فراش كما يرقد سائر الناس.. إنني لم أنم في فراش منذ تسعة عشر عامًا.. أنت في الحق رجل رضي الخلق.. وسأنقذك الأجر بسخاء.. ولكن بهذه المناسبة.. من أنت ؟! وما اسم هذه الحانة ؟!

فأجاب الأسقف: إنني قس.. وأعيش في هذا البيت..

- ما أطيب قلبك أيها القس.. وما أشد غبائي.. كان يجب أن ألاحظ من ثيابك أنك من رجال الكنسية..

وكان وهو يتكلم قد وضع الحقيبة والعصا في أحد الأركان.. وأعاد الورقة الصفراء إلى جيبه.. واستطرد:

- إنك رجل رحيم لا تحتقر الآخرين يا سيدي.. فما أجمل أن يكون القسّ رحيماً.. إذًا ليس من الضروري أن أدفع أجرًا !

فأجاب الأسقف: كلا.. احتفظ بنقودك.. كم من الزمن ربحت هذه المائة والتسعة فرنكات ؟

- في تسعة عشر عامًا..

- تسعة عشر عامًا !

وأفلتت من فم الأسقف آهة عميقة..

ومضى الرجل في حديثه فقال: ما زال المبلغ كله معي.. وقد أنفقت.. في هذه الأيام الأربعة خمسة وعشرين سنتيمًا ربحتها من تفريغ عربات النقل في «جراس»..

وفي هذه اللحظة دخلت مادام ماجلوار.. ووضعت على المائدة معلقة من الفضة..

قال الأسقف: مداد ماجلوار.. أرجو أن تضعي المائدة بالقرب من الموقد..

ثم التفت إلى الزائر وقال: إن الريح شديدة هذه الليلة.. ولابد أنك تشعر بالبرد يا سيدي..

كانت أسارير وجه الرجل تنبسط كلما سمع كلمة «سيدي».. كان متعطشًا إلى الاحترام تعطش الظمآن إلى الماء..

وقال الأسقف: هذه المصباح يرسل ضوءًا ضئيلاً يا مدام «ماجلوار»..

فأدركت مدام «ماجلوار» غرضه وجاءت بالشمعدانين الفضيين وأضاءتهما..

قال الرجل: إنك رجل ذكي سيدي الأسقف.. فأنت لا تحتقرني.. وتستقبلني في بيتك كأنني صديقك.. وتضيء هذه الشموع الكثيرة إرضاءاً لي.. كل ذلك على الرغم من أنني صارحتك بحقيقة أمري وذكرت لك من أين أنا قادم..

فمدَ الأسقف يده بلطف وقال: لم تكن ثمة ضرورة لأن تذكر لي من أين أنت قادم.. فهذا البيت ليس بيتي.. ولكنه بيت الله.. وهذا الباب لا يسأل الداخل عن اسمه.. وإنما يسأله عن همومه ومتاعبه.. وأنت رجل متعب وجائع.. فأهلاً بك وسهلاً.. وليس لك أن تشكرني أو تزعم أنني أستقبلك في بيتي.. فهذا بيت كل من يحتاج إلى ملجأ.. هذا بيتك أكثر منه بيتي.. وكل ما فيه لك فما حاجتي إلى معرفة اسمك وماضيك ؟! وبعد فإنني كنت أعرفك قبل أن تذكر لي شيًئاً من أمرك..

ففتح الرجل عينيه في دهشة وهتف: أحقًا إنك تعرفني ؟!

فأجاب الأسقف.. نعم.. إنني أعرف أنك أخي..

فهتف الرجل: يا سيدي.. إنني كنت أشعر بالجوع عندما دخلت هذا المكان.. ولكنني أصبحت من كرمك لا أدري بماذا أشعر الآن..

فنظر إليه الأسقف طويلاً ثم سأله: هل عانيت كثيراً ؟

فصاح الرجل: أتسألني كم عانيت من ثقل السلاسل ؟ ومن البرد والحر والضرب واللطم والاحتقار والمذلة والعمل الشاق ؟! لقد كانت الكلاب أسعد مني..

- نعم إنك قادم من مكان مليء بالأحزان.. ولكن أصغ إليّ.. إن في السماء من السعادة للمجرم التائب أكثر مما فيها لمائة من الشرفاء الأمناء.. فإذا خرجت من الدنيا بقلبٍ مفعم بالحنق والحقد على إخوانك البشر.. فإنك تكون جديراً بالشفقة على نفسك.. وإذا خرجت منها بقلب مليء بالسلام والطمأنينة.. كنت جديراً بأضعاف ما يستحق أي واحد منا..

وفي هذه الأثناء كانت مدام «ماجلوار» قد أعدت طعاماً يتألف من الحساء واللحم والجبن والخبز وقليل من التين.. فهتف الأسقف وقد انبسطت أسارير وجهه النبيل..

- هلموا إلى المائدة..

ولكنه ما كاد يستوي في مقعده حتى أردف: يُخيل إلى أن المائدة ينقصها شيء..

والواقع أن مدام «ماجلوار» لم تكن قد وضعت على المائدة إلا الضروري جدًا من الأطباق الفضية.. وقد جرت العادة إذا جاء زائر أن تحفل المائدة بالأطباق الفضية جميعاً كمناورة برئية تُكسب فقر الأسقف مظهرًا من الغنى..

وفهمت مدام «ماجلوار» وانطلقت من الغرفة.. ثم عادت بعد قليل وبين يديها طائفة من الملاعق والصحاف..

أقبل الرجل على الطعام يلتهمه بنهم دون أن ينطق بكلمة أو يلقي بالاً إلى أحد.. ولكنه قال بعد الطعام:.يا سيدي الأسقف.. إنني قانع بهذا الطعام.. ولكني لا أكتمك أن الطعام الذي يقدَّم لنزلاء الحانة أفضل من هذا بكثير..

فرفعت «باتستين» حاجبيها قليلاً وأجاب الأسقف:

- لعل نزلاء الحانة يؤدون عملاً أشق من عملي !

فقال الرجل: كلا.. إنهم أكثر منك مالاً.. وإني أرى في وضـــوح أنك فقير.. بل وربما لم تكن أســـقفًا كما تزعم.. ولو كانت في السماء عدالة لوجب أن تكون أسقفًا..

فأجاب الأسقف في هدوء: إن في السماء من العدالة ما يكفي..

واستطرد بعد لحظة: إنك قلت يا مسيو «جان فالجان» إنك تقصد إلى «يونتارلييه» ؟!

- نعم ويجب أن أسـتأنف رحلتي قبل بزوغ الشـمس.. وهي رحلة شـاقة لأن الجو شـديد الحرارة نهارًا.. بقدر ما هو شديد البرودة ليلاً..

فقال الأسقف: إذًا فأنت في أشد الحاجة إلى الراحة..

وتناول أحد الشمعدانين.. وقدم الشمعدان الآخر إلى ضيفه وقال: دعني أدلك على فراشك..

واجتاز به الغرفة المجاورة حيث فراشـــه.. وحيث كانت مدام «ماجلوار» تعيد الأطباق الفضـــية إلى مكانها في الصوان.. ونفذ به إلى الغرفة التالية حيث الفراش الذي أُعد للضيوف..

قال الأسقف محدثًا ضيفه: أتمنى لك ليلةً سعيدةً يا سيدي.. وآمل ألا ترحل غدًا قبل أن تتناول قدحاً من اللبن..

فأجاب الرجل: شكرًا لك يا سيدي..

ثم انقلبت ســحنته فجأة.. وانبعثت من عينيه الثاقبتين نظرة مخيفة لو أبصرــتها المرأتان لصُــعِقتا هلعًاً وخوفاً.. وقال محدثًا الأسقف.. وقد عقد ساعديه فوق صدره..

- ما هذه ؟ أتسمح لي بالمبيت بالقرب منك ؟

وأفلتت من فمه ضحكة وحشية واستطرد: هل فكرت في الأمر مليًا ؟ ما يدريك أنني لم أرتكب جريمة قتل ؟

فأجاب الأسقف: ذلك من شؤون الله..

وتمتم صـلاةً قصـيرة.. وبســط يده نحو الرجل وباركه.. ولكن الرجل مل يطأطئ رأســه كما هي العادة.. وانصرـف الأسقف دون أن ينظر وراءه..

وبعد لحظة كان يمشي في الحديقة مشية الحالم المتأمل المفكر في الأسرار الرائعة التي أودعها الله جوف الليل.. أما الرجل وقد استبد به التعب فلم يفكر في التخلص من أسماله.. وما كاد يطفئ الشموع ويتمدد على الفراش الوثير النظيف حتى غلبه النوم.. وحوالي منتصف الليل استيقظ «جان فالجان»..

استيقظ «جان فالجان» حوالي منتصف الليل لسبب واحد.. هو أن الفراش كان وثيراً.. ولم يكن قد رقد في فراش وثير منذ عشرين عامًا.. فأقنعته هذه الفترة القصيرة من التنعم.. وأقضت مضجعه.. ففتح عينيه ودار بهما في الظلام.. ثم أغمضهما وحاول أن ينام مرةً أخرى.. ولكنه لم يستطع.. وتزاحمت في رأسه الأفكار والخواطر.. ولكنها تبددت جميعًا أمام خاطر واحد ملأ ذهنه وشغل عقله.. كان قد رأى مدام «ماجلوار» وهي تضع الملاعق والأطباق الفضية في الخزانة.. ولفت نظره بصفةٍ خاصة طبق الحساء الكبيرة الذي تساوي مائتي فرنك على الأقل.. أي ضعف المبلغ الذي ربحه بعرق جبينه خلال تسعة عشر عامًا.. وأزعجه أن يشعر بوجود هذه الثروة على مقربة منه ولا يفكر فيها.. فكر طويلاً في هذه الثروة.. وقاوم صراع نفسه.. ولكنه كان نضالاً قصير الأجل.. ودقت ساعة الكاتدرائية.. ففتح عينيه فجأة.. واستوى جالسًا على حافة الفراش.. وبقي كذلك ساعةً أو بعض ساعة.. وهو بين مُقدمٍ.. ومُحجم.. وتلك الخواطر الشريرة المغرية تحتل ذهنه تارةً.. وتبتعد عنه تارة أخرى لكي تعاوده بشكل أكثر إلحاحاً.. إلى أن دقت الساعة ثلاثة دقات.. فوثب من مكانه كمن لدغه عقرب.. وكأن دقات الساعة هاتف خفي يهتف به «هلم إلى العمل».. ووقف لحظة أخرى أخذه الشرود وسط كل هذا الهدوء الذى يلف المكان.. فلا صوت ولا حركة.. والقمر يطل من بين السحب تارة ويحتجب وراءها تارة أخرى..

ومشي «جان فالجان» إلى نافذة الغرفة.. وفحصها.. فوجدها خاليةً من القضبان الحديدية وحديقة المنزل تترامى تحتها.. واكتسح الحديقة بعينيه الحديديتين.. فألفاها محاطةً بجدار منخفض يسهل اجتيازه..خلع حذاءه ووضعه في حقيبته.. وتناول من الحقيبة قضيبًا حديديًا صغيراً.. أطبق عليه أصابعه بقوة.. وتسلل إلى الغرفة المجاورة وهو يحبس أنفاسه.. دفع الباب بيده بلطف فانفتح.. ولكنه أحدث صوتًا ثقب أذنيه كأنه صوت الصور يوم الحشر.. وخُيل إليه في ذعر أن الحياة قد دبت في الباب.. فنبح كالكلب لإيقاظ النيام وتحذير الغافلين.. جمُدَ في مكانه.. ودوت نبضاته في أذنيه كدوي المطارق.. وخُيِلَ إليه أن أنفاسه تخرج منه كزئير الريح في أشرعة السفينة..

ومرت بضع دقائق ظل الباب في خلالها مفتوحًا..

ثم أجال البصر في جوانب الغرفة.. فألفى كل شيء أمامه ساكنًا.. إذاً لم ينبه صرير الباب أحداً ؟ وإذاً قد زال الخطر ؟!

وعلى الرغم من الاضطراب الذي كان ما يزال يعصف بأعماقه.. فإنه لم ينكص على عقبيه.. بل لم يفكر لما يفعل ذلك.. كان كل تفكيره منصبًا على الفراغ بأسرع ما يمكن من المهمة التي عقد العزم على فعلها..

دخل الغرفة فوجد كل شيء هادئًا.. ورأى في الظلام أشـياءاً غير واضـحة.. فتقدم بهدوء وحذر.. حتى لا يصـطدم بالأثاث.. وسمع أنفاس الأسقف النائم وهي تتردد في هدوء وانتظام..

ثم وقف فجأة.. فقد وجد نفسه بجوار الفراش.. كان قد وصل إليه بأسرع مما توقع..

كانت السـحب الكثيفة تحجب ضـوء السـماء.. ولكن ما كاد يقترب من فراش الأسـقف.. حتى تبددت السُـحب تماماً.. وأرسل القمر من خلال النافذة شعاعًا أضاء نوم الأسقف الهادئ.. كان الرجل نائمًا نوم الأبرار.. ورأسه مسندةٌ إلى الوســادة في هدوء وطمأنينة.. ويده اليمنى مدلاة من جانب الفراش.. ووجهه النبيل يشــعُ بنور الأمل والثقة والإيمان..

ووقف في الظلام.. والقضــيب الحديدي في يده وأذهله هذا الوجه الهادئ المضيــء.. لم ير في حياته وجهًا كهذا الوجه.. ولا ثقة وطمأنينة كثقة هذا الشيخ وطمأنينته.. فراعه ما رأى.. وأكبر الظن أن أحدًا لم يشهد منظرًا أروع من هذا.. منظر ضمير مقبل على جريمة.. يطل على ضمير هادئ طاهر مطمئن..

وظل الأسقف في نومه الهادئ رغم النظرة المخيفة التي حدجه بها «جان فالجان»..

و سقطت أ شعة القمر على تمثال المسيح المصلوب.. فبدا با سطاً ذراعيه كأنما يبارك أحد الرجلين ويصفح عن الآخر.. وفجأة.. تحرك «جان فالجان» ومر بالفراش بسرــعة دون أن ينظر إلى وجه الأســقف.. اقترب من الخزانة.. رفع القضــيب الحديدي في يده.. استعدادًا لخلع بابها.. ولكنه وجده مفتوحًا.. فاختطف سـلة الأطباق الفضـية.. وهرول إلى غرفته.. وأفرغ محتويات السلة في حقيبته.. وألقى بالسلة من النافذة ثم حمل الحقيبة.. ووثب إلى الحديقة ولاذ بالفرار..

لما أشرقت شمس الصباح.. كان الأسقف يسير في حديقته.. حين أقبلت عليه مدام «ماجلوار» وهي تلهث.. وعلى وجهها علامات الفزع..

صاحت: أتعرف أين سلة الأطباق الفضية يا سيدي ؟

فأجاب الأسقف: نعم..

-حمدًا لله .. فإنني لم أعلم ما حدث لها..

وكان الأسقف قد وجد السلة بين الأزهار فقدمها إلى مدام «ماجلوار» وهو يقول:

- ها هي السلة ؟ إنها فارغة .. فأين الأطباق ؟

فهتف الأسقف: آه ! أنت منزعجة من أجل الأطباق ؟ إنني أعرف مكانها..

- يا إلهي ! إذًا فقد سُرقت.. وسارقها هو الرجل الذي زارنا أمس..

وهرولت إلى الغرفة التي قضى فيها «جان فالجان» ليلته ثم عادت مسرعة..

وكان الأسقف يعالج عودًا من الزهر حطمته السلة.. فصاحت مدام «ماجلوار»:

- سيدي.. لقد ذهب الرجل واختفت الأطباق !

ووقع بصرها على الأزهار والأعشاب التي حطمتها أقدام الرجل وهو يهرب واستطردت:

- لقد فر من هنا بعد أن سرق الصحاف..

فصمت الأسقف لحظة.. ثم قال بلطف:

- بهذه المناسبة.. هل كانت الأطباق ملكنا ؟

فصمتت مدام «ماجلوار».. واستطرد الأسقف بعد سكون قصير:

- مدام «ماجلوار».. إنني كنت مخطئًا حين احتفظت بهذه الأطباق التي هي ملك للفقراء.. ومن كان الرجل الذي قضى الليلة في ضيافتنا؟ إنه من الفقراء بغير شك..

فهتفت مدام «ماجلوار»:

- يا إلهي ! إن ضياع الأطباق لا يهمني وكذلك لا يهم الآنسة «باتستين».. ولكننا نشعر بالأسف لك يا سيدي.. كيف ستتناول طعامك بعد أن سُرقت الملاعق الفضية..

فنظر إليها الأسقف في دهشة وسأل مستنكراً: كيف ؟ ألا توجد ملاعق من طين ؟

فقلبت مدام «ماجلوار» شفتيها بازدراء.. وقالت: إن للطين رائحة كريهة..

- ألا توجد ملاعق من حديد؟

- إن للحديد طعمًا غير مقبول.

- إذًا لتكن ملاعق من خشب..

وبعد بضع دقائق كان الأسقف يتناول طعام إفطاره.. فقال مداعبًا مدام «ماجلوار»: أرى أن الإنسان ليس بحاجة حتى إلى ملعقة من خشب حتى يغمس قطعة الخبز في قدح اللبن..

فهتفت مدام «ماجلوار»: يا إلهي !.. كيف ضايفت هذا الرجل يا سيدي.. وسمحت له أن ينام في تلك الغرفة القريبة منك ؟ إنني أحمد الله على أنه قنع بارتكاب جريمة السرقة..

وكان الأسقف يهم بالنهوض عن مائدة الطعام حين سمع طرقًا على الباب فقال في هدوء: ادخل!

وفُتِحَ الباب فرأى الأسقف منظرًا غريبًا صاخبًا.. كان هناك ثلاثةٌ من رجال الشرطة يدفعون أمامهم رجلاً يعرفه الأسقف.. إنه «جان فالجان».. وتقدم واحدٌ منهم وقال وهو يؤدي التحية للأسقف: طاب يومك يا سيدي الأسقف..

وهنا هتف «جان فالجان» في ذهول وتبلد: إذًا.. فهو أسقف حقًا ! وصاح به الشرطي: صه يا هذا !

وكان الأسقف قد نهض من مقعده.. واقترب منهم بالسرعة التي تسمع بها شيخوخته..

قال وهو ينظر إلى «جان فالجان»: أهذا أنت يا صديقي ؟ يسرني أن أراك.. لقد أعطيتك الشمعدانين وهما أيضًا من الفضة.. وثمنهما لا يقل عن مائتي فرنك.. فلماذا لم تأخذهما مع الصِحاف..

ففتح «جان فالجان» عينيه.. ورمق الأسقف بنظرة تقتصر لغة البشر عن التعبير عنها..

قال الشرطي: إذًا.. لقد قال هذا الرجل الصدق يا سيدي ؟ إننا قابلناه في الطريق.. وخُيل إلينا أنه يفر.. فشككنا في أمره.. وألقينا القبض عليه.. ووجدنا معه هذه الأطباق الفضية التي..

فقاطعه الأسقف وعلى شفتيه ابتسامة: وقال لكم إنه حصل على هذه الأطباق من قس عجوز استضافه في منزله البارحة.. فجئتم به إليّ.. أليس كذلك ؟ لقد أخطأتم..

قال الشرطي: وفي هذه الحالة.. هل يجب أن نطلق سراحه ؟

فأجاب الأسقف: طبعًا..

فترك الشرطة ساعدي «جان فالجان».. فترنح هذا في مكانه وتأمل.. وغمغم بلهجةٍ لا تكاد تُفهم.. وبصوت من يتكلم وهو نائم: أحقًا إنني حر ؟

فقال أحد رجال الشرطة: نعم.. ألا تفهم ؟

قال الأسقف: أيها الصديق.. يجب أن تأخذ الشمعدانيين قبل أن تذهب..

وجاء بالشمعدانيين وقدمهما إلى «جان فالجان»..

وشهدت المرأتان كل ذلك.. ولم تأت إحداهما بحركة أو تنطق بكلمة تزعج الأسقف..

وكان «جان فالجان» يرتجف من قمة رأسه إلى أخمص قدميه.. فتناول الشمعدانين بحركة آلية.. وفي عينيه نظرة شاردة..

قال الأسقف: والآن بسلام أيها الصديق.. وإذا عدت فلا ضرورة لأن تسلك طريق الحديقة.. إذ في استطاعتك أن تدخل من الباب الأمامي.. فهذا الباب مفتوح لك ليل نهار..

ثم تحول إلى الشرطة وقال: في استطاعتكم أن تنصرفوا أيها السادة !

فأطاعوا.. وبدا على «جان فالجان» كأنه يوشك أن ينهار ويفقد الرشد..

فاقترب منه الأسقف وقال له بصوت خافت:

ــ ولا تنس أبدا يا صديقي أنك وعدتني بأن تجعل من هذا المال سبيلك إلى الأمانة والشرف..

فلزم «جان فالجان» الصمت.. فهو لا يذكر أنه وعد الأسقف بشيء من هذا.

واستطرد الأسقف وهو يتمهّل عند كل كلمة كأنما ليؤكدها:

ـ «جان فالجان».. يا أخي.. إنك لن تكون بعد الآن من أهل الشرّ.. إنني الآن أشترى روحك.. وأُنقِذها من الضّياع.. وأردها إلى الله خالقها..

كان «جان فالجان» ذاهلاً متبلدًا.. فانصرف دون أن ينطق بكلمة ومشى بين الحقول مسرعًا على غير هدى.. وقضى النهار شاردًا متجولاً.. ولم يتناول شيئا من الطعام.. ولكنه لم يشعر بالجوع.. فقد كان رأسه ميدانًا لحربٍ ضروس.. وأحسَّ بنوع من الغضب ولكنه لم يدر على أي إنسان يصبّ جام غضبه..

وقضى النهار كله تتنازعه مشاعر وأحاسيس لا تُوصف.. وأقبل الليل.. فتهالك على الأرض وسط دّغْلٍ خارج المدينة.. واستمر يفكر ويتأمل.. حتى أزعج تأملاته صوتٌ مَرْحٌ أخذ يشدو بين الأشجار.. فحوّل رأسه.. ورأى غلامًا في نحو العاشرة يحمل بشارة ويغني بصوت جميل.. كان من أولئك الغلمان الذين يطوفون بالقرى.. ويملأون الآذان بغنائهم وموسيقاهم.. ويعيشون بما يجمعونه من أيادى الناس.. وكان الغلام يكف عن الغناء بين الحين والحين ليعبث بقطعة من النقود الفضية لعلها كانت كل ثروته.. فيقذف بها في الفضاء.. ثم يتلقفها على ظاهر يده..

وقذف الغلام بقطعة النقود الفضية.. وأراد أن يتلقفها.. ولكنها انزلقت من يده.. وتدحرجت نحو «جان فالجان» فوضع هذا قدمه فوقها..

ولكن الغلام أبصره.. ولم يندهش وقصد تواً إلى «جان فالجان»..

كان المكان مهجورًا.. لا ترى فيه العينُ غيرَ الأشجار والأعشاب العالقة والطريق الضيق المؤدي إلى القرية.. وليس من صوت فريد غير أسراب الطير على أفنان الشجر..

قال الغلام ببساطة الأطفال: أعطني نقودي يا سيدي..

فسأله «جان فالجان»: ما اسمك ؟

ـ اسمي «جرفيه».. يا سيدي..

ـ إذن عليك أن تذهب في سبيلك..

ـ أرجو أن تعطيني نقودي يا سيدي..

فأطرق «جان فالجان» برأسه ولم ينطق بكلمة..

صاح الغلام: أعطني نقودي يا سيدي.. أعطني قطعتي الفضية..

وبدا على «جان فالجان» أنه لم يسمعه.. لأن الغلام ما لبث أمسك بكتفه.. وراح يهزه بشدة.. ويحاول في الوقت نفسه أن يزيح القدم الثقيلة التي استقرت فوق قطعة النقود..

صاح الغلام بصوت يرتجف: أريد نقودي ! أريد قطعتي الفضية !

وبدأ يبكي.. فرفع «جان فالجان» رأسه.. وكان لا يزال جالسًا على الأرض.. فنظر إلى الغلام بعينين شاردتين.. وارتسم على وجهه شيء من الدهشة.. ثم مد يده نحو عصا وصاح بصوت مخيف: من هذا !؟

فأجاب الغلام: أنا جرفيه يا سيدي.. أرجوك أن ترد إليَّ نقودي.. أتوسل إليك أن ترفع قدمك..

وبقى «جان فالجان» جامدًا في مكانه كالصنم.. وصرخ الغلام غاضبًا:

- ألا ترفع قدمك ؟!

فصاح «جان فالجان»: أما زلت هنا ؟!

ووثب واقفًا.. وأردف وقدمه ما تزال على قطعة النقود:

ـ ألا تريد أن تنصرف ؟!

فذعر الغلام وبدأ يرتجف من قمة رأســـه إلى أخمص قدميه.. وبقى في ذهوله وذُعره لحظة.. ثم أطلق ســـاقيه للريح دون أن يقدر على الصياح أو التحوّل إلى الوراء.. وما لبث أن توارى بين الأشجار..

وانحدرت الشمس نحو الأفق.. وبدأ الظلام يخيّم حول «جان فالجان»..

لم يكن قد تناول شيئًا من الطعام طوال ذلك اليوم ولعله كان محمومًا..

وأخيراً أحس ببرودة الليل.. فخرج من جموده فجأة.. وأرخى قبعته على رأسه وتناول عصاه.. وهم بالسير.. وعندئذ وقع بصره على قطعة النقود الفضية.. وكانت تلمع بين العشب فمرت في جسده رعدة قوية.. ارتد إلى الوراء خطوة دون أن يحوّل بصره عن قطعة النقود ثم انحنى والتقطها.. وراح ينظر حوله بين الأشجار.. ويرتجف كوحش

شارد يبحث عن مأوى.. ولكنه لم يرَ شيئًا.. فقد هبط الظلام وحجب المرئيات عن ناظريه..

ثم تحرك من مكانه وشرع يسير في ناحية من المؤكد أنها الناحية التي توارى فيها الغلام.. واجتاز مسافةً قصيرة ثم وقف.. ونظر حوله.. وصاح بكل قوته منادياً على الغلام:جرفيه.. جرفيه ..

وصمت.. وانتظر .. وأرهف أذنيه.. ولكنه لم يسمع جوابًا.. فاستأنف السير.. ثم شرع يعدو ويقف بين الحين والحين.. ويصيح بصوت خافت: جرفيه.. جرفيه..

ولو سمع الغلام صوته لاستولى عليه الذعر.. ومنعه الخوف من تلبية ندائه..

عندما انصرف «جان فالجان» من بيت الأسقف.. كان لا يستطيع تفسير ما يشعر به من تباين في عواطفه تعصف بأعماقه.. وقد حاول المرة بعد الأخرى أن يصم أذنيه عن الكلمات الكريمة التي صبّها الأسقفُ في مسامعه حين قال:

«ولا تنس أبدًا يا صديقي أنك وعدتني بأن تجعل من هذا المال سبيلك إلى الأمانة والشرف.. إنك لن تكون بعد الآن من أهل الشر.. إنني الآن أشترى روحك وأُنقذها من الضياع.. وأردّها إلى الله»..

وظلت هذه الكلمات تدوي في أذنيه دوياً.. وظل نورها يشق ظلمات نفسه كوميض البرق في الليل الحالك..

أحس بالفطرة أن عفو الأسقف كان عاصفةً هزّت كيانه هزاً.. وأن صلابته أمام هذا العفو هي سبيله الأوحد للاحتفاظ بكراهيته للمجتمع.. تلك الكراهية التي تملأ نفسه ارتياحًا وشماتة.. وأن المعركة التي بدأت تنشب بين خبثه وطيبة الأسقف هي المعركة الفاصلة في تقرير مصيره.. فإما النصر وإما الهزيمة إما طريق الشر.. وإما طريق الخير..

وهكذا قضى النهار وهو يمشي بلا هدف.. ولا يعلم غير الله ما كان يدور في قرارة نفسه.. ولعله كان يصغى إلى ذلك الهاتف الخفي الذي يحرك ضمير الإنسان.. وأدرك أنه يسير في مفترق طرق بي طريقين لا ثالث لهما: إما أن يصبح شريرًا وينحط لمرتبة دون مرتبة السجن الخارج منه لتوه.. وإما أن يسمو فوق كل شيءٍ حتى هذا الأسقف نفسه..

وو سط كل هذا كان المؤكد بالنسبة إليه هو شيء واحد.. وهو أنه صار رجلاً غير الذى يعرفه بعد أن تحدث إليه ذاك الأسقف.. وشد على يده..

ثم.. وبينما كانت تلك المعركة النفسية تدور بكل عنفوانها داخله.. تذكر الفتى الصغير «جرفيه» الذى اغتصب منه منذ قليل قطعته الفضية فلماذا فعل ذلك ؟!

لم يكن في استطاعته أن يقر هذه الجريمة ولعله ارتكبها بالفطرة.. أو لعله لم يرتكبها على الإطلاق وإنما ارتكبها الشيطان الخبيث القابع في أركان نفسه المُظلمة.. فما أن استيقظ ضميره حتى هانته هذه الفعلة الوحشية الأثيمة فصرخ في أعماقه إثمًا وفزعًا..

بكى «جان فالجان» طويلاً.. كما تبكي المرأة الضعيفة.. وكما يبكي الطفل المذعور.. وأزال البكاء عن صدره عبئاً ثقيلاً.. وطهر ذهنه من السُحب المظلمة التي تخيم عليه.. فبدأ يفكر في جو من الهدوء واستعرض حياته الماضية وغلطته الأولى وتفكيره الطويل.. وإطلاق سراحه.. وما اقترن به ذلك كله من نقمة وموجدة ورغبة في الانتقام..

وفكر في ما حدث في بيت الأسقف.. ثم في عداوته وسرقته بالغصب لنقود الغلام.. وبدت هذه الجريمة الأخيرة في نظره أدل على الوحشية والنذالة من كل جرائمه التى ارتكبها من قبل.. لأنه أقدم عليها بعد عفو الأسقف..

استعرض كل ذلك في ضوء جديد لم يره قبل ذلك..

ونظر إلى حياته في هذا الضوء الجديد.. فبدت له هائلة مزعجة.. وتغلغل في أعماق نفسه فرآها مظلمةً مخيفة.. كان كمن يرى الشيطان على ضوء الجنة..

ولا أحد يعلم كم بقى «جان فالجان» هكذا ولا أحد يعلم ماذا فعل وإلى أين ذهب بعد ذلك.. ولكن قيل في العام التالي إن إحدى مركبات البريد وصلت إلى « «برينول» » في الساعة الثالثة من صباح اليوم التالي.. وأن هذه المركبات مرت أمام الكنيسة فرأى سائقها رجلاً راكعًا على الأرض أمام باب الأسقف.. وقد هبط رأسه فوق صدره كمن يصلي ويبتهل.



حكاية أربع فتيات .. وأربع شبان

«فافوريت» وداليا وجوزفين و«فانتين» هن أربع فتيات حِسان تعلو وجوههن مسحةٌ من الكد والعناء..

وكانت بينهن واحدة تلقّب بالصغيرة لأنها أصغر رفيقاتها سنًا.. وأخرى تلقب بالعجوز لأنها أكبرهن سنًا.. وإن لم تتجاوز الثالثة والعشرين..

فأما الكبيرات فكنّ أعلم بشؤون الحياة من الصغيرة «فانتين» وأكثر منها تجارب.. وأدرى بطبائع الخلق.. وأما «فانتين» فإن مغامراتها مع «تولوميس» كانت بالنسبة إليها هي سقطتها الأولى..

تلطخت «فانتين» بأوحال الحياة.. وخرجت للمجتمع بوجهٍ يعلوه طابع الماضي التعس.. والمستقبل المجهول.. لكنها قبل كل هذا كانت قد وُلدت في قرية «مولفورميل» ولكن من أي أبوين ؟ لا أحد يعلم.. ولا حتى هي تعلم..

وعُرفت باسم «فانتين» لأنه الاسم الذي أطلقه عليها «عابر سبيل» رآها تعدو في الشارع عارية القدمين.. واشتغلت «فانتين» بالخدمة في المنازل.. والفِلاحة في الحقول.. وبلغت الخامسة عشرة من عمرها.. فرحلت إلى باريس لتجرب حظها.. وكانت على جانب من الرشاقة والجمال.. ولها ثروة عظيمة من ذهب شعرها ولآلئ أسنانها..

وهناك في البداية احتفظت بجمالها وطهارتها ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً.. فعمِلت بشرفها لتأكل وتسد جوعها.. ثم أحبت لتُشبِعَ قلبها.. وكانت مغامرتها مع «تولميس» تسليةً بالنسبة إليه.. وجنونًا بالنسبة إليها..

وتكونت من شبان أربعة يُدعون «بلا شقيل» و«فاميل» و«لستوليه» و«تولميس» مجموعة تزعمها الأخير.. وكانوا لا يختلفون عن أمثالهم من طلاب العلم في باريس.. فهم نماذج عادية من الشبان الذين لا قيمة لهم.. وكان أولئك الشبان الأربع مرتبطين عاطفياً بالفتيات الأربع.. وكان «تولميس» أوسع الجميع حيلة.. وأقدمهم في طلب العلم وقد تجعد وجهه وفقد أسنانه وسقط شعر رأسه وهو ما يزال يطلب العلم..

قال «تولميس» لرفقائه ذات يوم: لقد مضى عام منذ وعدنا الفتيات بمفاجأة طريفة.. وهُنَّ يتحدثن دائمًا عن هذه المفاجأة ويطالبننا بالوفاء بوعدنا.. ثم إن آباءنا يكتبون إلينا على الدوام.. ويحثوننا على العودة إلى أحضانهم.. وأعتقد أن الوقت قد حان لكي نقوم بدور الأبناء فما قولكم في اقتراح يتيح لكلٍ منا أن يضرب عصفورين بحجر واحد؟

وتلاقت رؤوس الفتيان الأربعة.. وراح «تولوميس» يدلي باقتراحه العظيم..

وفي يوم الأحد التالي خرج الفتيان الأربعة وعشيقاتهم للنزهة في «نيوتي».. كانت تبدو عليهم جميعًا مظاهر الغِبطة والسعادة.. وكانت «فانتين» بصفةٍ خاصة أسعد الجميع وأشدهم فرحًا فهى تتأبط ساعد «تولوميس» وتبتسم في وجه النسيم الذي يداعب شعرها الثمين.. وتجيب عن دعابات صاحبها بضحكات رنانة منبعثة من نفس طَلَقَتْ هموم الحياة ومتاعبها.. كانت بمرحها وسذاجتها أشبه بالطهارة تطفو مجسدةً على سطح الخطيئة..

نعم العشاق بالشمس والنسيم والحقول والأزهار والأشجار ورقص الفتيان وغنت الفتيات وراحت «فافرويت» تسأل بين الحين والحين: ولكن أين المفاجأة ؟!

فأجابها «تولوميس»: صبراً فسوف تكون مفاجأة عجيبة..

ثم تناولوا طعام الغداء في حانة «دومباردا» ومالت «فافرويت» نحو صاحبها «بلاشقيل» وقد ملت بنشوة الخمر وغمغمت: كم أحبك يا «بلاشقيل»..

فسألها: وماذا تفعلين إذا هجرتك يا «فافوريت» ؟

فهتفت: إذا هجرتني..!!.. يا إلهي.. لا.. لا تقل ذلك حتى على سبيل الدعابة.. إذا هجرتني فإنني أطاردك وأعدو في أثرك وأصب الماء على رأسك وأسوقك إلى السجن..

فابتسم «بلاشقيل» ابتسامة الرجل الذي يعرف قدر نفسه وهمست داليا في أذن «فافرويت»: يخيل إلى أنك تحبينه بجنون..

فأجابت «فافرويت» في همس كذلك: إنني أمقته فهو شديد البخل.. وإني أؤثر عليه الشاب الذي يقطن في المنزل المقابل لمنزلي فهل تعرفينه ؟ إنه شاب ظريف وقد بدأت أحبه.. ولكن ذلك لا يمنعني من أن أقول لـ«بلاشقيل» إنني أعبده..

ثم تحولت إلى «تولوميس» وسألت بصوت مرتفع ولكن أين المفاجأة ؟ وكانوا قد فرغوا من الطعام فأجاب «تولوميس» هذا صحيح لقد حان الوقت أيها السادة لتقديم المفاجأة التي وعدنا بها السيدات فهلموا بنا..

قال «بلاشقيل»: إنها مفاجأة تبدأ بقبلة..

فأردف «تولوميس»: على الجبين..

وطبع كل منهم قبلته على جبين صاحبته.. وانصرفوا الواحد في إثر الآخر..

صفقت «فافوريت» بيديها و صاحت: ستكون مفاجأة طريفة حقاً كل الدلائل تشير إلى ذلك.. و شيعت «فانتين» الفتيان الأربعة بقولها: ولكن لا تبطئوا فإننا في انتظاركم..

قالت جوزفين: لا شك أنهم سيفاجئوننا بهدايا ثمينة..

فأجابت داليا: كل رجائي أن تكون هدايا من ذهب..

وراحت الفتيات يتحدثن ويضحكن حتى انقضت ساعة أو بعض ساعة.. وطال بهن الانتظار واستولى عليهن السأم فقالت «فافوريت» بلهجة من يستيقظ من نوم عميق: ولكن أين المفاجأة ؟

فهتفت داليا: نعم أين المفاجأة ؟

وقالت «فانتين»: لقد طالت غيبتهم.. وتنهدت.. ..

وفي تلك اللحظة أقبل عليهم أحد الخدم وبيده رسالة: فصاحت «فافوريت»: ما هذا ؟

فأجاب الخادم: هذه رسالة تركها أصحابكن..

- ولماذا لم تجيء بها في الحال ؟

- لأنهم أوصوني بأن أقدمها إليكن بعد انقضاء ساعة..

واختطفت «فافوريت» الرسالة وفحصتها.. وقرأت على غلافها.. « هذه هي المفاجأة الموعودة » .

وفضت الرسالة بسرعة وقرأت فيها ما يلي:

«أيتها الحبيبات.. يجب أن تعلمن أن لنا آباء وأمهات.. وأن هؤلاء الآباء يزعمون أنهم أحق بنا من سواهم.. ويصفوننا بالعقوق.. ويطالبوننا بالعودة إلى أحضانهم.. ولما كنا من أبر الأبناء بآبائهم.. فإننا سنسارع إلى تلبية ندائهم.. وستصلكن هذه الرسالة ونحن في طريقنا إلى بيوتنا.. والمركبة تنهب بنا الأرض نهبًا مبتعدة عن الهاوية.. والهاوية هي أنتن أيتها الصغيرات العزيزات.. نعم إننا نعود الآن إلى المجتمع وإلى الواجب والنظام بسرعة تسعة أميال في الساعة.. إذ من الضروري لوطننا العزيز أن نصبح كغيرنا ـــ آباءً وجنودًا وموظفين.. فالتضحية من جانبنا جسيمة وجديرة بإعجابكن وإكباركن.. ومن الخير لكُنَّ أن تجففن دموعكن.. وأن تستعضن عنا بسوانا بأسرع ما تستطعن.. وداعًا »..

الإمضاء

«بلاشقيل».. «فلاميل».. «لستوليه».. «تولوميس»

« ملحوظة: لقد دفعنا ثمن الطعام »..

حملقت كل فتاة في وجه الأخرى.. ثم تكلمت «فافوريت» أخيراً فقالت:

- إنها في الحق دعابة بارعة وأكبر ظني أنها من ابتكار «بلاشقيل».. وأظنني قد بدأت أحبه..

فقالت داليا: كلا.. كلا إنها دعابة «تولوميس» ذلك واضـح جليّ.. فأجابت «فافرويت» إذًا ليسـقط «بلاشـقيل» وليحي «تولوميس».. وانفجرن ضاحكات فضحكت «فانتين» كذلك.. ولكن لم تمض ساعة على عودتها إلى غرفتها حتى انفجرت باكية.. فقد كانت تلك المغامرة ـ كما قلنا ـ هي مغامرتها الأولى.. وقد أسلمت المسكينة نفسها لـ«تولوميس» كما لو كان زوجها وشعرت بثمرة الخطيئة تتحرك في أحشائها..

وجدت «فانتين» نفسها وحيدة بعد قرار «تولوميس».. وكانت حياة العبث التي ألفتها في معاشرة «تولوميس».. قد نفرتها من حياة الكد والعمل.. وحقَّرَت في نظرها مهنة الخياطة والتطريز التي تعمل بها.. فألقت خياطتها وانقطعت الصـلة بينها وبين مواطن العمل.. ولأنها كانت تقرأ بصعوبة ولا تكتب غير ا سمها فقد لجأت إلى أحد الكتبة العموميين وا ستكتبته ر سالة إلى «تولوميس».. ثم أتبعتها بر سالة ثانية.. فثالثة.. ولكنها لم تتلق ردًا.. وحارت المسكينة في أمرها ماذا تفعل ؟ وإلى أين تولى وجهها ؟

لم تكن تعرف أحدًا تلجأ إليه.. وأحست كأنها على شفا هوة توشك أن تبتلعها.. لكنها لم تفقد شجاعتها..

خطر لها أن تعود إلى «موتفورميل» مسـقط رأسـها.. فهناك قد يعرفها بعض الناس.. فيجدون لها عملاً.. لكن من الضروري قبل كل شيء أن تخفي زلتها.. وفكرت في ضرورة الافتراق عن طفلتها فشـعرت بقلبها يتمزق.. على أن ذلك لم يُضـعف من عزيمتها ولم يهدم شـجاعتها.. فصـنعت من فسـاتينها الحريرية الجميلة ثوبًا لابنتها.. وباعت أمتعتها القليلة.. وقامت بسـداد ديونها الصـغيرة.. وبقي لها ثمانون فرنكًا.. وفي صـباح يوم من أيام الربيع.. خرجت «فانتين» من باريس حاملة ابنتها وحقيبتها.. كان منظرها مثيراً للرحمة والشـفقة.. فالأم لا تملك من الحياة غير طفلتها.. وليس للطفلة في الحياة غير أمها..

وشـعرت «فانتين» بالتعب.. فقطعت بعض رحلتها في إحدى المركبات.. ثم عادت تواصـل السـعي على قدميها.. فوصلت حوالي الظهر إلى حانة وجدت أمامها طفلتين تعبثان بسلسلة حديدية.. وتتأرجحان عليها..

وطاب لها أن ترى الطفلتين في عبثهما.. كانت كل الدلائل تشـير إلى أنهما سـعيدتان موفورتا الحاجة والصـحة.. وراحت الطفلتان تلهوان بالسلسلة الحديدة الضخمة التي تسد جانبًا من الطريق المؤدي للحانة.. كانتا سعيدتان يُرى على وجهيهما نضرـة الصـحة.. ويتألق في عيونهما بريق السرـور والمرح.. وقد جلسـت أمهما بباب الحانة.. وأخذت تنظف بعض الخضـار.. وترمق طفلتيها من وقتٍ لآخر بعينين تسـيل نظراتهما عطفًا وحنانًا.. وكانت الأم ما تزال منشغلة في عملها حين سمعت فجأة صوتًا يقول:

- ما أجمل طفلتيك يا سيدتي !

فرفعت الأم عينيها ورأت بالقرب منها فتاة شابة تحمل بيديها طفلة صغيرة وبالأخرى حقيبة ثقيلة.. كانت الفتاة في مقتبل العمر ترتدي ثوبًا خشنًا كثياب العاملات.. وتضع على رأسها غطاءاً يحجب شعرها ويُبرز تقاطيع وجهها الحزين والجميل.. ولكن خشونة ثوبها.. والغطاء الأسود الذي يحجب رأسها وشعرها جعلا من المتعذر إبراز جمالها.. أما عيناها فكانتا واسعتين عميقتين.. يخيل للناظر إليهما أن دموعها لم تجف منذ وقت طويل.. هذه المخلوقة المتقعة المتهدمة الحزينة التي تسعل من وقت لآخر من تأثير الضعف وسوء التغذية هي «فانتين» التي عرفناها جميلة سعيدة.. منطلقة.. باسمة باستمرار..

وهمست ثانيةً تحدث أم الطفلتين: ما أجمل طفلتيك يا سيدتي !

وليس ما يرضي الأم مثل أن تسمع ثناء على طفلها.. فرفعت الأم رأسها.. و شكرت الفتاة.. ودعتها إلى الجلوس فجلست.. وراحت المرأتان تتجاذبان أطراف الحديث..

قالت المرأة: إنني أدعى مدام «تيناردييه».. ونحن نملك هذه الحانة..

كانت مدام «تيناردييه» في نحو الثلاثين من عمرها.. ولكنها تفتقر إلى كل ملامح الجمال الذي يميز المرأة عن الرجل.. كانت وقتئذ جالسة.. فلم تر «فانتين» قامتها الهائلة وتكوينها الذي يضعها في صفوف العمالقة..

قصت عليها «فانتين» قصتها بشيء من التحوير.. فزعمت أنها من العاملات وأن زوجها توفي بعد أن أولدها هذه الطفلة.. وأنها الآن في سبيلها إلى مسقط رأسها لتبحث هناك عن عمل بعد أن سُدت في وجهها كل أبواب العمل في باريس.. وقالت إنها تقصد إلى «مونفورميل».. وأنها قطعت بعض المسافة سيراً على الأقدام.. وكانت الطفلة تسير معها في بعض الأحيان.. ولكن لمسافات قصيرة.. لأنها ما تزال صغيرة.. وفيما عدا ذلك فإنها كانت تحمل الطفلة طول الوقت.. قالت ذلك ونظرت إلى ابنتها بشغف.. وطبعت على شفتيها قبلة أيقظتها.. وفتحت الطفلة عينيها الواسعتين الزرقاوين ونظرت حولها.. ثم انزلقت من بين ذراعي أمها بنشاط الطفل الذي يريد أن يلعب ويلهو.. وما كادت قدماها الصغيرتان تستقران على الأرض.. حتى وقع بصرها على الطفلتين وهما تتأرجحان فوق السلسلة الحديدية.. ففتحت عينيها وفمها في دهشة..

قالت مدام تيناردييه تحدثها: إلعبي معهما يا بُنية..

وما أسرع تآلف الأطفال في مثل هذه السن.. فقد رحبت الطفلتان بزميلتهما.. وما هي إلا لحظة حتى كانت الطفلات الثلاث يملأن المكان صخبًا وصياحًا..

واستأنفت المرأتان الحديث فسألت مدام «تيناردييه»: ما اسم ابنتك ؟

- اسمها: «كوزيت»..

- كم عمرها ؟

- إنها في الثالثة..

- تماماً كابنتي الكبرى..

ونظرت إلى الأطفال واستطردت: حقًا إنه يُخيل للناظر ثلاث شقيقات..

وكأنما كانت هذه العبارة هي الشرارة التي تنتظرها «فانتين».. لأنها أمسكت يد محدثتها في الحال.. وقالت وهي تنظر في وجهها بإمعان: هل تستطيعين العناية بابنتي ؟ فبدرت من المرأة حركة عنيفة تدل على الدهشة.. ولكنها لا تفيد الرفض.. ولا تفيد القبول..

واستطردت «فانتين»: أصغي إليّ .. إنني لا أستطيع الذهاب بابنتي تلك إلى مسقط رأسي.. فإنه يتعذر على المرأة مع وجود طفلها أن تحصل على عمل.. ولا شك.. أن العناية الإلهية قد ساقتني إلى هذه الحانة.. لقد قلت لنفسي حين رأيت طفلتيك نظيفتين سعيدتين: «هذه أم رؤوم» وقد صدق ظني.. فهل لك في أن تجعلي من ابنتي شقيقةً لابنتك حتى أعود فأستردها ؟

فأجابت مدام «تيناردييه»: هذه مسألة تحتاج إلى تفكير..

- إنني على استعداد لأن أدفع ستة فرنكات شهريًا..

وهنا صاح رجل في داخل الحانة: بل يجب أن تدفعي سبعة فرنكات على الأقل.. وأجرة ستة أشهر سلفًا .

- فقالت مدام «تيناردييه»: أي ٤٢ فرنكًا..

- فأجابت «فانتين»: سأدفع هذا المبلغ..

قال الرجل: كذلك يجب أن تدفعي خمسة عشر فرنكًا للنفقات الإضافية والطوارئ.. فقالت مدام «تيناردييه»: فيكون المجموع سبعة وخمسين فرنكًا..

قالت «فانتين»: سأدفع هذا المبلغ إن معي ثمانين فرنكًا.. وفي استطاعتي الوصول إلى «مونفورميل» سيراً على الأقدام.. وسوف أجهد نفسي في العمل.. وعندما أجمع المال سأعود لاسترداد عزيزتي الصغيرة..

فسأل الرجل بصوت خشن: هل للصغيرة ثياب ؟

وقالت مدام «تيناردييه»: إن المتكلم هو زوجي !

فأجابت «فانتين»: لقد أدركت ذلك..

ثم أجابت الرجل بقولها:

- نعم.. إن لعزيزتي الصغيرة كثيراً من الثياب.. ولها اثنتا عشرة قطعة من كل نوع.. ولديها عدد كبير من الفساتين الحريرية كأي سيدة جميلة مثلها.. وهذه الثياب في حقيبتي..

قال الرجل: يجب أن تتركي هذه الثياب..

فأجابت الأم: سأتركها طبعًا.. من المضحك أن تظن أنني أدع ابنتي عارية..

وعندئذ خرج الرجل من الحانة وهو يقول: هذا حسن.. لقد اتفقنا إذًا..

وتمت الصفقة.. ودفعت «فانتين» المبلغ المطلوب.. وقضت ليلتها في الحانة.. وانصرفت في الصباح الباكر تاركةً ابنتها.. وفي نيتها أن تعود إليها في أقرب فرصة..

جرت العادة أن يتم مثل هذا الفراق في هدوء و سكينة.. وأن يجر وراءه ذيول الحزن واليأس.. وقد تحدثت امرأة تقيم بالقرب من الحانة إلى جارة لها فقالت:

- إنني رأيت اليوم صبية تسير في الشارع وتبكي كما لو كان قلبها يتفلت منها..

وما إن رحلت «فانتين» حتى قال «تيناردييه» لزوجته..

لقد حسبت المسكينة أن العناية الإلهية ساقتها إلى هنا لكي نعني بابنتها.. ولكني اعتقد أن العناية الإلهية إنما قلادتها إلى هنا لكي تعطينا مبلغًا من المال نحن في أشد الحاجة إليه لسداد ديوننا.. ولولا ذلك لبيعت الحانة غدًا..

***

وهكذا استطاع «تيناردييه» أن يتجنب بيع حانته.. ولكنه احتاج إلى مبلغ من المال في الشهر التالي.. فبعث بامرأته إلى باريس حيث باعت ثياب «كوزيت».. وقبضت ثمنها ستين فرنكًا..

وما كاد الرجل وامرأته ينفقان هذا المبلغ.. حتى بدأ يشعران بأن الطفلة عالة عليهما.. وبأنهما يطعمانها لوجه الله.. وعلى هذا الرأي تطورت معاملتهما.. فصارت ترتدي من الثياب الخِرق البالية التي تتخلف من الطفلتين.. وتأكل من الطعام ما يتبقى عن الجميع.. وتحيا حياة أسوأ من حياة القطط والكلاب..

وفي كل شهر.. كان «تيناردييه» يتسلم رسالة من «فانتين» تستفسر فيها عن ابنتها.. فيجيبها على الفور بأن الطفلة على أتم ما يرام..

وانقضت الأشهر الستة الأولى.. وبدأت الأم ترسل سبعة فرنكات شهريًا بانتظام.. وفي نهاية العام الأول.. ضرب «تيناردييه» المائدة بقبضة يده وصاح:ماذا تريدنا هذه المرأة أن نصنع بسبعة فرنكات ؟

وكتب إلى «فانتين» يطلب اثنى عشر فرنكًا شهريًا.. واطمأنت الأم إلى أن طفلتها سعيدة موفورة الصحة.. فرضخت.. وبعثت إلى «تيناردييه» بما طلب..

على أن شقاء «كوزيت» لم يقتصر على العري والجوع.. كانت مدام «تيناردييه» من أولئك الناس الذين يجمعون بين الحنان والقسوة.. ولا يستطيعون أن يحبوا من ناحية.. إلا بقدر ما يكرهون من ناحية أخرى.. وقد وقفت كل حبها على طفلتيها.. فكان طبيعيًا أن تصب كل كراهتها على الطفلة الغريبة.. ومما لا شك فيه أنه لولا وجود «كوزيت» لأصاب الطفلتين من قسوة أمهما مثلما يصيبهما من حنانها.. ولكن «كوزيت» وفرت عليهما هذه القسوة.. فاحتكرتها لنفسها.. واحتكرت الطفلتان الحنان..

كانت تضرب وتنتهر وتعاقب من دون سبب.. وترى في الوقت نفسه طفلتين مثلها تنعمان بالحياة هانئتين سعيدتين.. فلا تفهم المسكينة سببًا لشقائها.. وسعادة الآخرين..

وانقضى العام الأول .. وقال أهل قرية «بولانجيه» حيث تقع الحانة.. ما أكرم «تيناردييه» وزوجته! إنهما فقيران.. ولكنهما مع ذلك يعنيان بالطفلة المسكينة التي هجرتها أمها..

أما «تيناردييه» فإنه أدرك بذكائه أن الطفلة لابد أن تكون ثمرة خطيئة تورطت فيها الأم.. وأن الأم يهمها بطبيعة الحال أن تكتم خطيئتها.. فكتب إلى «فانتين» بطلب خمسة عشر فرنكًا شهريًا.. لأن الطفلة تنمو وتترعرع.. وتحتاج إلى المزيد من العناية والطعام.. وهدد بإرسالها إليها إذا لم تذعن.. فأذعنت الأم وزادت الأجر الشهري إلى ١٥ فرنكًا..

ومرت الأعوام .. وترعرعت «كوزيت».. وتضاعف شقاؤها.. وراحت مدام «تيناردييه» تعاملها كخادمة.. فهي التي تنظف الحانة وتكنس الشارع.. وهي التي تغسل الأطباق.. وتوقد النار في الغرف.. وهي التي تحتطب وتجمع العشب..

واشتد بطش القوم بها.. عندما بدأت «فانتين» تتخلف عن الدفع في الموعد المقرر..

ولو عادت الأم إلى الحانة في نهاية الأعوام الثلاثة الأولى لما عرفت ابنتها.. فقد استحالت «كوزيت» المسكينة إلى هيكل عظمي.. وأصبحت تمثالاً حيًا للبؤس والشقاء.. ولم يبق لها من جمال الطفولة غير عينين ساحرتين يؤلم الإنسان أن ينظر إليهما.. كانتا عينين واسعتين.. يطل منهما أكبرُ جانب من الحزن الذي يعصر حياة الابنة المسكينة.

بل كان مما يمزق قلب الإنسان.. أن يرى الطفلة التعسة.. أمام الحانة قبل بزوغ الشمس.. وهي ترتعد من شدة البرد.. والمكنسة في يدها.. والدموع تملأ عينيها الكبيرتين..

ولكن ماذا حدث للأم التي يعتقد أهل «بولانجيه» أنها هجرت ابنتها في حانة «تيناردييه» ؟

***

بعد أن غادرت «فانتين» الحانة.. واصلت السير على قدميها حتى بلغت إلى «مونفورميل».. مسقط رأسها.. ولم تكن قد زارت المدينة.. منذ غادرتها للمرة الأولى قبل عشرة أعوام..

وفي خلال هذه الأعوام العشرة.. وبينما أخذت «فانتين» في الانحدار من هوة إلى هوة.. كانت «مونفورميل» تنتعش وتزدهر تدريجيًا حتى بلغت غاية مجدها قبل عامين.. وذلك على أثر وثبة وضعتها بين أولى المدن الصناعية..

اشتهرت مدينة «مونفورميل» منذ زمن بعيد بصناعة الخرق الأسود والحلي الزجاجية.. ولكن إنتاجها كان محدودًا نظرًا لقلة المواد الأولية..

فلما عادت «فانتين» إلى مسقط رأسها أدهشها التطور العظيم الذي طرأ على هذه الصناعة والذي لم يقتصر على مضاعفة الإنتاج فحسب بل تعداه إلى الصناعة نفسها فقلبها من أساسها..

ويرجع الفضل في تطور هذه الصناعة وانتعاشها إلى رجل غريب وفد إلى المدينة منذ بضعة أعوام وخطر له أن يستعيض عن المواد الأولية النادرة بالصموغ والباغة..

وقد نتج عن هذا الابتكار أن قلت نفقات الإنتاج.. وأمكن زيادة أجور العمال.. وبيع الحُلي بثمن بخس يناسب المستهلك.. وفي نفس الوقت يعود بربح وافر..

ولم تنقض ثلاثة أعوام حتى أثرى صاحب الابتكار وانتعشت أسواق المدينة وشمل الرخاء جميع المتصلين بهذه الصناعة المبتكرة..

كان صاحب الابتكار أجنبيًا عن المدينة كما ذكرنا.. فلا أحد يعرف نشأته وماضيه وكل ما يعلمه الناس من أمره أنه عندما جاء إلى المدينة كان يتكلم بلهجة العمال.. وأنه بدأ مشروعه ببضع مئات فقط من الفرنكات..

والظاهر أنه في الليلة التي دخل فيها المدينة وحقيبته على ظهره وعصاه في يده شبت النار في دار البلدية واندلعت ألسنتها وهددت بتدمير المدينة كلها فجازف الرجل وألقى بنفسه وسط النيران وأنقذ غلامين ظهر فيما بعد أنهما ابنا رئيس الشرطة.. ثم ساهم في إخماد النار فلم يفكر أحد بعد ذلك في الاطلاع على أوراقه الشخصية.. وكل ما هنالك أنهم سألوه عن اسمه فقال إنه يدعى الأب «مادلين»..

وأدخل الأب «مادلين» على صناعة الخرز والحلي المقلّدة ذلك التجديد المبتكر الذي أقال هذه الصناعة القديمة من عثرتها.. وأصاب الرجل من ابتكاره ومن نشاطه وجده أموالاً كثيرة.. وبعد العام الأول استطاع إقامة مصنع جديد كبير.. وصار في استطاعة أي عاطل عن العمل أو جائع أن يقصد إلى هذا المصنع فيجد على الفور عملاً وطعامًا..

ولم يكن الأب «مادلين» يشترط في العامل غير الأمانة.. وفي العاملات غير الطهارة والفضيلة.. وقد شطر المصنع إلى شطرين: أحدهما للعمال.. والآخر للعاملات.. وذلك صونًا للفضيلة أن تُمتهن باختلاط الجنسين.

أما هو نفسه فلم تغيره الثروة.. ولا تتابع السنين شيئاً.. فمُنذُ اليوم الأول عُرِفَ الأب «مادلين» بالبساطة والتواضع.. فهو هو بعينه كما رآه الناس للمرة الأولى.. رجل قوي البنية.. ثاقب النظر.. أشيب الشعر.. نحاسي البشرة.. له وجه مفكر كوجوه الفلاسفة.. يرتدي ثوبًا أسود يحجب جسمه حتى العنق.. وقبعة سوداء عريضة تحجب جبهته.. وعينيه.. يحب العزلة.. وقراءة الكُتب.. ويقيم وحده في منزل عتيق الأثاث أثمن ما فيه شمعدانان قديمان صنعهما من الفضة..

وقيل أنه بعد مقدمه للمدينة بعامين قد ادخر ٣٠٠ ألف فرنك في بنك «لافيت»..

والواقع أنه ادخر هذا المبلغ ولكن بعد أن أنفق نيفًا ومليون فرنك في أعمال الخير.. وبعد أن أنشأ مستشفى جديدًا.. وشيد مدرستين.. وافتتح ملجئاً لعله كان الأول من نوعه في فرنسا..

في العام الثالث.. شاع أن الأب «مادلين» سيتم تعيينه كعُمدةٍ للبلدة اعترافًا بفضله على المدينة..

وما كاد النبأ يُعلن في الجريدة المحلية «مونتير» حتى اعتذر الأب «مادلين» عن المنصب.. ولم يقبله..

وفي ذلك العام أيضًا عرض ابتكار الأب «مادلين» في معرض الصناعات الوطنية بباريس.. وحاز الإعجاب.. ومُنِحَ المخترع وسام جوقة الشرف «اللجيون دوتور» .

ولكن الأب «مادلين» اعتذر أيضًا ولم يقبل هذا الشرف.. فقال الناس:

إنه رجل غامض..

وقال حاسدوه: ما هو إلا مغامر..

وفي العام الخامس كان من المستحيل على ذي عينين أن ينكر على الأب «مادلين» خدماته للمدينة ومرافقها وأهلها.. واتفق الرأي على أنه أحق الناس بمنصب العمدة.. فعُرِضَ عليه المنصب للمرة الثانية.. فاعتذر ولكن مدير البوليس لم يقبل اعتذاره.. ودار به الناس في الطريق.. وألحوا عليه بالقبول.. وأصرّ الأب «مادلين» من ناحيته على الرفض إلى أن سمع إحدى النساء تقول:

«إن من واجب الإنسان ألا يتراجع أمام عمل الخير طالما يستطيع الاضطلاع به.. وعندئذ فقط.. عدل الأب «مادلين» عن إصراره ورفضه»..

وفي أحد الأيام.. نقلت جريدة « مونتير » عن إحدى الصحف الإقليمية نبأ وفاة الأب فرنسوا «شارل «ميريل» أسقف «بريتول».. وذكرت أنه توفي في الثانية والثمانين من عمره بعد أن فقد حاسة الإبصار منذ بضعة أعوام..

ولوحظ في اليوم التالي لإذاعة هذا النبأ.. أن الأب «مادلين» قد وضع على قبعته شارة الحداد وفهم الناس من ذلك أن له بالأسقف صلة قرابة.. فزاد احترامه وارتفع قدره في نظر الناس..

وسألته إحدى السيدات ذات يوم:

- لابد أن سيدي العمدة هو ابن عم المرحوم أسقف برينبول ؟

فأجابها: كلا يا سيدتي..

قالت: ولكنك ترتدي شارة الحداد حزنًا عليه..

فأجابها: ذلك أنني كنت في وقت ما خادمًا لأسرته..

ومع مرور الأيام هدأ غضب الحاسدين.. وانحسرت ألسنة الفضوليين.. وأصبح الأب «مادلين» موضع ثقة أهل المدينة جميعًا..

ولم يبق في المدينة سوى رجل واحد لم تصل إليه عدوى هذه الثقة .

كانت غرائز هذا الرجل تنفر من احترام الأب «مادلين» وتتمرد على الثقة به.. فإذا وقع بصره عليه جَمُدَ في مكانه.. وقَلَبَ شفتيه.. وعقد ساعديه فوق صدره.. وشيعه بعينين كعيني الصقر وقال لنفسه:

- من هو هذا الرجل ؟! إنني رأيته قبل الآن ولكن متى.. وأين ؟!

كان اسم هذا الرجل «جافير» وكان مفتشاً للشرطة..

ولم يكن «جافير» قد رأى بداية الأب «مادلين».. لأنه جاء إلى فونفورميل بعد أن شيد «مادلين» صرح مجده وثروته..

وكان جافير هذا قد ولد «جافير» في السجن.. ولما بلغ مبلغ الرجال.. أحس بأنه نكره وأشفق على نفسه أن يجرفه تيار المجتمع.. ولاحظ «جافير» أن الهيئة الاجتماعية تنفر من طبقتين من الناس.. طبقة العابثين بها وطبقة المحافظين عليها.. ووجد لزامًا عليه أن يختار لنفسه إحدى هاتين الطبقتين.. و شعر في الوقت نفسه بأنه مطبوع على الصلابة.. وحب النظام فالتحق بخدمة البوليس.. وقضى بعض سنوات خدمته حارسًا في السجون.. وارتقى في سن الأربعين إلى وظيفة مفتش !

وامتاز «جافير» بإيمانه الشديد بمبدأين: احترام النظام.. وكراهة العصيان.. وكان يحترم حراس النظام والقانون من رئيس الوزراء إلى الخفير.. ويرى أن السرقة والقتل وغيرهما من الجرائم ضرب من العصيان والتمرد على النظام.. ويحتقر إلى حد الكراهية كل إنسان خرق النظام.. وتخطى حدود القانون ولو مرة واحدة في حياته..

كانت شخصيته تعبر عن المهنة التي خُلق لها.. مهنة الرجل الذي يتوارى عن العيون وكله عيون ترقب الناس.. فجبهته مختفية دائمًا تحت قبعته.. وعيناه تغوصان تحت حاجبيه.. وذقنه متوارية في ياقته.. ويداه مدفونتان في جيبيه.. وعصاه مختفيةً تحت معطفه.. فإذا حان وقت العمل برز الرجل من مخبئه.. وظهرت جبهته الضيقة ولمعت عيناه بقسوة.. وخرجت يداه الضخمتان من جيبيه..

وقد كان «جافير» أشبه بعين لا تتحول أبدًا عن الأب «مادلين».. عين تنبعثُ منها نظرات الشك والارتياب.. وأحس «مادلين» أخيراً بهذه النظرات.. ولكنه لم يفهم معناها ولم يقم لها وزنًا.. بل لم يفكر في اجتنابها أو الفرار منها وصمد أمامها دون أن يبدو عليه أنه يشعر بها.. وظل يعامل «جافير» كما يعامل سائر الناس بالرفق والحسنى والاحترام..

ولكن في أحد الأيام..حدث أن ترك سلوك «جافير» أثراً عميقاً في نفس الأب «مادلين»..

فذات يوم كان الأب «مادلين» يجتاز شارعًا غير ممهد مليئًا بالأوحال بعد الأمطار الغريزة التي هطلت في اليوم السابق.. فسمع جلبةً غير عادية.. ورأى في نهاية الشارع جماعةً من الناس تبدو عليهم علامات الاضطراب والانزعاج.. فقصد إليهم وهناك رأى جوادًا ملقى على الأرض وشيخًا متقدمًا في السن يئن تحت عربته التي انقلبت فوقه.

كان هذا الشيخ يدعى «فوشليفان» وهو أحد الأعداء القليلين الذين ظلوا يبغضون الأب «مادلين» حتى ذلك اليوم لا لشيء إلا لأن الأب «مادلين» أثرى بعد افتقار.. واحتل في المدينة تلك المكانة الرفيعة بعد أن كان نكرة لا يشعر به أحد.. وذلك في الوقت الذي أضاع فيه «فوشليفان» مركزه وثروته.. وانحدر من كاتب عقود إلى رجل مفلس لا يجد قوت يومه.. واضطر إلى استخدام مركبته وجواده لنقل ما يطلب إليه نقله..

وكان الجواد قد انزلق فانكسرت ساقاه وعجز عن الوقوف.. فيما رزحت العربة بحملها الثقيل فوق صدر الشيخ فغرزته في الأوحال..

وأنَّ الشيخ أنينًا مزعجًا.. وحاول بعض المارة إخراجه من مأزقه وجذبه من أسفل العربة.. فذهبت محاولاتهم أدراج الرياح.. وكان لابد لإخراجه من أن تُرفع العربةُ من مكانها.. وكان «جافير» قد وصل إلى مكان الحادث فأرسل في الحال في طلب رافعة لرفع العربة..

وأبصر الناس الأب «مادلين» وهو يقترب فأفسحوا له الطريق في احترام..

وصاح «فوشليفان»: النجدة أليس بينكم رجل كريم ينقذ شيخًا من الهلاك ؟

وأجال «مادلين» البصر حوله وسأل: أليس لديكم رافعة ؟

فأجابه أحدهم: لقد أرسلنا في طلبها..

- ومتى ينتظر إحضارها ؟

- بعد ربع ساعة على الأقل سيؤتى بها من حانوت « هانشيد » الحداد..

فهتف الأبد «مادلين» في ذعر: بعد ربع ساعة !

وكانت العربة قد انقلبت في حفرة مليئة بالأوحال فأخذت عجلاتها تغوص بالتدريج.. وكلما ازداد غوصــها في الوحل.. كلما ضغطت العربة بـشدة على صدر الرجل.. كان من الوا ضح أنها ستحطم ضلوعه.. وتكتم أنفا سه قبل انقضاء خمس دقائق أخرى.. فصاح الأب «مادلين» وهو ينظر حوله:

- من المســتحيل الانتظار ربع ســاعة أخرى ..أصـغوا إليَّ لا يزال تحت العربة متســع لجســمٍ آخر.. أفلا يســتطيع أحدكم أن ينزلق تحت العربة ويرفعها فوق ظهره ؟ هذه العملية لا تســتغرق نصـف دقيقة.. وعندئذ يمكن اجتذاب هذا الشيخ التعس.. أليس بينكم رجل قوي العضلات ؟ أليس بينكم من يريد أن يربح عشرة جنيهات ؟

فأطرق السامعون رؤوسهم وقال قائل:

- يجب أن يكون الإنسان قويًا جدًا لكي يرفع هذه العربة.. ثم إنه سيكون عرضةً أن يتهشم جسده..

فقال «مادلين» مرة أخرى: عشرون جنيهًا لمن يؤدي هذا العمل الكريم..

فساد الصمت..

قال «جافير»: إن القوم هنا لا تعوزهم الشـجاعة وحســن النية.. بقدر ما تعوزهم القوة.. والرجل يجب أن يكون على جانب عظيم من القوة البدنية لكي يتمكن من رفع هذه العربة فوق ظهره..

ثم نظر إلى الأب «مادلين» بحدة وقال ببطء كمن يريد أن يؤكد كل كلمة ينطق بها يا مســيو «مادلين».. إنني لم أر في حياتي غير رجل واحد يستطيع الاضطلاع بمثل هذه المهمة..

فرفع «مادلين» رأسه بحدة واستطرد «جافير» بقلة اكتراث ودون أن ينظر في عين «مادلين» وقد كان هذا الأخير سجينًا في ليمان طولون فامتقع وجه «مادلين»..

وفي هذه الأثناء كانت العجلات تغوص في الأوحال باستمرار فصاح «فوشليفان»:

- إنني أختنق.. إن ضلوعي تتمزق.. يا إلهي ! أين الرافعة ؟

فنظر «مادلين» حوله وهتف مرة أخرى: ألا يوجد رجل على استعداد لأن ينقذ هذا الشيخ ويربح عشرين جنيهًا ؟

فلزم الجميع الصــمت وقال «جافير» مرددًا: قلت لك إنني لم أر في حياتي رجلاً يســتطيع أن يجعل من جســمه رافعة.. إلا ذلك السجين..

فصاح «فوشليفان»: رباه إن جسمي يتهشم..

فرفع «مادلين» رأسـه.. والتقت عيناه بعيني «جافير» اللتين ترمقانه كأنهما عينا صـقر.. ثم تنهد في حزن.. وركع على ركبتيه دون أن ينطق بكلمة أخرى..

وقبل أن يدرك الناظرون ماذا سيفعل كان قد انزلق تحت العربة..

وانقضت لحظة انتظار مخيفة..

حاول الأب «مادلين».. وهو منبطح على بطنه.. أن يرفع العربة فوق ظهره.. وأن ينهض على يديه وركبتيه.. وكرَّر هذه المحاولة مرة أخرى.. ولكن دون جدوى..

وصاح الناظرون: اخرج أيها الأب «مادلين» .

وقال «فوشليفان» نفسه: أخرج ودعني أيها الأب «مادلين».. لقد أصبح موتي محققًاً.. فلا تقتل نفسك معي..

فلم يُجب «مادلين».. وظلت العجلات تغوص بالتدريج.. فحبس القوم أنفاسـهم.. وصـار من المسـتحيل حتى على الأب «مادلين» نفسه أن يخرج من تحت العربة..

وفجأة.. اهتزت العربة هزّة عنيفة.. وبدأت العجلات ترتفع من الأوحال.. وهتف صـوت مختنق: النجدة .. أسرعوا!

كان ذلك صوت «مادلين» وهو يبذل جهدًا أخيراً.. فخرج القوم من ذهولهم.. وهجموا على العربة.. بعد أن أثارت شجاعته شجاعة الآخرين..

وهكذا امتدت عشرات السواعد المفتولة.. ورفعت العربة.. فنجا «فوشليفان»..

وبرز «مادلين» من الأوحال.. وهو شـاحب اللون.. والعرق يتصـبب على جبينه.. وقد تمزقت ثيابه.. وتلطخت بالأوحال..

وأقبل «فوشليفان» على الأب «مادلين».. وراح يقبل يديه.. فيما تحول «مادلين» إلى حافير.. ونظر إليه في هدوء وسكينة.. وعلى وجهه مسحة من الألم..

وأمر الأب «مادلين».. فنُقل «فوشليفان» إلى المستشفى لمعالجته..

وفي صباح اليوم التالي.. وجد فوشـليفن في فراشـه ورقة مالية ذات ألف فرنك.. ورقعة بخط الأب «مادلين» عليها هذه الكلمات:

«ثمن العربة والجواد اللذين ابتعتهما»..

واندلعت جروحُ «فوشـليفان».. ولكنه أصـيب بعرج.. فاسـتعان «مادلين» بقس المدينة.. وبالراهبات اللائي يعنين بالمرضى في المستشفى.. وأوجد لـ «فوشليفان» عملاً كبستاني في دير سان أنطوان بباريس..



فانتين تعمل في المصنع

عادت «فانتين» إلى «مونفورميل» فلم تجد هناك من يتذكرها أو يعرفها.. ولكن من حسن الحظ أنها وجدت مصنع الأب «مادلين» مفتوحًا أمامها كساعدي الصديق الحميم..

تقدمت إلى المصنع وطلبت عملاً.. فأُرسِلَت في الحال إلى قسم العاملات..

وكانت المهنة غريبة عنها.. جديدة عليها.. فمُنحت في البداية أجرًا قليلاً يوازي خبرتها وإنتاجها.. ولكنها قنعت بهذا الأجر.. لأنها وجدت فيه الكفاية..

واغتبطت الفتاة المسكينة حين شعرت بأنها تستطيع أن تعيش من كدّها وعرق جبينها.. وعاودها نشاطها السابق.. وانتعشت فيها الرغبةُ في العمل.. فابتاعت مرآة صغيرة لتنعم فيها بتأمل شبابها الغض وشعرها الذهبي وأسنانها اللؤلؤية.. ونسيت في غبطتها أشياءاً كثيرة.. وأصبح كل تفكيرها منصبًا على صغيرتها «كوزيت».. وعلى السعادة التي تستطيع أن توفرها لها من أجرها المحدود..

واستأجرت غرفة صغيرة.. وجلبت لها أثاثاً قامت بتقسيط ثمنه..

ولما لم يكن في استطاعتها أن تزعم أنها متزوجة.. فقد حرصت كل الحرص على كتمان أمر ابنتها.. وراحت ترسل إلى «تيناردي» بانتظام الأجر الذي اتفقا عليه..

كان اسمها هو الكلمة الوحيدة التي تعرف كيف تكتبها.. فاضطرت أن تلجأ إلى أحد الكتبة العموميين.. ولوحظ عليها ذلك في المصنع.. فتهامست بعض الخبيثات: إن «فانتين» تكتب بانتظام إلى صاحب حانة في بولانجيه..

ومن سوء حظها أن الكاتب العمومي كان من أولئك الذين عندما يملؤون بطونهم بالخمر فإنهم يفرغون جعبتهم من الأسرار.. وكانت النتيجة أن ذاع بين العاملات في المصنع أن لـ«فانتين» ابنة.. ودفع الفضول إحدى العاملات.. فتطوعت للسفر إلى بولانجيه.. وعادت تقول إنها رأت الطفلة بعيني رأسها..

على أن ذلك كله استغرق وقتًا..

وفي أحد الأيام.. بعد أن قضت «فانتين» في المصنع أكثر من عام.. جاءت رئيسة العاملات وأعطتها خمسين فرنكًا باسم «مادلين»: عمدة المدينة وصاحب المصنع.. وقالت لها إن المصنع في غنى عن عملها.. وإن العمدة ينصحها بمغادرة المدينة..

حدث ذلك في الشهر نفسه الذي حتُم فيه «تيناردييه» أن يكون الأجر خمسة عشر فرنكًا بدلاً من اثني عشر..

ذُعرت «فانتين»..

لم يكن في اســـتطاعتها أن تبرح المدينة.. فهي تدين لصـــاحب المنزل ببعض المال.. ولم تدفع من ثمن الأثاث غير القليل.. والفرنكات الخمسون لا تكفي لسداد هذه الديون..

غمغمت ببضع كلمات على سبيل التوسل والاستعطاف.. ولكن رئيسة العاملات طلبت إليها في خشونة أن تبرح المصنع في الحال.. لأن المصنع ليس بحاجة إلى فتيات من طرازها..

وانصرفت «فانتين» والعار يكاد يسحق جسمها النحيل..

إذًا قد افتُضِحَ أمرها.. وعرف الجميع زلتها.. فماذا تفعل ؟

نصحتها إحدى صديقاتها أن تقابل العمدة وتستعطفه وتثير عاطفة الرحمة في نفسه الكريمة.. ولكنها خجلت أن تفعل ذلك .

وبعد .. ماذا تستطيع أن تقول له ؟ ألا يكفي أن الرجل أعطاها خمسين فرنكًا على سبيل الإحسان ؟!

ثم أليس الرجل حرًا في تطهير مصنعه من مثيلاتها ؟

وحاولت «فانتين» أن تجد عملاً في أحد المنازل.. ولكن الناس جميعًا تجاهلوها.. ونفضوا أيديهم منها..

ولم تستطع مغادرة المدينة.. فقد قال لها صاحب الأثاث..

ـ إذا حاولت الفرار.. أبلغت أمرك إلى الشرطة كأنك سارقة..

وقال لها صاحب المنزل:

ـ إنك ما زلت في مقتبل العمر.. وحسناء.. وفي استطاعتك أن تدفعي..

وزّعت «فانتين» الفرنكات الخمســين بين صــاحب المنزل وصــاحب الأثاث.. واشــتغلت بتطريز القمصــان لجنود حامية المدينة.. لقاء أجْرٍ زهيد لا يكاد يشبع جوعها..

وفي هذه الفترة بدأ تخلفها عن إرسال النقود إلى «تيناردييه»..

ولما قلَّ ربْحها.. اضطرت أن تُشرِكَ معها في الغرفة عجوزًا تدعى «مرجريت»..

وشعرت بالحنين إلى ابنتها.. وخطر لها في وسط هذا الشقاء أن ترسل في طلبها..

ولكن كيف تأتي بها وهي تدين لـ«تيناردييه» بمبلغ جسيم.. ولا تملك أجر المركبة التي تحمل إليها ابنتها ؟!

فانتين تبيع رأس شعرها

كانت «فانتين» قد طُرُدت من المصنع في نهاية الشتاء.. فانقضى الصيف.. وعاد الشتاء التالي..

وفي الشتاء يتجمّد الماء.. وتتحجر قلوب الناس.. فضيّق الدائنون الخناق على المرأة التعسة.. وتضاعفت ديونها.. وفي الوقت نفسه اشتد إلحاح «تيناردييه».. وتوالت رسائله..

وقد كتب إليها في أحد الأيام يقول إن «كوزيت» عارية البدن.. وإنها إذا أرادت أن تنقذ ابنتها من الموت بردًا.. فعليها أن تسارع في إرسال عشرة فرنكات على الأقل ثمنًا لثوب من صوف..

وقد ظلّت «فانتين» ممسكة بهذه الرسالة طول النهار.. ولما هبط الليل قصدت إلى حانوت حلاق في ركن الشارع.. وحلت جدائلها فانسدل شعرها البديع حتى مسّ فخذيها..

هتف الحلاق: ما أجمل هذا الشعر !

فسألته: كم تدفع ثمنًا له ؟

ـ عشرة فرنكات..

ـ قُصّه إذا..

وابتاعت لابنتها ثوبًا من الصوف بعثت به إلى «تيناردييه»..

وأرغى «تيناردييه» وتزيد.. لأنه كان يريد الفرنكات العشرة.. وأعطى الثوب لابنته الكبرى.. وظلت «كوزيت» ترتعد من البرد..

وقالت «فانتين» لنفسها:

ـ لن تشعر ابنتي بالبرد بعد الآن.. فقد كّسّوْتُها بشعر رأسي..

ووضعت على رأسها قلنسوة صغيرة.. أخفت جمجمتها الملساء التي لم تقلْ كثيراً من جمالها..

ولما وجدت أنها لا تستطيع بعد الآن أن تقص شعرها الجميل.. تبدّل شعورها.. وأظلمت نفسها.. وبرمت بالحياة.. وبدأت تكره كل شيء حولها..

قبلاً كانت تشاطر الناس احترامهم للأب «مادلين».. فلما طردها.. أو توهمت أنه طردها.. وكان سببًا في شقائها.. استحال احترامها إلى احتقار.. وحبها إلى كراهة.. وأصبحت أشد مقتًا له من ألد أعدائه.. فإذا مر بها بصقت على الأرض.. وإذا مرّت ببابه ضحكت ساخرة.. أو ترنمت بأغنية..

وأبصرتها إحدى عجائز المصنع ذات ليلة وهي تضحك وتغني.. فقالت:

- هذه الفتاة ستنتهي إلى أسوأ مصير..

واتخذت «فانتين» لنفسـها عشـيقًا من أول رجل راودها عن نفسـها.. اتخذته عشـيقًا.. رغم أنها لا تحبه.. ولكنها فعلت ذلك غيظًا وغضـبًا.. لتبكت العاملات اللائي شـمتن بشـقائها وبؤسـها.. ولكن حتى عشـيقها كان وغدًا.. وكان يشـبعها ضربًا.. فهجرته مشـمئزة كما قبلته مشـمئزة.. ومحا الشـقاء كل عاطفة نبيلة في نفسـها إلا عاطفة الحنان والأمومة..

كانت تحب ابنتها حب العبادة.. وكلما انحدرت في قرارة الهاوية.. تألق هذا الحب.. وأضاء جوانب نفسها المظلمة المفعمة باليأس والحنق..

قالت لنفسها: متى أصبحت غنية.. فإنني أبعث في طلب ابنتي «كوزيت».. ونعيش معًا.. ولم تستطيع أية قوة أن تفرق بيننا بعد ذلك..

وضحكت.. وسعلت..

وفي أحد الأيام.. تسلمت «فانتين» رسالة من «تيناردييه» يقول فيها:

«لقد أصيبت «كوزيت» بالحمى الصفراء.. والعقاقير الطبية قد كلفتنا كثيرًا.. ولم يعد في استطاعتنا دفع ثمنها بعد الآن.. وإذا لم ترسلي أربعين فرنكًا قبل انقضاء أسبوع ماتت ابنتك »..

قرأت «فانتين» هذه الر سالة.. وانفجرت ضاحكة.. ثم خرجت إلى الـشارع وهي لا تزال تـضحك وتغني.. و سألها سائل عن سبب مرحها وسرورها.. فأجابت:

- أتسألني عما يضحكني ؟! إن أحدهم يطلب مني أربعين فرنكًا فهل سمعت بأعجب من هذا؟!

ومرت بســوق المدينة.. ورأت جماعة من الناس يدورون بمركبة كبيرة قد وقف فيها رجل يرتدي ثوبًا أحمر.. كان الرجل طبيب أ سنان متجولاً.. وكان يعرض على الجمهور العقاقير المسكنة والمساحيق والأ سنان الاصطناعية.. ويغري الناس بخلع أ سنانهم المتداعية.. وكان الناس يـصغون إلى حديثه.. ويـضحكون.. و ضحكت «فانتين».. فأبـصر الطبيب أسنانها اللؤلؤية وهتف:

ما أبدع أسـنانك أيتها الحسـناء الضـاحكة! إذا فكرت في الخلاص من سـنيك الأماميتين.. فإنني على اسـتعداد لأن أدفع جنيهًا ثمنًا لكل سن..

فهتفت «فانتين» بدورها: يا له من خاطر مخيف !!

وقالت امرأة عجوز لها فم الطفل الرضيع:

- جنيهان ! ما أسعد هذه الفتاة !

وأوسعت «فانتين» الخطى.. ووضعت أصابعها في أذنيها.. لكي لا تسمع صوت الطبيب وهو يصيح في أثرها:

- فكري في الأمر أيتها العزيزة.. جنيهان أفضل في هذا الزمن من الأسنان.. وإذا وافقت فإنني في انتظارك الليلة في حانة «بياك دارجان»..

وعادت «فانتين» إلى غرفتها وهي تعتصر غيظًا وغضبًا.. وحدثت «مرجريت» بما حدث.. وصاحت:

- هل رأيت في حياتك رجلاً شر من هذا الطبيب ؟ يريد الشقي أن ينتزع السنتين الأماميتين من فمي لكي أبدو قبيحة دميمة.. مخيفة المنظر.. إني أفضل أن أُلقي بنفسي من النافذة وأموت.. ذلك أفضل ألف مرة من ضياع أسناني..

فسألتها «مرجريت»: وما الثمن الذي عرضه عليك؟

- إنه عرض عليّ جنيهين..

- أي أربعين فرنكًا..

وهنا ظهرت على وجه «فانتين» علامات الهم والتفكير.. وتناولت رسالة «تيناردييه».. وأعادت قراءتها.. ثم قالت:

- هل تعرفين ما هي الحمى الصفراء ؟ وهل تتطلب هذه الحمى كثيراً من العقاقير والأدوية ؟

فأجابتها «مرجريت»: أظن ذلك..

- وهل تعتقدين أن هذه الحمى تصيب الأطفال ؟

- إنها تفتك بهم أشد مما تفتك بالكبار..

فأعادت «فانتين» قراءة الرسالة.. ولما هبط الليل تسللت من غرفتها وخرجت إلى الشارع..

وفي الصباح.. دخلت «مرجريت» إلى غرفة «فانتين» لتوقظها كالمعتاد لأنهما كانتا تشتغلان بالتطريز معًا.. ولكنها وجدتها جالسة في فراشها.. وخيل إليها أنها كبرت في تلك الليلة عشرة أعوام..

هتفت: يا إلهي.. ماذا دهاك يا «فانتين» ؟!

فأجابت «فانتين»: لا شيء.. إنني في خير حال.. ولن تكون الحاجة إلى الأدوية والعقاقير الطبية سببًا في موت ابنتي بالحمى الصفراء.. إنني مطمئنة ناعمة البال..

قالت ذلك.. وأشارت إلى جنيهين يلمعان فوق المائدة.. وابتسمت.. ولكنها كانت ابتسامة مخيفة.. فقد انفجرت شفتاها عن هوة عميقة مظلمة.. وسال من ركن فمها خيط من الدم..

وأرسلت الأربعين فرنكًا إلى «تيناردييه».. وفرك «تيناردييه» كفيه ارتياحًا لأن «كوزيت» لم تكن مريضة..

قذفت «فانتين» بمرآتها من النافذة.. واستعاضت عن غرفتها الفسيحة بركن مظلم في الطابق الأرضي.. وأفقدها الاحتياج خيلاءها.. كما أفقدها حياءها.. فراحت تسير في الشارع في خرق مهلهلة.. إما لإهمالها وإما لضيق وقتها..

واستبد بها الدائنون.. فكانوا يرابطون لها في الشارع.. ويقتحمون عليها غرفتها..

واشتدت عليها وطأة السعال.. وشعرت بألم مزمن كامن تحت ضلعها الأيسر..

ولكنها ظلت تعمل سبع عشرة ساعة في النهار.. إلى أن خطر لذوي الشأن أن يستخدموا السجينات لصنع أقمصة الجنود.. وعندئذ سدّت في وجه «فانتين» جميع أبواب الرزق..

وفيما هي في هذا الضيق القاتل.. إذا بها تتسلم رسالة من «تيناردييه» يقول فيها إنه انتظر طويلاً.. حتى ضاق صدره.. وإنها إذا لم تبعث إليه بمائة فرنك في الحال.. فإنه يلقي ابنتها ـــ التي لم تبرأ من مرضها بعد ـــ على قارعة الطريق..

وقرأت «فانتين» هذه الرسالة وهتفت: مائة فرنك.. يا إلهي ! أين المهنة التي أستطيع أن أربح منها مائة سنتيم في اليوم؟! يجب أن أبيع كل ما تبقى..

ونزلت الفتاة التعسة إلى الشارع لتعرض للبيع أثمن ما تحرص عليه المرأة الشريفة..

وبعد ثمانية أو عشرة أشهر.. في ليلة شديدة البرد والصقيع.. كان أحد العاطلين يسير متسكعًا في الطريق.. وقد دس يديه السمينتين في جيوب معطفه السميك.. ووقع بصرُ الرجل على امرأة تسير جيئةً وذهابًا.. أمام نافذة مقهى الضباط.. وكانت المرأة ترتدي ثوبًا رقيقًا كثياب المراقص.. يتحسر عن صدرها.. ويكشف عن ساعديها.. كانت من أولئك المخلوقات التعيسات اللائي يتسللن تحت جنح الظلام وتتسكع أمام المقاهي والحانات.. لتغري المارة وتلفت إلى نفسها الأنظار..

وأراد الرجل أن يداعبها ولكنه كان سمجًا.. فكانت دعاباته كالقذائف..

قال لها: ما أشد بشاعتك ! أليست لك أسنان ؟!

ولم تلق المرأة إليه بالاً.. بل لم تنظر إليه.. واستمرت تروح وتجيء.. بانتظام.. فوق الأرض المغطاة بالثلوج..

ومضى الرجل في وقاحته.. وراح يرميها بوابل من السخرية اللاذعة والدعايات السمجة..

وكأنما ضـــايقه ألا تحفل المرأة به.. فانتظر حتى دارت على عقبيها.. ثم تســـلل وراءها بخفة.. والتقط حفنة من الثلج.. ودسها بين كتفيها العاريتين..

وأفلتت من فم المرأة صرخة مزعجة.. ووثبت على الرجل كالفهد وراحت تغرز أظافرها في وجهه بوحشية.. وترسل من فمها العجزة من الأسنان سيلاً من الشتائم.. بصوت أكسبته الخمر خشونة مخيفة..

كانت هذه المرأة «فانتين».. وكان الرجل من الموسيرين المعروفين في المدينة.. ويدعى «باماتابوا»..

وامتلأ الجو بصرـــاخ المرأة.. وشـــتائم الرجل.. فازدحم المارة.. وخرج الضـــباط من المقهى.. ودار الجميع بالرجل والمرأة وراحوا يصفقون ويضحكون..

كان الرجل يحاول عبثًا أن يتخلص من براثن المرأة.. وقد ســقطت قبعته.. وتهدلت ثيابه.. والمرأة تضرـب بيديها.. وتركل بقدميها وقد انكشف رأسها.. فبدت بلا شعر.. وانفرجت شفتاها.. فبدت بشعة مقيتة مخيفة..

وفجأة برز رجل طويل القامة.. وراح يشـــق طريقه وســـط الزحام حتى وصـــل إلى حيث كانت المرأة.. فأمســـك بثوبها الحريري الملوث بالأوحال وقال لها بلهجة الآمر: اتبعيني..

ورفعت المرأة رأسها.. وأبصرت الرجل.. فاختنق صوتها وشحب لونها.. وارتجفت خوفًا وفزعًا..

عرفت في هذا الرجل المفتش «جافير»..

أما غريمها فإنه انتهز تلك الفرصة.. وتوارى عن الأنظار..

و سار «جافير» نحو مكتب الشرطة.. وهو ممسك بثوب المرأة.. وتبعته المرأة كالآلة الصماء.. ولم ينطق أحدهما بكلمة..

كان مكتب الشرطة قائمًا في غرفة ضيقة.. منخفضة السقف.. لها باب من زجاج يحرسه شرطي مسلح.. فدخل «جافير» تلك الغرفة.. واجتذب «فانتين».. وأغلق الباب في وجه الفضوليين الذين تبعوهما..

وقبعت «فانتين» في أحد أركان الغرفة كالكلب المذعور.. وجلس «جافير» أمام مكتبه وتناول ورقة وقلمًا.. وراح يكتب..

وفي ذلك العهد.. كانت مصائر هذه الطبقة من النساء رهن إرادة رجال الشرطة..

وكانت القضـية واضـحة.. فهناك بغي تحرشـت بأحد المارة.. واعتدت عليه وشـهد مفتش الشرـطة بعينيه هذا العدوان..

وا ستمر «جافير» يكتب وهو صامت.. ثم ذيل الورقة با سمه.. وطواها وقدمها إلى أحد رجال الـشركة وهو يقول: اذهب بهذه المرأة إلى السجن..

وتحوّل إلى «فانتين» وأردف: ستقضين في السجن ستة أشهر..

فرفعت الفتاة التعسة رأسها في دهشة.. وصاحت:

ستة أشهر ! ستة أشهر في السجن.. حيث لا أربح سوى سبعة سنتيمات كل يوم؟ وماذا يكون من أمر «كوزيت» ؟ ماذا يكون من أمر ابنتي ؟ ثم إنني أدين لـ«تيناردييه» بمئة فرنك ونيف.. أفتعلم ذلك يا سيدي المفتش ؟

وعقدت يديها فوق صدرها متوسلة.. واجتازت الغرفة سيراً على ركبتها حتى وصلت إلى مكتب المفتش وهتفت:

أسألك الرحمةُ يا مسيو «جافير».. أؤكد لك أنني لم أذنب.. أواه:.. يا «كوزيت» ! يا ابنتي العزيزة ! ماذا يكون من أمرك أيتها الصغيرة المسكينة ؟! رحمة بي يا مسيو «جافير»..

فقال «جافير»: لقد أصغيت إليك .. فهل قلت كل ما عندك؟! اذهبي الآن.. ستقضين في السجن ستة أشهر..

وأولاها ظهره.. فاقترب الشرطي من الفتاة وأمسك بساعدها..

وكان الباب قد فتح في هدوء قبل بضـع دقائق ودخل منه رجل لم يشـعر به أحد.. وقد وقف هذا الرجل لصـق الباب.. فحجبه جسم الشرطي عن عيني «جافير»..

وسمع الرجل توسلات «فانتين» وضراعتها.. ولم يأتِ بحركة أو ينطق بكلمة..

ولما أمسك الشرطي ساعد الفتاة واجتذبها بعنف.. والفتاة تأبى أن تنهض من مكانها.. برز الرجل من الظلام.. وقال محدثًا الشرطي: أرجوك أن تنظر لحظة..

ونظر « جافير» إلى المتكلم.. وعرف فيه الأب « مادلين».. فرفع قبعته وأحنى قامته في احترام.. وغمغم: طاب مساؤك يا سيدي العمدة !

وأحدثت كلمة العمدة تأثيراً عجيبًا في «فانتين».. فإنها نهضت من مجثمها في الحال كأنها شبح يبرز من الأرض.. وانتزعت سـاعدها من قبضـة الشرـطي بقوة.. ووثبت إلى حيث كان الأب «مادلين».. فرمقته بنظرة وحشـية وهتفت: أهذا أنت أيها العمدة ؟!

وقهقهت ضـاحكة.. وبصـقت على وجهه.. فمسـح الأب «مادلين» وجهه بيده.. وقال: أيها المفتش «جافير» أطلق سراح هذه المرأة..

ومرّت بـ«جافير» لحظة خُيل إليه فيها أنه سيفقد عقله..

أتبصق بغي على وجه العمدة؟ تلك في نظره جريمة مستحيلة الوقوع.. وإذا وقعت فهي أشد فكرًا من الكفر..

ولما رأى العمدة يمسح وجهه في هدوء وسمعه يقول: «أطلق سراح هذه المرأة».. استولى عليه ذهول الجم لسانه.. وشلّ تفكيره.. وجعله يجمد في مكانه كالصنم..

كذلك أحدثت عبارة العمدة تأثيراً عجيبًا في «فانتين».. فرفعت ســاعديها العاريتين وتعلقت بالباب كمن يخشى السقوط.. ثم أجاثت حولها نظرة شاردة.. وراحت تقول بصوت خافت كأنها تتحدث إلى نفسها:

أنا حرة طليقة! ولن أقضي في السجن ستة أشهر؟! من ذا الذي قال ذلك؟ لا يمكن أن يكون القائل هو هذا العمدة الشرير.. أنت الذي قلت ذلك يا مسيو «جافير» الطيب القلب.. سأصارحك إذًا بالحقيقة.. وستطلق سراحي.. لقد كان هذا العمدة الأثيم علة مـصائبي.. فإنه أ صغى إلى و شاية الوا شين فطردني من مـصنعه.. ومنذ ذلك العهد لم أربح ما يكفيني.

وأصغى إليها الأب «مادلين» بانتباه شديد حتى فرغت من الكلام فسألها:

قلت إنك مدينة ببعض المال.. فكم يبلغ دينك ؟

فتحولت إليه فانتين وهتفت: هل تحدّثتُ إليك ؟

ثم نظرت إلى الشرطيّ واستطردت

حدثني أيها الـشرطي.. الم تر كيف بـصقت على وجهه ؟ إنك جئت لتخيفني أيها العمدة الـشرير.. ولكني لا أخـشاك.. ولا أخشى أحدًا غير مسيو «جافير» الطيّب القلب..

ونظرت إلى المفتش مرة اخرى وأردفت:

لقد أدركتُ الآن أنك رجل منصف يا مسيو «جافير» والواقع أن الحادث في غاية البساطة.. فقد وضع الرّجل الثلج في ثوبي لإضـحاك الضـباط في المقهى.. وللضـبّاط كل الحق في أن يلهوا ويضـحكوا.. فنحن معشرـ النسـاء لم نُخلق إلا إدخال المسرّة إلى قلوب الرجال.. وحـضرت أنت في هذه الأثناء يا مـسيو «جافير».. ولما كان الواجب يقـضي عليك بأن تصون الأمن والنظام.. فإنك جئت بي إلى هنا.. ظنًّا منك أنني المخطئة.. ثم فكّرت في الأمر وتبينت الحقيقة.. فأطلقت سراحي.. من أجل ابنتي الصـغيرة.. لأن وجودي في السـجن يغل يدَيّ ويمنعني من أن أعولها.. وإني أعاهدك يا مسـيو «جافير» ألا أفعل في المســتقبل ما يســتوجب إحضــاري إلى هنا.. وليفعل بي الناس ما شــاءوا.. فلن أتذمر ولن أحرّك ساكنًا وإذا كنت الليلة قد صرخت.. وأحدثت هذه الضجة.. فما ذلك إلا لأن الثلج أزعجتني وأنا مريضة كما يجب أن تعلم إنني أسـعل باسـتمرار وأشـعر كأن نارًا تسـتعر في صـدري ناولني يدك ادلّك على موضـع الألم.. ناولني يدك ولا تخف..

وتناولت يده الخشنة.. ووضعتها على صدرها الضعيف وهي تبتسم ..

ثم أصلحت ثوبها بسرعة.. وقصدت إلى الباب.. وقالت وهي تحيي الشرطيِّ بابتسامة..

لقد قال مسيو «جافير» إنني أستطيع الانصراف.. وهأنذا أنصرف..

وألقت بيدها على مقْبض الباب وهمّت بالخروج..

كان «جافير» حتى هذه اللحظة مطرقًا رأسه لا يبدي حراكًا.. فلما سمع مَقْبِض الباب يتحرك رفع رأسه كمن يستيقظ من نوم عميق وصاح بالشرطي بلهجة صارمة:

- أيها الشرطيّ.. ألا ترى أن المرأة تهمّ بالفرار ؟ من ذا الذي أمرك بإطلاق سراحها !؟

فقال «مادلين»: إنني أمرته..

وسمعت فالتين صوت «جافير».. فارتجفت وتركت مَقبض الباب..

ثم سمعت صوت «مادلين» فتحوّلت إليه..

ولم تنطق بكلمة بعد ذلك.. بل راحت تنقل البصر بين «مادلين» و«جافير» كلما تكلم أحدهما..

قال «جافير»: يا سيدي العمدة.. ذلك لا يمكن أن يكون.. فهذه المخلوقة قد أهانت رجلاً محترمًا..

فأجاب «مادلين» بصـوت هادئ وبلهجة رقيقة: اصـغ إلى يا مسـيو «جافير» إنك رجل أمين ويقيني أنني لن أجدُ صعوبة في إقناعك والحق أنني مررت بمكان الحادث بعد انصرافك بهذه الفتاة فرأيت زحامًا فاستفسرت عن سببه وعرفت الحقيقة..

لقد كان الرجل مخطئًا.. وكانت العدالة تقضي بأن تقبض عليه بدلاً منها .

ولكن هذه المخلوقة التعسة قد أهانت سيدي العمدة منذ لحظة..

فأجاب «مادلين»: ذلك من شأني وحدي..

- عفوًا يا سيدي ! إنها جريمة ليست من شأنك ولكنها من شأن المحكمة..

فقال «مادلين»: يا مسيو «جافير».. إنّ الضمير هو المحكمة العليا لقد سمعت كلام المرأة وإني أعرف ما أنا صانع..

أما أنا يا سيدي العمدة فإنني لا أكاد أفهم ما أرى..

في هذه الحالة يكفيك أن تُطيع

إنني أطيع واجبي والواجبُ يقضي بأن أرسل هذه المرأة إلى السجن لتُمضي فيه ستة أشهر..

فأجاب «مادلين» في لطف: أصغ إليّ جيدًا يا مسيو «جافير» هذه المرأة لن تقضي في السجن يومًا واحدًا !

وسمع «جافير» هذه الكلمات الحاسمة فنظر إلى العمدة بحدّة قائلاً:

يؤسفني أن أعارضك يا سيدي العمدة وهذه أول مرّة في حياتي أعارض فيها أحد رجال السلطة.. ولكني أرجوا أن نلاحظ أنني لم أتخط حدود واجباتي فهذه المرأة قد أهانت مسـيو بامابوا.. وهو رجل معروف يملك ذلك القصر الشاهق الكائن في شارع « سيلاند » عند طرف المدينة وثبت في هذه القضية إذاً من اختصاص شرطة المدينة.. وأنا مُصرَ على معاقبة هذه المرأة..

فعقد «مادلين» ساعديه فوق صدره.. وقال بصوت صارم لم يسمعه أحد في المدينة من قبل: بل إن هذه القضية من خصـائص شرطة الضـواحي لأن الرجل يقطن طرف المدينة والمواد ٩ و ١١ و ١٥ و٦٦ من قانون العقوبات تجعل من حقي أن أقضي فيها وقد قضيت بإطلاق سرا ح المرأة..

فحاول «جافير» أن يبذل مجهودًا أخيراً وقال: ولكن يا سيدي العمدة ..

- فقاطعه ما دلين وإني ألفت نظرك إلى المادة ٨١ من القانون الصـادر في ١٣ ديسـمبر سـنة ١٧٩٩ بشـأن حجز الأبرياء بغير حقّ..

- عفوًا يا سيدي .. أرجوا أن تسمح لي ..

- إنني لا أسمح لك أن تزيد كلمة أخرى.. ومع ذلك .. أترك هذه الغرفة..

فأحنى «جافير» قامته باحترام عظيم.. وانصرف..

كانت «فانتين» لا تزال واقفة بالباب ترقب ما يحدث وهي ذاهلة مذعورة..

شـهدت ذلك النضـال العجيب بين رجلين يسـيطران على مصـيرها.. وبين أيديهما حريتها وحياتها ومصـير ابنتها وسمعت أحد الرجلين يتكلّم كالشيطان والآخر يتكلم كملاكها الحارس ورأت الملاك يهزم الشيطان..

بيدَ أن الأمر الوحيد الذي أذهلها وجعلها ترتجف من قمّة رأسـها إلى أخمص قدميها هو أن منقذها وملاكها الحارس كان الرجلُ نفسـه الذي تمقته أكثر مما تمقت أي إنسـان آخر في الوجود.. كان هو العمدة الذي طالما ظننته سبب شقائها وأصل محنتها وقد أنقذها في الوقت الذي لطُخت فيه وجهه بتلك الإهانة المخيفة..

أصغت إلى حديث الرجلين.. وشعرت مع كل كلمة من كلمات الأب «مادلين» كان ظلام الكراهة ينقشع من قلبها لكي يفسح سبيلاً لعاطفة جديدة.. هي مزيج من الارتياح والثقة والحب والإجلال..

وما إن انصرف «جافير» حتى تحوّل إليها «مادلين».. وقال بصوت خافت.. هو صوت الرجل الرزين الذي يبذل جهدًا كبيرًا ليحبس دموعه:

لقد سمعت قصّتك ولا أعرف شيئًا عما ذكرت.. ولكني أعتقد وأشعر بأنك ذكرت الحقيقة.. ولم يكن علم بأنك تركت المصنع فلماذا لم تلجأ إليّ ؟! ولكن أصغي إليّ سأحدثك بما سأفعله من أجلك.. سأقوم على سداد ديونك و سأحضر ابنتك.. أو اذهبي إليها إذا أدرت.. وفي ا ستطاعتك أن تعيشي هنا.. أو في باريس.. أو في أي مكان تريدين.. وسأمدّك بالمال أينما كنت.. لكي تستردي سعادتك المفقودة وتعودي إلى حياة الشرف والكرامة.. بل إنني أقول لك أكثر من ذلك .. أقول لك إنه إذا صحّ كلّ ما ذكرت.. ولا شكّ عندي في صحّته فإنك لم تكوني قط في نظر الله إلا امرأة طاهرة فاضلة كريمة مسكينة أنت أيتها المرأة..

وكان ذلك أكثر ما تستطيع «فانتين» التعسة أن تحتمل..

أتعود إليها «فانتين» ؟ وتنفض عن حذائها تراب الرذيلة وتعيش مع ابنتها حرّة سعيدة محترمة موفورة الحاجة ؟ ألا إن هذا هو النعيم الذي ليس في الدنيا ولا الآخرة نعيم مثله..

نظرت في ذهول إلى الرجل الذي يتحدث إليها.. ولم تستطع إلا أن تردّد آه .. آه..

وترنّحت وسقطت على ركبتيها أمام الأب «مادلين».. وقبل أن يمنعها تناولت يده وألصقتها بشفتيها.. ثم أُغميّ عليها..

وأمر بها الأب «مادلين» فنُقلت إلى المستشفى الملحَق بمنزله.. والذي أعدّه خصيصًا لإيواء المرضى من العمال.. وأوصى الراهبتين اللتين تقومان على العناية بالمرضى أن تعنيا بها أشدّ عناية..

وقضت «فانتين» شطرًا كبيرًا من الليل.. وهي تهذي وتصيح بصوت مرتفع.. ثم هبت وطاة الحمى.. فنامت نومًا عميقًا..

ولما فتحت عينيها قبيل ظهر اليوم التالي.. شعرت بأنفاس تتردد على مقربة منها.. فأطلت من كلّة الفراش.. ورأت الأب «مادلين» ينظر إلى شيء على الجدار فوق الفراش وفي عينيه إشفاق ورجاء وألم فتتبّعت نظراته.. ووقع بصرها على تمثال السيد المسيح..

سألت في خجل: ماذا تصنع ؟!

وكان الأب «مادلين» قد قضى بالقرب من الفراش ساعة أو بعض ساعة في انتظار أن تستيقظ فتناول يدها وجس نبضها.. وسألها كيف حالك ؟

إنني في خير حال.. فقد نمت نومًا عميقًا..

فأجاب عن سؤالها الأول: لقد كنت أبتهل للشهيد المصلوب..

وكان أجدر به أن يقول: لقد أبتهل للشهيدة الممدّة على الفراش..

وكان الرجل قد قضى الليل كله في البحث والاستفسار حتى علم حقيقة الخبر وعرف قصّة «فانتين» المؤلمة..

قال: مسكينة أنت أيتها الأم.. لقد تألمت كثيرًا.. ولكن لا تحزني فآلامك من النوع الذي يجعل من البشر ملائكة.. والجحيم الذي تصلين فيه هو الدهليز الموصل إلى النعيم..

وذاع نبأ الجدل العنيف الذي دار بين مفتش الشرطة والعمدة فلما وقع بصر موظف البريد في اليوم التالي على رسالة بخط «جافير» وعليها اسم مدير الشرطة في باريس.. أيقن أن المفتش أرسل يستقيل من منصبه..

أما الأب «مادلين» فإنه كتب فورًا إلى تيناردبيه وكان قد علم من «فانتين» أنها تدين لصاحب الحانة بمائة وعشرين فرنكًا.. فأرسل إليه ثلاثمائة فرنك وأمره بأن يبعث بكوريت في الحال.. لأن أمها المريضة تنتظرها..

وتسلّم تيناردبيه هذا المبلغ.. فدهش وقال لامرأته: يجب ألا نترك هذه الطفلة فسوف تكون لنا كالبقرة الحلوب وأكبر ظني أن احدهم قد وقع في غرام أمها..

وأجاب عن رسالة «مادلين» بأن مرض «كوزيت» كلّفه مائة فرنك أخرى..

فبعث إليه «مادلين» بهذا المبلغ.. مُضافًا إليه مائتا فرنك وألح عليه أن يرسل «كوزيت» على عجل..

فقال تينارببه: كلا كلا يجب أن نحتفظ بالفتاة إنها منجم يدر علينا ذهبًا..

ولم تبرأ «فانتين» من سقمها وكانت الرهبتان قد استقلبتاها أولا بشيء من النفور والاشمئزاز ولكن لم تمض أيام قلائل حتى محا لطف «فانتين» نفورهما وأثار حنانها وأمومتها الرقيقة عاطفة الرحمة والإشفاق في قلبيها..

وراح «مادلين» يزوها مرتين كل يوم.. فتسأله «فانتين» في كل مرة:

هل أرى ابنتي قريبًا ؟

فيجيبها: ربما غدًا.. إنني أنتظرها في أية لحظة..

فيضيء وجهها الشاحب.. وتهتف كم سأكون سعيدة !

ولم تتبدّل حالتها فقد أضرّت بها حفنة الثلج التي دسّها الرجل في ظهرها واشتّد سعالها..

وفحصها الطبيب وهزّ رأسه.. فنظر إليه «مادلين» مستفسرًا..

قال الطبيب: هل قلت إنّ لها ابنة تريد أن تراها ؟

نعم..

إذا فأحضرها على عجل..

فقطب «مادلين» حاجبيه.. وسألته «فانتين»: ماذا قال الطبيب ؟

فابتسم «مادلين» على كره منه وأجاب: إنه طلب أن أعجل بإحضار الطفلة.. لأن وجودها يبرئك من سقمك..

فصاحت: لقد صدق الطبيب ! ولكني لا أدري لماذا أبطأ تيناردييه..

ولم يرسل تينادريه الطفلة.. والتمس لذلك أسخف الأعذار.. فقد قال إن «كوزيت» لا تزال مريضة ومن المجازفة بصحتها أن يسمح لها بالسفر في الشتاء..

وضاق «مادلين» ذرعًا فقال:

سأبعث من يأتي بـ«كوزيت» وإذا قضت الضرورة فإنني سأذهب أنا بنفسي..

وطلب إلى «فانتين» أن توقع باسمها على رسالة جاء فيها:

مسيو تيناردييه ..

« أريد أن تَعْهَدَ بابنتي «كوزيت» إلى حامل هذه الرسالة وسيتولى عني سداد ما عليّ من ديون »..

وفي صباح أحد الأيام.. بينما كان الأب «مادلين» في مكتبه يستعد للسفر إلى بولانجيه ويرتب أوراقه الرسمية.. إذا بالخادم ينبئه بأن المفتش «جافير» يرجو مقابلته..

وشعر الأب «مادلين» بانقباض حين سمع هذا الاسم.. ولكنه قال: دَعْهُ يدخل..

فدخل «جافير» وأحنى قامته للأب «مادلين»..

لم يكن في نظراته شيء من الحقد.. أو الريبة.. ولكن مسحه من الحزن كانت واضحة على سحنته الصارمة التي كأنما نُحتت من « القرانيت »..

وضع «مادلين» القلم من يده.. وتحوّل إلى المفتش وسأل: ماذا وراءك يا «جافير» ؟

فظلّ «جافير» صامتًا كأنه يفكر.. ثم قال بصوت مرتفع:

لقد حدث أمر منكر يا سيدي.. فقد أخلّ صغار الموظفين بواجباته حيال رجل من رجال السلطة.. وقد جئت بحكم واجبي لإبلاغكم الأمر..

ومن هو هذا الموظّف ؟

أنا..

ومن هو رجل السلطة الذي يشكو الموظف ؟

أنت يا سيدي العمدة وقد جئتك الآن لأتبهك إلى المطالبة بفصلي من العمل..

ففتح «مادلين» فمه في دهشة وعجب.. واستطرد «جافير»:

ستقول إنه في استطاعتي أن أقدّم استقالتي ولكن الاستقالة لا تكفي.. فإنني تورطّت في خطا أستحق عليه العقاب ولذلك أن أطرد من الخدمة طردًا.. وصمت لحظة ثم أردف:

يا سيدي العمدة إنك قسوت في معاملتي منذ أيام بغير حق فكن قاسيًا اليوم بحق..

فهتف «مادلين»: ما معنى كل هذا ؟! إنك تتهم نفسك.. وتريدني أن اطلب نقلك .. و .. بل أرجو أن تطلب طردي.. ولكنني لا أفهم شيئًا من كل هذا..

فتنهّد «جافير» وقال ببرود ولكن بحزن: اعلم إذًا يا سيدي العمدة أن ذلك الخلاف الذي شجر بيننا منذ ستة أسابيع قد أغضبني وأثار حقدي عليك فوشيت بك إلى مدير الشرطة بباريس..

لم يتعوّد الأبد «مادلين» أن يضحك.. ولأكنه انفجر الآن ضاحكًا وهتف:

هلوشيت بي بصفتي عمدة طغى بسلطته على سلطة رجال الشرطة ؟!

بل بصفتك سجينًا سابقًا في ليمان طولون..

فامتقع لون الأب «مادلين» ومضى «جافير» في حديثه دون أن يرفع بصره عن الأرض..

لقد حسبتك ذلك السجين.. فإن ما بدا من قوة عضلاتك في حادث فوسليفان والشّبه العجيب الذي لمحته في تقاطيع وجهك والمعلومات التي ذهبت تستقيها من قرية « فافيرول » كل ذلك حملني على الارتياب بأنك «جان فالجان».. وهو سجين سابق رأيته منذ عشرين سنة حين كنت حارسًا في ليمان طولون.. وقد علمت من أمر هذا السجين في ما بعد أنه سرق أمتعة أحد الأساقفة واغتصب قطعة نقود في أحد الغلمان وضاع أثره منذ ثمانية أعوام رغم الجهود التي بُذلت في البحث عنه..

فقال الأب «مادلين» بقلّة اكتراث وهو يتصفح دفترًا بين يديه:

وماذا كان الردّ الذي تلقَّيته من باريس ؟

جاءني الرد بأنني مجنون.. وهي الحقيقة..

من حسن الحظ أن تعترف بذلك..

وهل أستطيع الإنكار .. وق دقُبض على «جان فالجان» الحقيقي ؟

فأفلت الدفتر الذي كان بين يدي «مادلين».. ورفع رأسه ونظر إلى «جافير» دهشًا مستفسرًا..

قال «جافير»:

الواقع أنه كان في مدينة « إيلي » رجل رقيق الحال متقدّم في السـن يدعى « شـاتماتيو » وقد ضُـبط هذا الرجل أخيرًا متلبسًا بسرقة تفاح من إحدى الحدائق.. وأُر سل إلى سجن « أراس » و صودف أن كان في ذلك السجن سجين قضى بضعة أعوام في ليمان طولون.. فما كاد يبصر شاتماتيو حتى صاح:

إنني أعرف هذا الرجل لقد رأيته في ليمان طولون ن أُنظر إليّ يا هذا ألست أنت «جان فالجان» ؟

فأنكر شـاتماتيو وأصرّ على الإنكار بيْدَ أن سـجينين آخرين عرفاه في الحال.. فلما وشـيت بك.. جاءني الرد بأنني معتوه.. وأن «جان فالجان» مسجون فعلاً رهن المحاكمة.. ولكني أردت أن أتحقق من الأمر بنفسي فاتصلت بذوي الشأن في « أراس » وسمحوا لي بمقابلة السجين..

وهل قابلته ؟

الحقُ يا سيدي العمدة أن ذلك السجين هو «جان فالجان» وقد رأيته وعرفته فأرجوا صفحك..

فلم يجبه «مادلين» بل سأل بسرعة وماذا يقول هذا الرجل ؟!

إن موقفه زاد حرجًا يا سيدي العمدة.. لأن قضيته لم تعد قضية شيخ مسكين سرق بضع تفاحات بل قضية مجرم ذي سـوابق سـطا قبلاً على منزل أحد الأسـاقفة واغتصـب عنوة مال غلام ضـعيف وهو لن يحكم الآن أمام محكمة الشرطة بل سيقدم إلى محكمة الجنايات وسيكون جزاؤه السجن المؤبد..

على أن «جان فالجان» رجل ماكر وأي إنسـان في موقفه كان لابد أن يحتجّ ويقاوم ويقسـم أنه ليس «جان فالجان».. أما هذا الشـقيّ فإنه يزعم أنه لا يدري مما حوله شـيئًا.. ويقول إنه شـاتماتيو ويرفض الإقلاع عن زعمه ويتظاهر إلى جانب ذلك بالبلاهة والغباء ولكن الأدّلة كافية ويوجد أربعة شهود - أنا واحد منهم - يؤكدون أنه «جان فالجان».. وقد دعيت فعلاً لأداء الشهادة في محكمة جنايات « أراس »..

كان الأب «مادلين» قد عاد إلى عمله.. فراح يكتب تارة ويقرأ تارة أخرى..

ثم قال فجأة: كفى ! كفى يا «جافير» هذه التفاصـيل لا تهمني كثيرًا ووقتنا أثمن من أن يُصرـف في غير أعمالنا ألم تقل إنك ستذهب لأداء الشهادة في محكمة أراس بعد أسبوع أو عشرة أيام ؟

بل قبل ذلك يا سيدي..

- متى إذًا ؟

- غدًا وسأبدأ رحلتي إلى أراس الليلة..

- وهل تستمر المحاكمة طويلاً ؟

- يومًا على الأكثر وقد يصدر الحكم في المساء.. ولكني لن أنتظر صدروه بل سأعود أدراجي بعد أداء الشهادة مباشرة..

قال «مادلين» ببساطة: حسنًا..

وكان المنتظر بعدئذ أن ينصرف «جافير».. ولكنه لم يَبْرَحْ مكانه..

قال الأب «مادلين»: ماذا عندك أيضًا ؟

أريد أن أذكّرك بأن تطلب طردي..

فنهض «مادلين» واقفًا وقال: إنك رجل شريف يا «جافير» وأنا أقدرّك وأعتقد أنك تبالغ في تجسيم هفوتك وأصرّ على بقائك في منصبك..

فقال «جافير» في هدوء إنني لا أسمح بذلك يا سيدي العمدة..

أعني أقول لك مرة أخرى إن هفوتك من شؤوني الشخصية ولكن «جافير» لم يسمع غير صوتُ ضميره فقال: يا سيدي العمدة إنني أعامل نفسي كما يجب أن أعامل الآخرين وكثيراً ما شعرت بقسوتي على المذنبين والخاطئين فكنت أقول: كن على حذر يا «جافير» فالويل لك إذا هفوت..

ولقد هفوتْ فحقّت عليّ العقوبة..

إنّ من مصلحة المجتمع أن يكون خدّامه مُثُلا عُليا في النزاهة وقد أصبحتُ بعد هذه الهفوة غير جدير بخدمة المجتمع..

إنني قويّ الساعدين يا سيدي العمدة.. وسأفلح الأرض أو أصبح عاملاً وكل ما أطالب به الآن هو طرد المفتش «جافير»..

فقال «مادلين»: سوف ننظر في ذلك..

وبسط إليه يده ولكن «جافير» تراجع خطوة وقال في حزم:

عفوًا يا سيدي ! ينبغي للعمدة ألا يضع يده في يد جاسوس إنني أصبحت جاسوسًا فحسب منذ أسأت استخدام سلطة وظيفتي..

وأحنى رأســه باحترام ومشىـ إلى الباب.. وهناك نظر وراءه.. وقال دون أن ينظر في وجه العمدة ســأســتمر في عملي.. حتى يأتي خلفي..

وسمع «مادلين» وقع أقدامه الثقيلة وهو يبتعد بخطوات متندة رزينة..

***

ذهب «مادلين» بعد ظهر ذلك اليوم لزيارة «فانتين» كالمعتاد وكانت تنتظره دائمًا بفارغ الصـبر كما لو كان يحمل إليها الدفء والضوء وقد استبدت بها الحمى في ذلك اليوم.. فلم تكد ترى الأب «مادلين» حتى هتفت: أين «كوزيت» ؟

فاجابها وهو يبتسم: ستأتي قريبًا..

وطالت زياراته أكثر من المعتاد وقضى في غرفتها ساعة وأوصى الراهبتين أن توفرا لها أ سباب الراحة ما ا ستطاعتا إلى ذلك سبيلاً ولوحظ عليه أنه اكتئب حين همس الطبيب في أذنه كلامًا..

وعاد «مادلين» بعد ذلك إلى مكتبه ولاحظ أحد الموظفين أنه يطيل النظر إلى خريطة مثبتة بالجدار ليبين طرق فرنسا..

وفي المساء قصد العمدة إلى بين رجل يدعى سكوفلير عرف أنه يؤجر المركبات والجياد للراغبين في استئجارها..

وكان سكوفلير وقتئذ في منزله يشتغل بزتق أعنة الجياد.. فسأله «مادلين»:

هل أجد لديك جوادًا كريمًا يا سكوفلير ؟

فأجابه الرجل: كلُّ جيادي من كرام الخيل يا سيدي فماذا تعني بجواد كريم ؟

إني أريد جوادًا يَقْوى على قَطْع عشرين مرحلة في اليوم.. ويبقى محتفظًا بنشاطه في اليوم التالي..

لديّ جوادًا أبيض صغير يفي بغرضك يا سيدي العمدة.. ولكنّه عنيد لا يمكنك أن تمتطيه.. ومن الخير أن تشدّه إلى مركبة.. فهل تستطيع قيادة المركبة ؟

نعم.. ويجب كذلك أن تسافرَ بمفردك وبغير أمتعة حتى لا تُثقلَ كاهل الجواد..

اتفقنا.. واجر هذا الجواد ثلاثون فرنكًا يوميًا..

فتفقده «مادلين» ثلاثة جنيهات وهو يقول: إليك أجر ثلاثة أيام..

حسنًا.. متى تريد الرحيل ؟

أرسل الجواد والمركبة إلى منزلي في منتصف الساعة الرابعة من صباح غد..

ولا شكّ أن القارئ قد أدرك بذكائه أن الأب «مادلين» لم يكن في الواقع إلا «جان فالجان» .. وبحسبنا أن نذكر الآن ما كان من أمر هذا الشريد بعد حادث الغلام جرفيه..

ا ستحال «جان فالجان» بعد هذا رجلاً غير الرجل.. فا صبح كما أراده الأ سقف أن يكون ونجح في الاختفاء.. وباع صحاف الأسقف واحتفظ بالشمعدانين على سبيل التذكار..

وو صل فالجان إلى «مونفورميل» في الظروف التي أوردناها.. وتفتق ذهنه عن الابتكار الذي أنعش المدينة وجلب له الثروة والمجد وعاش مطمئنًا ناعم البال ســـعيدًا بأن الماضي يحزنه وبأن الشـــطر الثاني من حياته يكاد أن يمحو الشطر الأول..

وعلى الرغم من شدة حرصه وحلوه فإنه احتفظ بشمعداني الأسقف ولبس ثوب الحداد حزنًا عليه واستفسر عن عائلة أخته في فافيرول وأنقذ حياة «فوشليفان» رغم تلميحات «جافير»..

كان ينظر إلى ألمور نظرة العقلاء الأتقياء العادلين الذين يرون أن واجبهم الأول ليس حيال أنفسهم..

ولكن ينبغي أن تقول إن مأزقًا كمأزقه الحالي لم يعرض له قط.. في ما مضى.. وقد أذهله وأدهشه أن يسمع بأذنيه ذلك الاسم الذي دفنهُ منذ زمن بعيد .

أحس بالسماء تبرق وترعد فوق رأ سه وخطر له وهو يصغي إلى كلام «جافير» أن ينطلق في التو فيذشي بنفسه.. وينقذ شاتماتيو.. ويحل في السجن محله..

وآلمه هذا الخاطر كما لو كان جرحًا في لحمه.. ثم زال الألم.. وقال لنفسه: لننتظر.

وأحنقه ذلك الشعور الفطري الكريم.. وتراجع عن موقفه البطولي.. وقضى بقية ذلك النهار في تلك الحالة.. هدوء في الظاهر وعاصفة في الباطن..

وا ضطرب ذهنه.. وتلاطمت خواطره.. فلم يتبين فكرة واحدة وا ضحة.. ولم يكن في ا ستطاعته أ.. يقول عن نفسه أكثر من أنه أصيب بلطمة أفقدته الوعي..

وبعد أن تناول عشاءه في المساء.. راح يستعرض موقفه.. ولاحظ أنه لا يزال سيد الموقف رغم حرجه..

قال لنفسه: ومم أخاف؟ كان يوجد باب واحد يستطيع ماضي أن يقتحم منه حاضري.. وقد أغلق هذا الباب.. وأغلق إلى الأبد.. ولن يزعجني «جافير» بعد الآن.. لأنه اطمأن إلى مكان غريمه «جان فالجان».. ومن المحتمل كذلك أن يغادر «جافير» هذه المدينة.. وقد حدث كل ذلك دون أن يكون لي فيه إصبع.. فلماذا اليأس والتشاؤم؟!

إن العناية الإلهية دبرت كل شيء.. فلماذا لا أدعُ الأمور تسير في مجراها الطبيعي ؟

ولكن خُيل إليه أن الأسقف ينظر إليه من القبر.. وأنه يرى في الأب «مادلين» العمدة إنسانًا مقيتًا حقيقيًا باللعنة.. ويرى في «جان فالجان» السجين إنسانًا طاهرًا نقي الضمير حقيقًا بالإعجاب والإكبار..

سيرى الناس قناعة الزائف ويرى الأسقف وجهه على حقيقته..

سيرى الناس حياته.. أما الأسقف فسيرى ضميره..

كلا... كلا... يجب أن ينطلق إلى «أراس».. وينقذ «جان فالجان» الزائف.. ويرشد إلى «جان فالجان» الحقيقي..

وا أسفاه! ستكون هذه أعظم تضحياته.. وأمر انتصاراته.. وآخر خطواته.. ولكنه يجب أن يخطوها.. فما أشقاه! وما أتعسه! إنه لن يطهر نفسه في عين الله حتى يتلوث بالأوحال في عيون الناس..

قال: يجب أن أؤدي واجبي.. وأنقذ ذلك الرجل..

قال ذلك بصوت مرتفع.. دون أن يلاحظ أنه رفع صوته.. وعمد إلى دفاتره.. فراح يراجعها ويرتبها.. وألقى في النار طائفة من صــكوك الديون التي عجز المدينون عن أدائها.. وكتب رســالة بعنوان «مدير بنك لافيت بشــارع دارتوا بباريس»..

ولما فرغ من ذلك.. كان الليل قد انتصــف.. فتهالك في مقعده.. وبذل جهدًا عنيفًا لكي يجمع شــتات أفكاره.. وغمغم: نعم .. لقد حزمت أمري على أن أشي بنفسي..

ثم تذكر فانتبه فجأة.. وهتف: ولكن .. صبرًا ! ماذا يكون من أمر هذه المرأة التعسة؟!

وهنا هبت عاصفة جديدة.. وبدت له «فانتين» كشعاع غير منتظر.. وخيل إليه أن كل شيء حوله قد تغير..

هتف: صبرًا.. صبرًا.. إنني لم أفكر حتى الآن إلا في نفسي.. ولم أسأل إلا ضميري ولم أعبأ إلا بمصيري.. ولكن لنفترض أنني فكرت قليلاً في مصائر غيري ؟

إذا وشَيتُ بنفسي.. أُطلق سراح شانماتيو وأرسل إلى السجن.. فماذا يكون بعد ذلك ؟ ماذا يحدث بعد ذلك ؟

هنا مدينة ومصــانع ومتاجر.. ورجال ونســاء.. وشــيوخ وأطفال.. وأنا الذي أوجدت ذلك كله.. وحينما توجد نار تستعر.. فأنا الذي أشعلتها.. وأنا الذي وضعت اللحم في الآنية التي فوقها..

أنا الذي أوجدت هذا النشــاط.. وهذا الرخاء.. وهذه الحركة.. وهذا الثراء.. فإذا ذهبت أقفرت المصــانع.. وأغلقت المتاجر.. وأجدبت الحياة.. وتفرّق الناس..

ثم هنالك تلك المرأة التعســة التي تألمت كثيرًا.. وكنت على الرغم مني علة ألمها وشــقائها.. والطفلة التي اعتزمتُ البحث عنها.. وردّها إلى أمها.. أفليس لهذه المرأة عليّ حق؟ أليس من حقها علي أن أرفه من آلامها.. وأمحو إســاءتي إليها ؟ فإذا ذهبتُ فماذا يكون؟ ستموت الأم.. وتتشرد الابنة.. نعم.. ذلك سيحدث إذا وشيت أنا بنفسي..

وتردد .. وارتجف .. ثم أردف:

- إذا لم أشِ بنفسي قضى ذلك الرجل بقية حياته في الليمان.. وهو جدير بهذه العقوبة.. لأنه سرق.. فليذهب إذًا.. ولأبق هنا.. وأواصل أعمالي.. ومتى انقضت عشرة أعوام.. أصبحت صاحب ملايين كثيرة أستثمرها هنا وهناك.. فتنشط الصناعة والتجارة.. وتتضاعف الأسر السعيدة.. ويعم الرخاء.. ويختفي الشقاء.. ومع الشقاء تختفي الجرائم والرذائل بأنواعها.. وتتوفر هذه الأم التعسة على تربية ابنتها..

حقًا.. إنني مجنونًا حين فكرت في الوشاية بنفسي..

أأكون سببًا في خراب مدينة.. وموت أمّ.. وتشرد طفلة.. لا لشيء إلا لرغبتي في أن أقوم بدور الرجل الكريم النبيل.. لكي أنقذ من السجن لصًا مجهولاً.. لا قيمة له في الحياة ولا وزن ؟

هناك اعتبارات جديرة بإنقاذ المجرم وتضحية البريء.. ومن هذه الاعتبارات أن أنتشل «كوزيت» الصغيرة من البؤرة التي تنتظرها والتي انزلقت إليها أمها من قبل..

كلا. كلا.. يجب أن أترك الأمور تسير في مجراها الطبيعي..

سأظل الأب «مادلين».. والويل لـ«جان فالجان» !

وأخذ يسير في الغرفة جيئة وذهابًا.. ثم وقف وقال:

لقد حزمتُ أمري.. ويجب ألا أتردد.. وهناك بعض خيوط لا تزال تربطني ب«جان فالجان» ومن الضروري فصمها.. نعم.. في هذه الغرفة شاهدان صامتان يجب إعدامهما..

وتناول شمعدانيَّ الأسقف.. وقذف بهما في النار المستعرة بالموقد..

ووقف يرقب الفضة وهي تذوب..

وفجأة.. سمع في أعماقه صوتًا يهتف به: «جان فالجان» .. «جان فالجان»..

فانتصب شعر رأسه.. وتصبب العرقُ على جبينه..

ومضى الصوت يقول: أحسنت صنعًا يا «جان فالجان».. فامض فيما بدأت.. أنس الشمعدانين فإن ذكراهما لا تسر.. وانس الأسقف.. إنس كل شيء.. واقض على شانماتيو.. هذا حسن! لقد انتهى كلُّ شيء الآن.. فهنيء نفسك.. إن هذا الرجل العجوز الذي لا يعلم ما يراد به.. والذي كلُّ ذنبه أن اسمك يخيم فوقه كالكابوس.. هذا الرجل العجوز سيؤخذ بجرائمك وآثامك.. و سيقضي ما بقي من أيامه في هوان ومذلة.. هذا حسن ! كن أنت رجلاً أمينًا.. وابق من أيامه كما أنت.. وا ستمتع بالاحترام والمجد والغنى.. واجلب الرخاء لهذه المدينة.. وساعد الفقراء.. وتعهد اليتامى بالعطف والإحسان.. وعش سعيدًا.. كريمًا ناعم البال.. بينما يحمل البريء وزرك.. ويرزح تحت ثقل اسمك ويقضي حياته مكبلاً بأغلالك.. نعم.. كل هذا حسن أيها الوغد!

وانحدرت حبات العرق على جبينه.. واستقرت نظراته الشاردة على الشمعدانين..

ومضى الصوت يقول:

«جان فالجان».. سـوف ترتفع من حولك أصـوات كثيرة تطريك وتباركك.. وسـينبعث من الأعماق صـوت واحد خافت يلعنك.. فأصغِ أيها الأثيم.. كل هذه البركات سوف تسقط إلى الأرض.. أما اللعنة فستصل وحدها إلى السماء..

كان هذا الصـوت الذي انبعث من أعماق ضـميره هادئًا خافتًا في البداية قد أصـبح الآن هائلاً مدويًا.. حتى خيل إليه أنه ليس صوته ولا صوت ضميره.. فنظر حوله في ذعر وصاح: هل يوجد أحد هنا؟

ثم ضحك وأجاب: ما أشد غباوتي ! فما من أحد..

ولكنه كان مخطئًا..

كان يوجد واحد لا تراه العيون .

واجتذب الشمعدانين من النار.. وردهما إلى مكانهما فوق المائدة ثم راح يمشي في الغرفة مشية الثمل..

وما زال هذا شأنه حتى دقت الساعة الثالثة..

قضىـ خمس سـاعات وهو يروح ويجيء ولا يقر له قرار.. إلى أن أنهكه التعب.. فارتمى في مقعده واسـتغرق في النوم..

واستيقظ بعد قليل على وقع حوافر جواد أمام المنزل.. ثم سمع طرقًا بباب غرفته

سأل: من هذا ؟

- أنا يا سيدي..

وعرف «مادلين» صوت خادمه..

قال الخادم: لقد جاءت المركبة يا سيدي..

- أية مركبة ؟

المركبة التي أمرت بإعدادها..

آه .. نعم..

ولو رآه الخادم في تلك اللحظة لهاله انقلاب سحنته..

- وانقضت بضع دقائق في صمت مُطبق ثم سأل الخادم:

- ماذا أقول للسائق يا سيدي ؟

- قل له إنني سأحضر في الحال..



في قاعة المحكمة

وصل الأب «مادلين» إلى «أراس» في الساعة الثامنة مساء.. ولم يكن يعرف شوارعها ومسالكها.. فسأل أحد المارة: هل لك أن ترشدني إلى محكمة الجنايات ؟

فأجاب الرجل:

- سر معي فأرشـــدك إليها.. وإذا كان في نيتك أن تشـــهد المحاكمة فاعلم أنك جئت متأخرًا.. لأن المحكمة تغلق أبوابها في الساعة السادسة..

واجتاز به بعض شوارع المدينة.. ثم أومأ إلى دار المحكمة وقال:

ها هي يا سـيدي.. ولكنك حسـن الحظّ بغير شـك.. فالنور ينبعث من النوافذ ومعنى هذا أن المحاكمة مسـتمرة حتى الساعة..

وقصد الأب «مادلين» إلى الغرفة التي ينبعث النور من نوافذها.. ووجد أحد الحجّاب واقفًا ببابها..

سأله: ألا أستطيع الدخول ؟

فأجاب الحاجب: كلا.. فالقاعة غاصّة بالناظرين.. وليس فيها متّسع للمزيد..

ثم أردف بعد لحظة: ثَمَّة مقعدان خاليان خلف رئيس المحكمة.. ولكن لا يُسـمح لغير موظفي الحكومة بالجلوس فيهما..

فأطرق «مادلين» رأســه.. وبدت على وجهه علامات التفكير.. ثم أخرج من جيبه ورقة وقلمًا وكتب اســمه ووظيفته.. ودفع بالورقة إلى الحاجب وهو يقول:

أرجو أن تذهب بهذه الورقة إلى رئيس المحكمة..

فتناول الحاجب الورقة.. وألقى عليها نظرة سريعة ن وتوارى خلف الباب ! كان الأب «مادلين» يستمتع بشهرة لا يعرف مداها.. وكان رئيس المحكمة كغيره من أهل « أراس » قد سمع عنه الشيء الكثير.. فلما قرأ ا سمه على الرقعة سمح له بالدخول في الحال..

وعاد الحاجب إليه.. فوجده حيث تركه..

قال له: هل لسيدي أن يتبعني ؟

فتبعه «مادلين» إلى غرفة فسيحة في وسطها مائدة مستطيلة.. تحيط بها طائفة من المقاعد.. وعلى المائدة مصباح زيتيّ ترسل نبالته ضوءًا ضعيفًا ممتقعًا قال الحاجب:

- هذه هي غرفة المشورة يا سيدي.. وهذا الباب يؤدّي إلى قاعة الجلسة..

وأومأ بإصبعه إلى باب ركن الغرفة.. وتركه وانصرف..

وبقي «مادلين» وحده في الغرفة.. حاول أن يجمع شتات أفكاره ولم يوفق.. فقد جرت العادة أن يضل عقل الإنسان حين يكون الإنسان في أشدّ الحاجة إلى التفكير السليم..

أرسل بصره إلى الباب الذي يفصل بينه وبين قاعة الجلية.. وتصبّب العرق على جبينه..

نظر إلى الباب كما ينظر الحمل إلى عين الذئب.. ولو أصغى لَسمع جلبةً شديدة منبعثة من القاعة المجاورة.. ولكنه لم يصغِ ولم يسمع..

وفجأة.. تقدّم من الباب.. وفتحه.. ودخل..

لم يشعر جالس بين شرطيين عن يسار رئيس المحكمة..

كان ذلك الرجل هو ضالّته لم يبحث عنه.. بل ذهب إليه بصره بالفطرة كأنه كان يعرف سلفًا أين يجده.. خيّل إليه أنه يرى نفسه مع اختلاف بسيط في الملامح.. أما المظهر والثياب فكمظهره وثيابه يوم دخل مدينة «برينول».. وفي قرارة نفسه ذلك الكنز المقيت من الكراهة التي نمت وترعرعت خلال تسعة عشر عامًا قضاها في الليمان..

قال لنفسه وهو يرتجف: يا إلهي.. هل أصبح هكذا مرة أخرى ؟

كان المتهم يناهز الستين من عمره وعلى وجهه المتجعد مسحة من الذهول والبلادة والغباوة..

وكان رئيس المحكمة قد شعر بالباب حين فُتح فحوّل رأسه.. ورأى القادم.. وأدرك أنه عمدة «مونفورميل».. فحيّاه بإحناء رأسه..

وكذلك حيّاه المدعي العمومي.. وكان قد قابله مرارًا في مونفروميل حين ذهب إليها بحكم وظيفته..

وجلس الأب «مادلين» على مقعد خلف رئيس المحكمة.. ووجد نفسه ينظر إلى قاضٍ وكاتب وشرطة وعدد لا يُحصى من الوجوه..

ولقد رأى كل ذلك قبلاً.. منذ سبعة وعشرين عامًا..

وهكذا.. بدأ الماضي يُبعثُ من مرقده..

كان المحامي يتكلّم ويحاول دفع التهمة عن المتهم فأثبت أن جريمة السرقة لم تثبت ماديًا وأن أحدًا لم يرَ المتهم حين تسلَق الشجرة وانتزع غصت التفاح.. وقد ضبط الغصن معه.. ولكنه أقرّ أنه عثر به ملقى على الأرض فتناوله فأين إذًا الدليل على انه سارق ؟

وعبَّر الدفاع عن أسفه لأن المتهم ينكر أنه «جان فالجان».. ويصرّ على الإنكار رغم شهادة الشهود الأربعة وكان أحرى به أن يعترف بما لا يمكن إنكاره لكي يحظى برحمة القاضي..

ومضى المحامي في دفاعه فقال: إذا سلّمنا بأنه «جان فالجان».. فكيف يقوم ذلك دليلاً على أنه سرق غصن التفاح ؟

ثم تكلم عن شخصية المتّهم.. وقال إنه نصح له أن يعترف بحقيقة أمره ولكنه رفض.. وكان مخطئًا.. فهلاّ تشفع له حالتُه العقلية في هذا الخطأ ؟

إن مظاهر البلاهة بادية عليه.. فقد مكث في شقاء الليمان تسعة عشر عامًا.. كانت كافية لأن تعصف بقواه العقلية.. وليس أدلّ على سفاهته وفساد تفكيره من إصراره العجيب على إنكار اسمه وشخصيّته.. ولكنه على كل حال جدير بالشفقة والرحمة .

ثم تكلم المدعي العمومي.. فشكر للدفاع إتصافه وسلامة تقديره وسجّل عليه تسليمه بأن المتهم هو «جان فالجان» ثم سأله: ومن هو «جان فالجان» هذا ؟ وأجاب عن هذا السؤال فوصف «جان فالجان» بأنه وحش في صورة إنسان.. ومجرم ذو سوابق لم يصلحْه الليمان وأسهب في وصف جرائمه وذكر كيف اغتصب نقود الغلام جرفيه ثم سأل: أيّة رحمة يستحقّها رجل كهذا أقدم على هذه الجرائم وضُبط متلبسًا بالسرقة ثم هو بعد ذلك ينكر جرائمه وينكر سرقاته.. بل ينكر اسمه وشخصيته ؟ إن هناك مائة دليل ودليل على أنه «جان فالجان».. وهناك أربعة شهود يقرّون أنه «جان فالجان» وهو مع ذلك ينكر.. ويصرّ على الإنكار ظنًا منه أن الإنكار يمحو شخصيّته ويمحو مضيه ويمحو جريمته !

وكان المتهم يصغي إلى مرافعة المدّعي العمومي.. وهو مفتوح الفم وعلى وجهه علامات الدهشة المقرونة بالبلاهة الشديدة..

وفي بعض الأحيان كان يهزّ رأسه ذات اليمين وذات اليسار على سبيل الاحتجاج الصامت.. ولكنه لم يحاول الكلام..

ولفت المدعي العمومي نظر المحلّفين إلى حركات المتهّم والغباوة بقدر ما يدلّ على المكر والدهاء.. والرغبة في تضليل العدالة..

وختم المدعي مرافعته بأنه يحتفظ بقضية جرفية ويطالب بتشديد العقوبة على المتهم..

ونهض الدفاع.. فهنأ المدّعي العمومي على مرافعته البارعة.. وردّ في كثير من الفتور على قليل من نقط الاتهام..

وحان وقت الفصـل في أمر المتهم فتحوّل إليه الرئيس.. وطلب إليه أن يصـغى بانتباه وأردف: إنك في مركز دقيق حقيق بالتفكير.. وأدلة الاتهام وا ضحة ساحقة.. ولكني أطلب للمرة الخيرة أن تجيب في صراحة عن هذين الـسؤالين: هل تسلَّقت الشجرة وقطعت غصن التفاح ؟ وهل أنت «جان فالجان» ؟

فهز المتهم رأسه ببطء .. ثم فتح فمه وتكلّم فقال:

- أما السؤال الأول.. وهزَّ رأسه مرة أخرى ونظر إلى قبعته.. وكان ممسكًا بها.. ثم نظر إلى سقف القاعة.. ثم عاد إلى الصمت..

فقال المدعي العمومي بلهجة صارمة:

- أيّها المتّهم.. إنك مضـطرب تسـتطيع الإجابة عن الأسـئلة التي تُطرح عليك .. واضـطرابك هذا يدينك وصـمتك يفضحك..

ما لا شك فيه أن اسمك هو «جان فالجان» وليس شانماوتيو.. وأنك ولدت في فافيرول.. وكنت تشتغل بالتحطيب..

ومما لا شـك فيه كذلك أنك تسـلَّقت الشـجرة وقطعت الغصـن وأردت أن تفرَّ به وهذه كلها حقائق.. ليس في استطاعتك أن تنكرها.. وليس في استطاعة السادة المحلّفين أن يغفلوها..

وكان المتهم قد جلس.. فما إن فرغ المعدي العمومي من كلامه حتى وثب من مكانه بسرعة وهتف:

إنك رجل شرير.. هذا كل ما أردت أن أقوله فخانني التعبير..

إنني لم أسرق شـيئًا.. وقد وجدت الغصـن ملقى على الأرض فالتقطته ولم يُدرْ بخَلدي أنه سـيجلب على كل هذه المتاعب.. لقد قضـيت في السـجن ثلاثة أشـهر ولا أدري لماذا وسـمعتك تحمل عليّ الآن ولا أعلم لماذا وهذا الشرـطي الواقف بجانبي يضرـبني بمِفقه بين الحين والحين ويقول لي: « لماذا لا تجيب ؟ » ولكني لا أسـتطيع التعبير عما يدور بخلدي.. لأنني لم أتلقَّ العلم في المدرسة وما أنا إلا رجل فقير..

إنني لم أسرق.. ولقد التقطت شيئًا وجدته ملقى على الأرض..

أما «جان فالجان» الذي تحدثني عنه فإنني لا أعرفه وأما اسمي فهو شانماتيو..

وإنّ من البراعة حقًا أن تذكر لي أين ولدت.. لأنني لا أعرف أين ولدت ولا أعلم عن أبويّ إلا أنهما كانا يجوبان الآفاق.. ويضربان في الأرض على غير هدى..

وقد ذهبت إلى فافيرول في أحد الأيام.. ولكن ألا يسـتطيع الإنسـان أن يذهب إلى فافيرول دون أن يذهب إلى الليمان ؟

أنا أؤكد لك أنني لم أسرق.. وأن اسـمي شـانماتيو.. ولكني واثق من أنك سـتّمضي في مضـايقتي.. ولسـت أدري في الحق لماذا يتّخذني الجميع هدفًا لغضبهم ونقمتهم .

فصاح المدَعي العمومي: إن دفاع المتهم.. وعباراته الملتوية التي تنطوي على إنكار صريح.. ورغبة أكيدة في تضليل العدالة.. وإيقاع الشـك في نفوس المحلفين.. والتظاهر بالبلاهة والسَّـفه.. تضـطرني أن أرجو سـيدي الرئيس في دعوة شهود الإثبات ومناقشتهم مرة أخرى للتحقق من شخصية المتهم وإزالة كل شك من نفوس المحلفين..

فقال الرئيس: يجب أن ألفت نظر الاتهام إلى أن الشـــاهد الرابع.. وهو المفتش «جافير».. قد انصرــف عقب أداء الشهادة.. لمباشرة بعض واجبات وظيفته في إحدى القرى المجاورة..

فقال المدعي العمومي: إذًا فبحسـبي أن ألفت أنظار حضرـة المحلفين إلى الأقوال التي أدلى بها لي المفتش في هذه المحكمة منذ بضـع سـاعات.. فقد أكد أنه يعرف المتهم.. وأنه رآه في ليمان طولون.. حيث قضى تسـعة عشرـ عامًا بتهمة السطو.. ومحاولة الفرار.. ووصفه بأنه رجل شرير.. عنيف الخلق.. مطبوع على الإجرام.. وقال إن هناك جريمة أخرى منسـوبة إليه فضـلاً عن سرقة التفاح.. وتلك هي جريمة اغتصـاب قطعة نقود من غلام صـغير يُدعى جرفيه.. ويظن كذلك أنه سرق بعض الأمتعة من منزل أسقف كريم في «برينول»..

وقد تركت هذه العبارات الـ صريحة أثرها العميق في نفوس الـ سامعين فنظروا إلى المتهم نظرتهم إلى رجل كُتب له الضياع..

ثم طلب الاتهام دعوة الشـــهود الثلاثة الآخرين.. فأصـــدر الرئيس أمره إلى الحجاب.. وما هي إلا لحظة حتى فُتح باب غرفة الشهود.. ودخل الشاهد الأول ، وهو رجل في الستين من عمره يُدعى بريفيه..

قال له الرئيس: إنك لا تسـتطيع أن تحلف اليمين القانونية يا بريفيه لأنك اسـتهدفت في ما مضىـ لعقوبة جردتك من اعتبارك..

فأطرق الشـاهد رأسـه.. واسـتطرد الرئيس: ولكني أعتقد أن الله قد وهب كل إنسـان ـــــ حتى ذلك الذي جرده القانون من اعتباره ـــــ بقية من الشعور بالشرف والإنصاف.. وإني أستنجد فيك هذا الشعور في هذا الموقف الدقيق.. ولا حرج عليك أن تعدل عن شـــهادتك إذا خامرك شـــك في أنك أخطأت.. أيها المتهم قف.. وأنت يا بريفيه.. انظر إلى المتهم وأنبئنا.. أما زلت تعرف فيه زميلك في الليمان المدعو «جان فالجان»؟!

فنظر بريفيه إلى المتهم.. ثم تحول إلى الرئيس وأجاب:

نعم يا سـيدي.. وكنت أول من عرفه.. فهذا الرجل هو «جان فالجان» الذي قضىـ في ليمان طولون تسـعة عشرـ عامًا.. وهو يتظاهر الآن بالبلاهة.. ولكنه كان في الليمان داهية ماكرًا..

وجيء بالشاهد الثاني.. ويُدعى شنيلديو.. فدخل القاعة وهو في ثياب السجن.. كان وما يزال من نزلاء الليمان..

وتحدث إليه الرئيس كما تحدث إلى بريفيه.. وأوصاه أن يفكر ويحاسب نفسه.. ثم طلب إليه أن يقول ما عنده.. فقال الشاهد:

نعم.. إنني أعرفه.. وكيف لا أعرفه حقَّ المعرفة وقد كنا مشدودين إلى سلسلة واحدة؟!

وجيء بالشاهد الثالث ويدعى كوشباي.. وقد كان كذلك من نزلاء الليمان.. فهو من أولئك التعساء الذين صبتهم الطبيعة في قالب الوحوش وتركت للمجتمع أن يصنع لهم الأقفاص..

وسـأله الرئيس عما إذا كان يصر على شـهادته الأولى.. فأجاب بالإيجاب في غير تردد وقال: نعم.. هذا الرجل هو «جان فالجان».. وكنا نلقبه بالرافعة.. نظرًا لقوته الهائلة..

وهكذا دقَّ الشـهود آخر مسـمار في تابوت المتهم.. وقد أصـغى المتهم إلى أقوالهم في دهشـة بيّنة.. حتى سـأله الرئيس بقوله:

هل سمعت أيها المتهم؟ هل لديك ما تريد أن تقوله ؟

فأجاب: أقول إن هذا كله عظيم..

فانفجر بعض النظارة ضاحكين.. لم يكن ثمة شك في ضياع الرجل

وفي هذه اللحظة حدثت حركة بالقرب من رئيس الجلسـة.. وقال قائلٌ بصـوت واضـح وجليّ: بريفيه! شـنيلديو! كوشباي! انظروا هنا!

ومرت رعدة في أجساد الذين سمعوا هذا الصوت..

كانت نبراته مؤلمة مخيفة..

وتحولت جميع الأبصار إلى مصدره.. ورأت رجلاً واقفًا وراء الرئيس في المكان الذي يخصصونه للنظارة الممتازين..

وهتف الرئيس والمدعي العمومي وعشرات ممن يعرفون عمدة «مونفورميل»:

الأب «مادلين»..

نعم. كان المتكلم هو الأب «مادلين».. وقد برز في أشعة الضوء المنبعث من المصباح..

كان مرتب الثياب كالعادة.. ولكنه شديد شحوب الوجه.. وقد استحال شعر رأسه الذي كان سنجابيًا في الصباح إلى كتلة بيضاء كالثلج..

حدث هذا التحول خلال الساعة التي قضاها في قاعة الجلسة..

وسادت في القاعة جلبة أعقبها صمت عميق.. وحبس الناس أنفاسهم.. وانتظروا بأعصاب توشك أن تنفصم..

لم يصـدق أحدهم أن هذا الرجل الهادئ هو صـاحب ذلك الصـوت المؤلم الذي رن في جنبات القاعة منذ لحظة.. وقبل أن يتمكن رئيس الجلســة والمدعي العمومي من الكلام.. وقبل أن يأتي الحراس والحجاب بحركة.. اقترب من الشهود الثلاثة.. ذلك الرجل الذي عرفه الجميع حتى الآن باسم «مادلين» وسألهم: ألا تعرفونني؟

فذهل الثلاثة وهزوا رؤوسهم سلبًا..

وتحول «مادلين» إلى المحلفين.. وقال بصوت رقيق:

أيها السادة المحلفون: أطلقوا سراح المتهم.. يا سيدي الرئيس.. مُر بالقبض عليّ.. إن الرجل الذي تبحثون عنه ليس هو هذا المتهم.. ولكنه أنا.. أنا «جان فالجان»..

وخُيّل كأن قاعة الجلسة قد استحالت إلى ركن في مدينة الموتى.. فلا حس ولا حركة ولا صوت.. بل لا نفس يتردد.. فقد شــعر الجميع بذلك الذعر المقدس الذي يســتولي على قلوب الجماهير حين تقع أبصــارهم على شيء لا تدركه عقولهم..

وكان رئيس الجلسة أوّل من مَلَكَ نفسه.. فارتسمت على وجهه آية من آيات الحزن والشفقة.. وتبادل مع المدعي العمومي نظرة سريعة.. وبضع كلمات في همس .

ثم تحول إلى النظارة.. وسأل بلهجة فهم الجميع مغزاها: أليس بينكم طبيب؟

وقال المدعي العمومي: أيها الســادة المحلفون.. إن هذه المفاجأة العجيبة التي عطلت المحاكمة قد بعثت في نفوســنا شــعورًا لا حاجة بنا إلى التعبير عنه.. فكلكم تعرفون.. ولو ســماعًا.. مســيو «مادلين» المحترم.. عمدة «مونفورميل».. فإذا كان في القاعة طبيب فإننا نضم أصواتنا إلى صوت الرئيس ونرجوه أ.. يشرف على مرافقة مسيو «مادلين» إلى منزله.

ولكن الأب «مادلين» تحوّل إليه.. وقال بلطف:

شــكرًا لك يا ســيدي.. ولكني لســت مجنونًا وســأثبت ذلك في الحال.. إنني أؤدي واجبي.. فأنا الســجين موضــع المناقشة في هذه القضية.. وفي استطاعتكم أن تلقوا القبض علي.. فإنني لم أقل غير الحقيقة والله شاهد على ما أفعل وأقول . إنني توارثت تحت اسم مستعار.. وصرت غنيًا.. وأصبحت عمدة.. وكنت أري أن أعيش شريفًا بين الشرفاء.. ولكن يخيل إليّ أن ذلك مســتحيل.. توجد أشــياء كثيرة لا أســتطيع أن أبوح بها.. لأنها تنصــب على حياتي الخاصــة.. ولكني أقول لكم إنني سرقت الأســقف حقًا.. وســطوت على نقود جرفيه.. وقد صــدقوا حين قالوا لكم إن «جان فالجان» مجرم خطر.. اصغوا إليّ أيها السادة.. إن رجلاً انحدر إلى قرارة الهوة الموحلة التي انحدرت إليها لا حقَّ له في أن يُســدي النصــائح إلى المجتمع.. ولكني أقول لكم إن الســجون تخلق المجرمين.. لقد دخلت ليمان طولون فلاحًا مسكينًا ساذجًا قليل الذكاء.. فجعل الليمان مني رجلاً آخر..

كنت غبيًا.. فأصبحت شريرًا.. وقتلت القسوة في نفسي ـ كل ما هو شريف ونبيل.. إلى أن حدث حادث ردني إلى سواء السبيل.. ولكن معذرة فإنكم لا تستطيعون أن تفهموا كل كلامي .. بيد أنكم ستجدون في منزلي قطعة النقود التي سرقتها من جرفيه منذ ثمانية أعوام.. وليس عندي ما أقول أكثر من ذلك.. فألقوا القبض عليّ. يا إلهي.. إن المدعي العمومي يهز رأسه.. ولعله يقول لنفسه إن الأب «مادلين» قد جُنّ.. ولكن هذا كثير.. أطلقوا سراح هذا الرجل على الأقل.. كيف هذا.. ألا يعرفني هؤلاء الشهود.. ليت «جافير» كان موجودًا.. لكان عرفني في الحال..

وتحوّل «مادلين» إلى الشهود الثلاثة وقال: ولكني أعرفكم.. ألا تذكرني يا بريفيه؟

وتردد قليلاً ثم أردف: ألا تذكر الشق الذي أحدثتُه في قيودك في أحد الأيام.. تمهيدًا للفرار ؟ فنظر إليه بريفيه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه في ذعر وهلع..

واستطرد «مادلين»: وأنت يا شنيلديو.. ألم تحترق كتفك اليمنى في أحد الأيام؟ أجبني..

فأجاب الشاهد: هذا صحيح..

وأنت يا كوشباي.. ألم تكتب بالوشم الأخضر ـ على ساعدك الأيسر ـ تاريخ عودة الإمبراطور نابليون؟ أكشف عن ساعدك..

فكشف كوشباي عن ساعده.. ورأى القوم ذلك التاريخ موشومًا عليه..

وعندئذ تحوّل «مادلين» إلى النظارة ثم إلى المحلفين.. وارتسمت على شفتيه ابتسامة تركت أثرًا دائمًا في نفوس جميع الذين رأوها..

كانت ابتسامة فوز.. ولكنها كانت كذلك ابتسامة يأس..

قال: هل اقتنعتم بأنني «جان فالجان»؟

وفي هذه اللحظة.. لم يكن في القاعة قضاة ومحلفون.. ونظارة وشرطة..

كانت هناك فقط عيون تحملق.. وصدور ترتفع وتهبط..

قال «جان فالجان»: ليس في نيتي أن أشغل المحكمة بأمري أكثر من ذلك: ما دامت المحكمة لم تأمر بالقبض عليّ.. فإنني سأنصرف الآن لتصفية بعض الشؤون.. والمدعي العمومي يعرفني ويعرف المكان الذي سأذهب إليه.. وله متى شاء أن يأمر بإلقاء القبض عليّ..

ومشي إلى الباب.. فلم يرتفع صوت.. ولم يمتد يد لمنعه..

جمد القوم جميعًا في مقاعدهم.. فقد كان الموقف من نوع تلك المواقف العظيمة النبيلة التي تحمل الجموع على الانكماش.. وإفساح السبيل لرجل واحد !

ولما وصل إلى الباب.. تحول إلى النظارة.. وقال:

لعلكم جميعًا ترونني جديرًا بالشـــفقة.. يا إلهي! كلما فكرت في ما كان بمقدوري أن أفعله.. خيّل إلي أنني جدير بالحسد !

ومهما يكن الأمر.. فإنني كنت أفضل لو أن شيئًا من كل ذلك لم يحدث..



الغريمان

ابنثق الفجر..

وكانت «فانتين» قد قضت ليلة مسهدة محمومة.. ثم استغرقت قبيل الصبح في ما يشبه الإغماء.. فانتهزت الراهبة «سمبليس» هذه الفرصة وتسللت إلى الغرفة المجاورة.. لكي تعد جرعة أخرى من الدواء..

وفيما الراهبة في عملها بين القناني والعقاقير.. إذا بها ترى ظلام يحجب عنها ضـــوء المصـــباح.. فحولت رأســـها.. وأفلتت من بين شفتيها آهة دهشة..

كان الأب «مادلين» قد دخل دون أن تشعر به..

هتفت: أهذا أنت يا سيدي ؟

فأجابها بصوت خافت: كيف حال المرأة التعسة ؟

إنها قضــت ليلة هائلة.. ولكنها اطمأنت حين اســتفسرــت عن ســبب غيابك.. فقلت لها إنك ذهبت إلى بولانجيه لإحضار ابنتها..

وأدركت الراهبة من نظراته أنه لم يحضر الابنة فاستطردت:

ولكنها ستراك الآن يا سيدي.. ولا ترى ابنتها.. فماذا نقول لها؟

ففكر لحظة.. ثم قال: سوف يلهمنا الله ما يجب عمله..

وحانت من الراهبة نظرة إلى وجه «مادلين» وهتفت:

يا إلهي.. ماذا حدث لك يا سيدي.. لقد ابيض شعرك..

ماذا تقولين ؟

فقدمت إليه الراهبة مرآة صغيرة.. فتناولها وأطلّ فيها ونظر إلى شعر رأسه.. وقال: هذا صحيح..

قال ذلك بقلة اكتراث.. وبلهجة الرجل الذي يفكر في أمر آخر..

سأل: هل أستطيع أن أراها ؟ هل في نيتك أن تأتيها بابنتها يا سيدي ؟ طبعًا.. ولكن ذلك يستغرق يومين أو ثلاثة.. ربما كان من الخير ألا تراها قبل أن تأتيها بابنتها.. وبذلك تظل على اعتقادها بأنك لم تعد.. ويســـهل علينا إقناعها وتهدئتها.. ولا تكون بحاجة إلى الكذب..

ففكّر «مادلين» قليلاً ثم قال في هدوء:

كلا يا أختاه.. يجب أن أراها.. لأن الوقت ضيق..

في هذه الحالة تستطيع أن تذهب إليها يا سيدي.. ولو أنها نائمة..

فدخل إلى غرفة «فانتين».. وقصد إلى الفراش.. ورفع الكلة..

كانت «فانتين» نائمة.. وأنفاسها تضطرب في صدرها بصوت كالحشرجة.. وقد استحال اصفرارها إلى بياض..

وارتجفت أهدابها الطويلة الجميلة.. ذلك الأثر الوحيد الذي بقي لها من جمالها الغابر.. بل ارتجف جســدها كله كأن لها أجنحة توشك أن تمتد وتطير بها..

ووقف الأب «مادلين» أمام الفراش بغير حِراك.. وراح ينقل البصر بين المريضة وتمثال المسيح المصلوب كما فعل منذ شهرين.. يوم جاء لزيارتها للمرة الأولى..

كانا في الموقف نفسه.. هي نائمة.. وهو يبتهل.. ولكن في خلال الشهرين اللذين انقضيا بين الوقتين.. كان شعرها قد خطه الشيب.. وشعره قد استحال إلى كتلة من الثلج..

وفتحت «فانتين» عينيها.. وأبصرته.. وابتسمت في هدوء.. وقالت بابتسامة: و«كوزيت» ؟

نطقت بهذا الاسم بلهجة الثقة والإيمان والطمأنينة فلم يجد «مادلين» ما يقوله..

استطردت: لماذا لم تضعها في فراشي لكي أراها حالما أفتح عيني ؟

فتمتم بكلام غير مســموع وغير مفهوم.. ومن حســن الحظ أن الطبيب جاء في تلك الســاعة.. وكان «مادلين» قد أرسل في طلبه..

قال الطبيب: خففي عن نفسك يا ابنتي.. فطفلتك هنا..

فلمعت عينا «فانتين» وأشرق وجهها.. وضمت يديها بحركة تعبر عما تعبر عنه الصلاة من قوة وحرارة ودعة..

وهتفت: أواه.. احملها إليّ إذًا..

كانت لا تزال تتخيل «كوزيت» تُحملُ على السواعد..

قال الطبيب: صبرًا! صبرًا! ليس الآن.. إن منظر الطفلة يثيرك.. فيؤذيك.. يجب أن تبرأي من سقمك أولاً..

لقد برأتُ من سقمي.. قلت لك إنني برأت من سقمي ! إنني أصر على رؤية ابنتي..

فقال الطبيب : تأملي كم أنت مضطربة.. وكم أنت عنيفة! متى هدأت ثائرتك حملتها إليك بنفسي..

فسقط رأسها فوق صدرها وقالت: عفوًا يا سيدي الطبيب .. أنا لست غضبى.. فأنا أعلم تمامًا أنني سأكون سعيدة.. وقد رأيت الليلة في أحلامي أشياء كثيرة بيضاء ووجوهًا باسمة.. وفي استطاعة سيدي الطبيب أن يأتيني بابنتي «كوزيت» متى شاء.. فأنا لست محمومة.. إنني شفيت تمامًا.. ولكني سألزم الهدوء كما لو كنت مريضة.. حتى إذا رأيتني هادئة قلت «يجب أن أردّ إليها ابنتها»..

ثم التفتت إلى «مادلين».. وكان قد جلس على حافة فراشها.. وراحت تلقي عليه عشرات الأسئلة: هل كنت موفقًا في رحلتك يا سيدي؟ ما أكرمك إذا تجشمت متاعب السفر من أجلي؟ فقط أخبرني كيف حال «كوزيت»؟ هل احتملت عناء السفر؟ وا أسفاه لا شك أنها لم تعرفني.. لا شك أنها نسيتني خلال هذه السنوات الطويلة.. فيا للمسكينة.. هل وجدتَ ثيابها نظيفة؟ هل كانت مدام «تيناردييه» تُعنى بها؟ أواه.. كم أود أ.. أراها.. ألم ترَ كيف هي جميلة يا سيدي ؟ ألا يمكن إحضارها هنا.. ولو دقيقة واحدة؟ في استطاعتك أن تأتي بها متى شئتَ لأنك العمدة هنا.

فتناول يدها بين يديه.. وأجاب:

إن «كوزيت» جميلة.. وهي بخير حال.. وسترينها بأسرع ما يمكن.. فقط هدئي من روعك.. إنك تتكلمين بحدة.. والانفعال يؤذيك.. وينشط نوبة السعال..

لكنها أخذت تسعل بشدة.. ثم لزمت الصمت لكي توهم القوم أنها غير منفعلة.. وغير مريضة.. فيحملوا إليها ابنتها..

وظل «مادلين» ممسكًا بيدها وراح ينظر إليها بقلق..

لم يكن هناك شك في أنه جاء ليقول لها شيئًا.. ثم غلب عليه التردد..

وكان الطبيب قد انصرف.. فلم يبق بالقرب منهما سوى الراهبة سميليس..

وفجأة أومأت «فانتين» بيدها تطلب الصمت وهتفت:

إنني أسمع صوتها.. إني أسمع صوتها..

وحبست أنفاسها.. وأرهفت أذنيها.. وأصغت.. سمعت صوت طفلة تلهو أمام المنزل .. ولعلها كانت ابنة أحد العمال..

كانت المصادفة من نوع تلك المصادفات الخفية التي تسوقها الأقدار في الوقت المناسب لتخلق بها جو المآسي في هذه الحياة..

كانت الطفلة تعدو في الشارع لتدفئ جسمها.. وهي تضحك بصوت مرتفع..

صاحت «فانتين»: إنها «كوزيت».. لقد عرفتُ صوتها.. إنها ..

وصمتت.. وكان صمتها فجائيًا.. فرفع «مادلين» رأسه.. ونظر إليها..

وجد أنها كفت عن التنفس.. وقد انقلبت سحنتها انقلابًا مخيفًا وارتسمت في عينيها نظرة ثابتة يخالطها ذعر لا يوصف..

صاح: يا إلهي ! ماذا دهاك يا «فانتين» ؟

فلم تجبه ولم تحول عينيها عن الشيء الذي كانت تنظر إليه.. فقد مست ساعدها بيدها.. وأومأت إليه أن ينظر إلى الوراء.. ففعل.. ورأى «جافير»..

أما ما حدث في محكمة أراس فهو أن الأب «مادلين» ما كاد يبرح قاعة الجلسة حتى أفاق المدعي العمومي من ذهوله.. فنهض واقفًا على قدميه.. وصرح بأن المفاجأة الغريبة التي حدثت لا تغير وجهة نظره بحال.. وعبر عن أسفه للنوبة العصبية الغريبة التي أصابت عمدة مورنفورميل المحترم.. ثم أصر على إدانة شانماتيو.. بصفته «جان فالجان»..

وكان إصراره يتعارض مع الشعور العام.. شعور الجمهور وشعور المحكمة وشعور المحلفين.. ولم يفوّت الدفاع هذه الفرصة.. ولم يجد صعوبة في التدليل على براءة المتهم بعد اعتراف الأب «مادلين»..

واختلى المحلفون.. وأصدروا حكمهم ببراءة المتهم..

على أن المدعي العمومي كان لا يزال يطلب إنسانًا باسم «جان فالجان»..

فلما أفلت شانماتيو من قبضته.. حول بصره إلى الأب «مادلين» وبعد مداولة قصيرة مع رئيس المحكمة أصدر أمره باعتقال عمدة «مونفورميل».. وأرسل الأمر إلى المفتش «جافير» لإنفاذه..

وقد كان من المتعذر على الذين رأوا المفتش «جافير» حين دخل غرفة «فانتين» أن يشعروا بما يعتمل في نفسه.. فقد كان الرجل هادئًا رزينًا كالعهد به دائمًا.. ولم يلاحظ عليه الجنود الأربعة الذين رافقوه إلى منزل العمدة ورابطوا ببابه أنه أوسع الخطى أو أبدل مشيته المتئدة الرزينة..

ووقع بصر خادم «مادلين» على «جافير» ورجال الشرطة.. ولم يخامره شك فقد اعتاد رجال الشرطة زيارة العمدة لأعمال تتصل بمهام وظيفته..

ووصل «جافير» إلى غرفة «فانتين».. وفتح الباب بخفة الممرضة أو خفّة الجاسوس.. ووقف وقبعته على رأسه.. ويده مدفونة في صدر معطفه..

والتقت عينا «مادلين» بعيني «جافير».. ولم يأتِ المفتش بحركة.. ولم تتقلص عضــلة واحدة من عضــلات وجهه.. ولكن الكراهية التي تعتمل في أعماقه طفت على وجهه كما يطفو الكدر فوق سطح الماء.. فتركت على ملامحه مسحة مخيفة.. جعلته أقرب إلى الأبالسة منه إلى الآدميين..

ولم تكن «فانتين» قد رأت «جافير» منذ خلصها العمدة من قبضته.. فصوّر لها عقلها السقيم أنه جاء لإلقاء القبض عليها .

لم تقو على رؤية سحنته المخيفة.. فدفنت وجهها بين كفيها وصاحت في ألم: أنقذني يا مسيو «مادلين»..

فنهض «جان فالجان».. ولن ندعوه بعد الآن هذا الاســم.. وقال للمرأة في رقة ولطف: لا تنزعجي.. إنه لم يأتِ في طلبك..

ثم تحول إلى «جافير» وقال: إنني أعرف ما تريد..

فأجاب «جافير»: هلم وأسرع..

كان في نبرات صوتِه شيء وحشي.. ولم ينتظر الجواب بل تقدم خطوة أخرى واستطرد.. ألا تأتي ؟

فأجالت «فانتين» البصر حولها..

لم يكن في الغرفة سوى الراهبة والعمدة.. فإلى من يتحدث «جافير» إذًا بهذه اللهجة المهينة ؟ وصوَّر لها الوهم أن «جافير» يوجه إليها هذا الكلام.. ومرت في جســدها رعدة قوية.. ولكنها ما لبثت أن رأت شــيئًا عجيبًا.. شــيئًا لم تر أعجب منه في أسوأ أحلامها.. رأت «جافير» يقبض على عنق العمدة.. ورأت العمدة يطرق رأسه..

خُيّل إليها أن نهاية العالم قد دنت..

صاحت: سيدي العمدة !

فضحك «جافير» ضحكة مخيفة كشفت عن جميع أسنانه.. وقال: لا يوجد عمدة هنا.. ولم يحاول «جان فالجان» التخلص من اليد التي تقبض على عنقه..

قال: يا «جافير»..

ولكن المفتش قاطعه بقوله: «قل يا سيدي المفتش»..

فقال «جان فالجان»: أودّ أن أتحدث إليك على انفراد يا سيدي..

فأجاب «جافير»: تكلم.. إن الناس يتحدثون إليّ بصوت مرتفع..

إن لي رجاء لا يجب أن يسمعه سواك..

وماذا يهمني رجاؤك ؟

فقال «جان فالجان» بسرعة.. وبصوت شديد الخفوت:

أمهلني ثلاثة أيام.. ثلاثة أيام فقط لأحضر ابنة هذه المرأة التعسة.. إنني على استعداد لأن أدفع أي مبلغ تريده.. وفي استطاعتك أن ترافقني إذا شئت..

فصاح «جافير»: أنت تهزل بغير شك.. في الحق لم يخطر لي قط أنك على مثل هذه البلاهة.. هل تريدني أن أمهلك ثلاثة أيام لكي تلوذ بالفرار ؟ تريد أن تذهب لإحضار ابنة هذه المرأة ؟ ما أوسع حيلتك.. وأخصب خيالك!

وارتجفت «فانتين» وهتفت: ابنتي ! لإحضار ابنتي! وإذًا فهي ليست هنا.. أجيبيني أيتها الراهبة.. أجيبيني أيتها الأخت.. أين «كوزيت»؟ إنني أريد ابنتي يا سيدي العمدة..

فضرب «جافير» الأرض بقدمه وصاح: ألا تكفين عن الثرثرة أيتها المرأة؟ ما أعجب بلدًا عُمْدَتُه من المجرمين وبغاياه يُخدَمْنَ ويُعنى بهن كالنبيلات! ولكن الأوان قد آن لتغيير ذلك كله..

ونظر إلى «فانتين» واستطرد وهو يضيق الخناق على «جان فالجان»:

لا يوجد هنا مسيو «مادلين».. ولا يوجد عمدة.. وإنما يوجد لص وقاطع طريق وسجين سابق يُدعى «جان فالجان»..

فنهضت «فانتين» من مرقدها.. ونظرت إلى «جان فالجان».. ونظرت إلى «جافير».. ثم نظرت إلى الراهبة.. وفتحت فمها كأنها تريد الكلام.. ولكن لم ينبعث من بين شفتيها سوى حشرجة خشنة..

وا صطكت أ سنانها.. وانبسطت أ صابع يديها.. ثم انقبضت.. و سقط رأ سها فجأة على الو سادة.. وبقيت كذلك مفتوحة العينين والفم..

ومد «جان فالجان» يده إلى اليد الممسكة بخناقه ورفعها كما لو كانت يد طفل.. وقال محدثًا «جافير»: إنك قتلت هذه المرأة..

فصاح «جافير» في غضب: كفىَ! كفى! إنني لم أجيء الآن لكي أصغى إلى هذا الإسفاف .. فوفر على نفسك الكلام.. إن رجال الشرطة في انتظارك بالباب.. فهلم بنا وإلا اضطررت إلى تصفيد يديك..

وكان في ركن الغرفة فراش قديم اعتادت الراهبتان أن ترقدا فيه كلما أنهكهما السهر. فمشيـ «جان فالجان» إلى هذا الفراش ومد يده القوية وانتزع إحدى قوائمه ونظر إلى «جافير».. فتراجع مفتش الشرطة حتى التصق بالباب..

ومشيـ «جان فالجان» ببطء.. والقائمة الحديدية ما تزال في يده.. إلى أن وقع بجانب الفراش وهناك أدار رأسه.. وقال بصوت خافت لا يكاد يُسمع: إنني أنصح لك بألا تزعجني في هذه اللحظة..

ومن المحقق أن «جافير» ارتجف من قمة رأسه إلى أخمص قدميه..

خطر له أن ينطلق فيدعو رجال الشرطة.. ولكنه خاف أن ينتهز «جان فالجان» هذه الفرصة ويلوذ بالفرار .

أما هذا الأخير.. فإنه أ سند مرفقيه على حافة الفراش.. وو ضع رأ سه بين كفيه.. وراح يتأمل «فانتين» وقد سكنت حركتها.. وألقى الموت على وجهها قناعًا ممتفعًا رهيبًا .. وظل يتأمل الجثة المسجاة وتقاطيع وجهه تعبر عن إشفاق لا وصف له.. ثم انحنى فوق «فانتين».. وتحدث إليها بصوت خافت..

ولم يسمع أحد حديث هذا الطريد إلى المرأة الميتة.. فتُرى هل سمعته المرأة ؟ قالت الأخت سمبليس فيما بعد أن «جان فالجان» ما كان يكف عن الكلام.. حتى تلاعبت ابتسامة عجيبة على شفتي «فانتين» وفي عينيها اللتين أذهلهما الموت..

وتناول «جان فالجان» رأس «فانتين» ووضعه على الوسادة كما تفعل الأم الثكلى برأس طفلها.. ثم زرّر قميصها بإحكام وأغمض عينيها..

وكانت إحدى يديها تتدلى من جانب الفراش.. فتناولها «جان فالجان» ورفعها إلى شفتيه..

ونهض واقفًا بعد ذلك.. وتحول إلى «جافير» وقال له:

أنا الآن رهن إشارتك..

وأُلقي «جان فالجان» في سجن المدينة.. وأحدث نبأ القبض عليه ضجة عجيبة.. ولكن ما يؤسف له أن جميع الناس أنكروه وتنكروا له حين علموا أنه كان في أحد الأيام من نزلاء الليمان.. فما هي إلا ساعة أو بعض ساعة حتى نسي الناس كل ما قدم من خير.. ولم يذكروا من أمره إلا أنه سجين سابق..

وهكذا تلاشى الشبح الذي عرفه الناس باسم «مادلين».. وأُغلق المصنع وأُقفر الشارع.. ولم يبقَ في منزله مساء ذلك اليوم.. سوى خادمته العجوز والراهبتين الساهرتين على جثة «فانتين»..

وقد ذهلت الخادمة ورفض عقلها أن تصدق شيئًا مما حدث..

فلما كان المساء.. حملت المصباح إلى غرفة الأب «مادلين» كما اعتادت أن تفعل..

غير أنها ما كادت تدخل الغرفة.. حتى رأت يدًا تدفع النافذة من الخارج.. ثم أبصرت الأب «مادلين» يثب منها..

وعقد الخوف لسانها لحظة.. ثم هتفت: يا إلهي! يا سيدي العمدة.. كنت ظن أنك..

فقاطعها: إنني في الســجن! إنني كنت هناك حقًا.. ولكني انتزعتُ أحد قضــبان النافذة.. ووثبت منها.. وهآنذا.. ابعثي إليّ بالأخت سميليس.. ستجدينها حتمًا في غرفة تلك المرأة المسكينة .

وتناول الشمعدانين.. ولفهما في أحد أقمصته ثم جلس يكتب..

وفُتح الباب في هدوء.. ودخلت الراهبة سميليس..

كانت ممتقعة اللون.. محمرة العينين.. والشمعة ترتجف في يدها..

كانت في الصباح راهبة يعصمها الزهدُ والإيمان عن سائر الانفعالات التي تعصف بطمأنينة الإنسان في هذه الحياة الدنيا.. ثم جاءت أعاصير ذلك النهار فردتها امرأة تبكي وترتجف..

وكان «جان فالجان» قد فرغ من كتابة رسالته.. فدفعها إلى الراهبة وقال:

يا أختاه.. هل لك في أن تحملي هذه الرسالة إلى القسّ؟

ولم تكن الرسالة مغلقة.. فقلبتها الراهبة بين يديها..

قال «جان فالجان»: اقرأيها إذا شئت..

فقرأت فيها: «إنني أعهد إلى قس «مونفورميل» بكل ما أملك هنا.. وأرجوه أن يوزع على الفقراء كل ما يتخلف من ثروتي بعد نفقات دفن المرأة التي ماتت هذا الصباح»..

حاولت الراهبة أن تتكلم.. فعجزت.. ثم تمتمت بعد صمت قصير:

ألا تريد أن تلقي نظرة أخيرة على تلك المرأة التعسة؟!

فأجاب: كلا.. إنهم يطاردونني.. وإذا قُبض عليّ في غرفتها فقد تنزعج طمأنينتها..

وما كاد ينطق بهذه العبارة.. حتى سمع جلبة ووقع خطوات على السلم.. ثم سمع الخادمة وهي تصيح بصوت ثاقب: أقسم لك يا سيدي أن أحدًا لم يدخل المنزل هذه الليلة..

فقال صوت رجل: ولكني أرى ضوءًا في تلك الغرفة..

وعرف «جان فالجان» صوت «جافير»..

وكانت الغرفة مشــيدة بحيث إذا فتح بابها أخفى وراءه ركنًا ضــيقًا فأسرع «جان فالجان» إلى هذا الركن وتوارى فيه.. وخرّت الراهبة سمبليس على ركبتيها بجانب المائدة..

وفُتح الباب.. ودخل «جافير».. فلم ترفع إليه الراهبة عينيها.. كانت تصلي..

ورآها «جافير».. فجمد في مكانه.. واستولى عليه الارتباك..

كان مطبوعًا على احترام مصـادر السـلطة والنفوذ بأنواعها.. ويرى أن السـلطة الدينية أعلى السـلطات جميعًا.. فالراهب في نظره رجل طاهر لا يعرف الختل والخداع.. والراهبة في نظره مخلوقة طاهرة لا تكذب.. ولا تأثم .. فلما رأى الراهبة.. خطر له أن ينسحب ثم خطر له أن يبقى وأن يلقي سؤالاً واحدًا على الأقل..

ولم تكن الراهبة سمبليس قد كذبت في حياتها.. وقد كان «جافير» يعلم منها ذلك ويجلها من أجله..

سأل: هل أنت وحدك في هذه الغرفة يا أختاه ؟

فرفعت الراهبة رأسها وأجابت: نعم..

معذرة إذا ألححت في السؤال.. ولكن ألم يقع بصرك في هذا المساء على مجرم هارب يدعى «جان فالجان» ؟

فأجابت الراهبة: كلا..

وكذبت الراهبة مرتين بسرعة.. وبغير تردد..

فقال «جافير»: أرجو المعذرة إذًا..

وأحنى قامته باحترام.. وانصرف..

وبعد سـاعة.. كان رجل يشـق طريقه وسـط الضـباب في الطريق إلى باريس. وقال الذين أبصرـوه إنه كان يحمل حُزمة وعصا.. كان هذا الرجل هو «جان فالجان»..

والآن.. كلمة أخيرة عن «فانتين»..

إن لنا جميعًا أمًا واحدة هي الأرض.. وقد رُدّت «فانتين» إلى أمها..

وقد ظن القس أنه يؤدي واجبه على أكمل وجه إذ احتفظ لنفسه بأكبر قسط من المال الذي تركه «جان فالجان» للفقراء.. فعمد إلى تبسـيط إجراءات الدفن بقدر الإمكان.. ووارى جثمان «فانتين» في أحد أركان المقبرة العامة حيث توضـع أجداث الفقراء .



اعتقال فالجان

اعتُقل «جان فالجان» في باريس.. وأُعيد إلى الليمان.. ونورد فقرة عن اعتقاله نشرتها في ذلك العهد جريدة «جورنال دي باري»..

قالت الجريدة: «حوكم أخيراً أمام محكمة «فار» مجرم خطر يدعى «جان فالجان».. أُلقي القبض عليه في ظروف تلفت النظر.. فقد استطاع هذا الشقي.. أن يفلت من رقابة الشرطة.. وكان من الدهاء والبراعة بحيث عُين عمدة لإحدى مدن الشمال حيث ابتكر صناعة جديدة درّت عليه أرباحًا طائلة.. ولكن السلطات ذات الشأن ما لبثت أن أزالت النقاب عن وجهه وألقت القبض عليه.. وكان قد اتخذ لنفسه عشيقة.. هي فتاة من أهل المدينة.. وقد توفيت هذه الفتاة إثر نوبة أصابتها ساعة القبض عليه.. ويستمتع هذا الشقي بجسم المارد.. وقوة العمالقة.. وقد استطاع بفضل قدرته أن يفر من سجن المدينة.. ولكنه اعتُقل في باريس بعد ثلاثة أو أربعة أيام في اللحظة نفسها التي كان يهم فيها بركوب إحدى عربات البريد إلى مدينة بولانجيه..

والمؤكد أنه انتهز فرصة تلك الأيام الثلاثة أو الأربعة التي قضاها حرًا طليقًا.. فسحب من أحد المصارف الكبرى مبلغًا جسيمًا يتراوح بين ستمائة و سبعمائة ألف فرنك.. يقال إنه أخفاها في مكان لا يعرفه سواه.. و ضاعت سُدى جميع الجهود التي بذلت لاكتشافه..

«وقد حوكم «جان فالجان» أمام محكمة «فار» بجريمة سرقة ارتكبها منذ ثمانية أعوام وقضت عليه المحكمة بالسجن المؤبد.. وأرسل في الحال إلى ليمان طولون » .

وفي أحد أيام أكتوبر من ذلك العام.. نشرت إحدى صحف طولون النبأ التالي:

«غرق أمس أحد المسجونين الذين يشتغلون في ترميم السفينة أوريون.. وذلك أثناء محاولته العودة إلى السفينة بعد أن أنقذ أحد بحارتها من الغرق..

ولم يعثر على جثته.. والمظنون أنها غاصت تحت السفينة..

ورقم هذا السجين ٩٤٣٠ واسمه «جان فالجان» ».

في الحانة

آن لنا أن نطوف حول «تيناردييه» وزوجته وأن ننظر إليهما من جميع النواحي..

كان «تيناردييه» في الخمسين من عمره.. وكانت زوجته في الأربعين.. فالتوازن بين الزوجين حاصل في السن.. ولكنه مفقود فيما عدا ذلك..

كانت المرأة طويلة القامة.. عريضة المنكبين.. لها جسم الفيل وقوة الثور ونشاط المر.. فهي التي تنظف الحانة.. وترتب الأسرّة.. وهي التي تضــع الطعام وتغســـل الثياب وترتق الخرق الممزقة.. ولا مســـاعد لها في ذلك ســـوى «كوزيت»..

كانت إذا صــاحت اهتزّ ما حولها من أثاث وآدميين.. وإذا ســمعها الناس تتكلم قالوا هذا شرطي.. وإذا رأوا كيف تعامل «كوزيت» قالوا إنها جلاد..

أما الرجل فكان قصيراً هزيلاً صغير الجسم بارز العظام.. يخيل للناظر إليه أنه مريض وما هو بمريض.. ولكن ذلك سر دهائه وختله..

يسره أن ينادم زبائنه ويفاخر بأنه لا يثمل أبدًا.. وقد جعل شعاره تجريد الزبون من ماله بأية طريقة..

لذلك لم يكن عجيبًا أن تسوء حاله.. وأن تُربي ديونه على ألف وخمس مائة فرنك..

رفعت مدام «تيناردييه» غطاء آنية الماء وأطلت عليها.. فانكمشت «كوزيت» وارتجفت..

هذه الآنية قد علّمت الابنة المســـكينة أن تهتم وتكأب.. ولّما تبلغ الثامنة من عمرها.. فقد جعلت مدام «تيناردييه» من واجبات «كوزيت» أن تجلب الماء للحانة.. وجلب الماء للحانة معناه اجتياز مســافة شــاســعة في أية ساعة من ساعات الليل والنهار للوصول إلى عين الماء التي تستقي منها القرية..

نظرت مدام «تيناردييه» في آنية الماء.. فحبست «كوزيت» أنفاسها.. وساد الصمت لحظة كانت الفتاة في خلالها تتطلع إلى شفتي المرأة كما يتطلع المتهم إلى شفتي القاضي في انتظار الحكم..

وأخيراً هزت المرأة كتفها وقالت: هذا الماء يكفي..

فتنفست «كوزيت» الصعداء.. وعادت إلى عملها؛ ولكنها راحت تعد الدقائق بفروغ صبر في انتظار أن تسمح لها سيدتها أن تذهب لتنام..

وفجأة.. دخل أحد نزلاء الحانة وقال مزمجرًا: إن جوادي يحترق ظمأ ولم يقدم له أحد ما يروي ظمأ..

فقالت مدام «تيناردييه»: بل قدمنا له حاجته من الماء..

أؤكد لك أنه لم يتناول قطرة واحدة من الماء..

فتســللت «كوزيت» من تحت المائدة حيث كانت تتوارى لســتر جســدها الذي لا يســتره ثوبها المهلهل.. وقالت: نعم.. نعم.. إنني قدمت له الماء بنفسي.. وداعبته وربّتُ على عنقه الطويل.. وكانت كاذبة..

صاح الرجل: ها هي فتاة كالفأر تعرف كيف ترسل كذبة أضخم من الجبل إن الجواد لم يشرب على الإطلاق.. وإنه يتنفس بطريقة أعرفها كلما برح به الظمأ..

فأصرّت «كوزيت» على كذبها.. وقالت بصوت لا يكاد يسمع: بل إنه شرب كثيراً..

فقال الرجل بصوت أجش: كفي .كفى.. أريد ماء لجوادي.. وإلا رحلت به في الحال..

فنامت «كوزيت» تحت المائدة.. وترك هذا التهديد أثره الفعّال في نفس مداد تيناريبه.. فقالت: هذا هو الحق.. إذا كان الجودا ظمآن فمن الإنصاف أن يشرب..

ونظرت حولها واستطردت: أين ذهبت الشيطانة الصغيرة ؟!

فخرجت «كوزيت» من مخبئها كالفأر المبلل بالماء..

قالت المرأة: قدمي للجواد حاجته من الماء..

فأجابت «كوزيت» بصوت خافت: ولكن لا يوجد ماء يا سيدتي..

احملي الآنية وانطلقي بها إلى الينبوع..

فتناولت آنية أكبر منها حجمًا وسارت نحو الباب ببطء..

قالت المرأة: صبراً ! عرّجي في عودتك على حانوت الخباز وابتاعي رغيفًا.. إليك خمسة عشر سنتيمًا..

وألقت إليها قطعة النقود.. فوضعتها «كوزيت» في جيب مئزرها.. ووقفت في الباب لا تبدي حراكًا ولعلها كانت تأمل أن يأتي من ينقذها من هذه الورطة..

وأبصرتها المرأة فصرخت بصوت كالرعد: ألا تذهبين أيتها الأنسة ؟! فخرجت «كوزيت» وأغلقت الباب وراءها..

وقع بصرها أمام الحانة على حانوت لبيع الأطفال.. وكان الحانوت ما يزال مفتوحًا لأن الليلة هي ليلة عيد الميلاد..

وكان صاحب الحانوت قد وضع ببابه دمية كبيرة ترتدي ثوبًا درقيقًا مزركشًا.. لم تسنح لها الفرصة لمشاهداتها عن كثب..

كانت هذه الدمية موضع إعجاب أبناء سكان القرية جميعًا ممن تقل أعمارهم عن عشرة أعوام.. ولكن أحدًا منهم لم تكن عائلته من سعة فقال بحيث تستطيع إهداء هذه الدمية بمناسبة العيد..

ووقفت «كوزيت» ذاهلة أمام تلك الدمية البديعة.. وتأملت ثوبها الحريري وشعرها الناعم الطويل.. وقالت لنفسها: ما أسعد هذه الدمية !

وبينما كانت تملأ عينيها الواسعتين بجمال الدمية.. وقد ذهب بها الخيال كل مذهب إذ بها تسمع صوتًا يردها إلى الحقيقة.. كان صوت مدام «تيناردييه».. وقد أبصرت بها من النافذة..

صاحت: ألم تذهبي بعد أيتها الضفدعة القذرة ؟ صبراً حتى ألحق بك !

وأغلقت النافذة بعنف.. فأطلقت «كوزيت» ســـاقيها للريح.. وما زالت تعدو والآنية الكبيرة بين يديها حتى خرجت من القرية وتوغّلت في ظلام الحقول..

وكانت كلما ابتعدت عن القرية زاد إحســاســها بالوحشـــة.. وشــعورها برهبة الليل.. فراحت تنقر بأصــابعها على الآنية لتحدث صوتًا يؤنسها ويشد من عزيمتها..

انطلقت من القرية عدوًا.. أوغلت في الحقول عدوًا.. وأحست وهي تعدو برغبة شديدة في أن تصرخ وتستغيث..

لم تفكر .. ولم تكن ترى .. فقد احتوى الليل جسدها الصغير.. واحتلت ذهنها صورةٌ واحدة هي صورة تلك المرأة الجهنمية رابضة في انتظارها لتتهمها بالإبطاء وتشبعها ضربًا وركلاً..

انحنت وملأت الآنية بالماء.. ولم تشعر وهي تفعل ذلك بأن قطعة النقود انحدرت من جيب مئزرها.. وسقطت في الينبوع..

وأرادت أن تحمل الآنية الممتلئة فعجزت..

كان إسراعها قد أنهك قوّتها فتريثت قليلاً لتلتقط أنفاســها.. ثم حملت الآنية وســارت بها بضــع خطوات وتريثت مرة أخرى لتستريح..

وحملت الآنية للمرة الثالثة ومشت بها محدودبة الظهر مطرقة رأسها كعجوز في سن السبعين واضطرت مرارًا أن تتوقف.. وفي كل مرة كان الماء المثلج ينسكب على صدرها ويبلل قدميها..

حدث ذلك بين الحقول الموحشة في جوف ليلة من صميم الشتاء ولم تَرَهُ عين غير عين الله.. ولم تجرؤ الطفلة على البكاء خوفًا من سيدتها فقد تعودت أن تشعر بسيدتها على مقربة منها في كل وقت وفي كل مكان..

وأنهكها التعب أخيرًا.. فوقفت وهتفت دون أن تشعر.. وبصوت الإنسان الذي يئس من كل رحمة في الأرض أو في السماء: يا إلهي !

وفجأة.. أحست بالآنية يخف وزنها.. فرفعت رأسها ورأت شبحًا ضخمًا يتناول الآنية من بين يديها..

كان شـــبح رجل كبير الجســـم تبعها دون أن تشـــعر.. وأراحها من حملها الثقيل.. ومن العجب أن «كوزيت» لم يخالجها في تلك اللحظة شعور بالخوف أو بالفزع..

قال لها الرجل بصوت هادئ خافت: إن حملك ثقيل يا بُنَيَّةْ !

فأجابت في مذلة وتواضع: نعم يا سيدي..

ـ كم عمرك أيتها الصغيرة ؟

ـ ثمانية أعوامٍ يا سيدي..

ـ وهل حملت هذه الآنية مسافة طويلة ؟

ـ إنني ملأتها من الينبوع..

ـ وإلى أين تقصدين ؟

ـ إلى القرية.. يا سيدي..

ـ كم تبعد من هنا ؟

ـ إنها تبعد مسيرة ربع ساعة..

فوقف الرجل في مكانه.. ثم سأل فجأة: إذاً.. فأنت لا أمَّ لك ؟

فأجابت «كوزيت»: لا أعلم..

واستطردت قبل أن يتمكن الرجل من الكلام:

ــــ لا أظن أن لي أمًّا.. إن لغيري من البنات أمهات.. أما أنا فلا أمَّ لي.. وأردفت بعد لحظة: أظن أنه لم تكن لي أم قط..

فوضع الرجل الآنية على الأرض.. وألقى يديه الكبيرتين على كتفيها.. وحاول أن يرى وجهها في الظلام..

سأل: ما اسمك يا بنية ؟

ـ «كوزيت»..

فمرت في جسد الرجل رعدة قوية.. ونظر إلى الفتاة مرة أخرى..

ثم رفع يديه عن كتفيها.. وحمل الآنية واستأنف السير.. ثم سألها بعد قليل: ومن الذي أرسلك لإحضار الماء في مثل هذه الساعة ؟!

ـ مدام «تيناردييه»..

فقال الرجل بقلة اكتراث.. وبصوت واهن: ـ ومن هي مدام «تيناردييه» ؟

ـ إنها سيدتي وزوجة صاحب الحانة..

ـ صاحب الحانة ؟! إنني سأقضي ليلتي هناك فأرشديني إلى الطريق..

وعلى الرغم من أن الرجل كان يمشي بخطى واسعة فإن «كوزيت» لم تجد صعوبة في مرافقته..

لم تعد تشعر بالتعب.. وراحت تنظر إلى الرجل من وقت إلى آخر بشيء كثير من الثقة والطمأنينة..

سألها الرجل: أليس للمدام «تيناردييه» خدم ؟! أليس في الحانة أحد سواك ؟

ـ بل هناك فتاتان صغيرتان هما إبونين وأزيلما..

ـ وهل تخدمان مثلك ؟

ـ إنهما ابنتا مدام «تيناردييه»..

ـ وماذا تصنعان إذاً ؟!

ـ لا شيء إنهما يلهوان ويلعبان بالدمى..

ـ وأنت ؟

ـ إنني قوم بالخدمة..

ـ كل النهار ؟!

فرفعت إليه الفتاة عينيها الواســعتين.. ولم يَرَ الرجل في الظلام دمعة ترقرقت فيهما.. ثم أجابت بصــوت خافت: نعم يا سيدي..

ثم أردفت بعد قليل: إنني ألهو في بعض الأحيان بعد الفراغ من عملي.. ولكنني لا أملك شيئًا من الدمى..

ووصــلا إلى القرية.. وســارت «كوزيت» بالرجل بين شــوارعها المظلمة.. ولما مرا بحانوت الخباز.. كانت الفتاة قد نسيت أمر الرغيف..

واقتربا من الحانة.. فقالت «كوزيت»: لقد اقتربنا فدعني أحمل الآنية..

لماذا ؟

خوفًا من أن تضربني سيدتي.. إذا أبصرتك تحملها..

فأعطاها الآنية.. وبعد لحظة كانا بباب الحانة ولم تتمالك «كوزيت» قبل دخولها من أن تختلس نظرة إلى الدمية المعروضة بالحانوت..

وأقبلت مدام «تيناردييه» على الفتاة وهي تصيح:

أين كنت أيتها الشقية ؟ ولماذا أبطأت حتى الآن ؟

فقالت لكي تتقي غضبها: هذا السيد يطلب غرفة يا سيدتي..

فاستحالت قسوة المرأة إلى دعة وصعدت الرجل بعين فاحصة.. ولكنها ما كادت ترى رثاثة ثيابه حتى عاودها العبوس..

قالت في شيء من الخشونة: ادخل يا سيدي..

فدخل الرجل.. وأرسلت المرأة بصرها إلى حيث كان زوجها كأنما تستطلع رأيه.. وكان جواب الزوج أنه قلب شفتيه باحتقار.. وأومأ برأسه بإشارة معناها اطرديه..

قالت للرجل: من دواعي الأسف يا سيدي أنه ليس لدينا غرفة خالية..

إذا دعيني أقضِ ليلتي حيثما أتفق ولو في الإسطبل سأدفع الأجر الذي تطلبينه..

هل تدفع أربعين سنتمًا ؟

نعم..

وسمع أحد الزُّبُن هذا الحديث.. فنظر إلى «تيناردييه» في دهشة وهتف..

أربعون سنتيمًا ؟ إن الأجر عشرون سنتيمًا فقط !

فاجابه «تيناردييه» في همس:

نعم.. ولكنه أربعون سنتيمًا لأمثال هذا الرجل.. إنني لا أريد فقراء في حانتي..

صدقت.. فذلك يسئ إلى سمعة الحانة..

أما الرجل فإنه وضع عصاه.. والحزمة التي عليها.. وجلس أمام إحدى الموائد فخفت «كوزيت».. وقدمت له قدحًا وزجاجة نبيذ..

وبينما كانت تصب النبيذ في القدح.. راح الرجل ينظر إليها باهتمام عجيب..

لم تكن «كوزيت» جميلة ولكن كان يمكن أن تكون أجمل لو أنها تذوقت طعم الراحة والسعادة..

كانت عيناها الواسعتان غائرتين في محجريهما وقد انطفأ بريقهما لكثرة البكاء .وسقط ضوء المصباح على جسمها فأبرز تحولها ونحافتها المخيفة ولم يكن ثوبها سوى خرقة قذرة مهلهلة تكشف ثقوبها عن بشرتها الشاحبة المحتقنة في بعض المواضع بتأثير الضرب والركل..

كان منظر الفتاة وصـــوتها ونظراتها وحركاتها تعبر عن شيء واحد هو الخوف.. وقد بلغ من خوفها أنها لم تجرؤ على الاقتراب من نار الموقد رغم ارتجافها وتساقط قطرات الماء من ثوبها..

واســتأنفت «كوزيت» عملها في ســكون.. والرجل الغريب لا يحوّل عينيه عنها إلى أن صــاحت مدام «تيناردييه» فجأة:

أين الرغيف أيتها الضفدعة القذرة ؟

وكانت «كوزيت» قد نسـيت الرغيف تمامًا.. فلجأت إلى المعقل الوحيد الذي يعتصـم به الأطفال الخائفون.. وهو الكذب..

قالت: إنني وجدت حانوت الخباز مغلقًا..

كان يجب أن تطرقي بابه..

إنني فعلت ذلك.. ولكنه لم يفتح الباب..

فقالت المرأة بصوت رهيب: سأتحقق من ذلك غدًا.. والويل لك إذا كنت كاذبة والآن.. أين النقود ؟

فدسّت «كوزيت» يدها في جيب مئزرها.. واصفر لونها في الحال.. لم تجد قطعة النقود..

قلبت جيبها مرارًا وبحثت فيه باهتمام مؤلم.. ولكن بغير جدوى..

صاحت المرأة: هل أضعتها أو لعلك تريدين سرقتها ؟!

ومدت يديها نحو عصا في أحد الأركان فصرخت «كوزيت»:

رحماك يا سيدتي لن أفعل ذلك مرة أخرى..

ولم يَفُت الرجل الغريب شيءٌ ممّا حدث.. فراح يبحث في جيوبه بسرعة دون أن يلفت إليه الأنظار..

وفي هذه الأثناء.. كانت «كوزيت» تتراجع وتتكمش لتلقي جســمها العاري ورفعت المرأة العصــا بيدها.. فصــاح الرجل الغريب:

عفوًا يا سيدتي.. لقد رأيت شيئًا يسقط من جيب الفتاة.. ولعله قطعة النقود المطلوبة .. وأحنى قامته وتظاهر بأنه يبحث ويفتش في أرض المكان.. ثم نهض على الأثر وهو يقول: ها هي يا سيدتي..

فقال: نعم.. إنها هي..

كانت قطعة من ذوات العشرين سنتيمًا.. فأهذتها المرأة بغير تردد وربحت في هذه الصفقة خمسة سنتيمات..

وحدجت «كوزيت» بنظرة صارمة.. وقال مهددة: حذار أن تعودي إلى مثل هذا..

وتسللت الفتاة إلى مكانها المألوف تحت المائدة بعد أن رمقت الرجل الغريب بنظرة تفيض بالشكر والثقة وعرفان الجميل..

وفُتح أحدُ الأبواب الجانبية بعد قليل.. ودخلت منه إيبونين وأزيلما..

كانتا فتاتان بديعتين حقًا على شيء قليل من الجمال والأناقة.. وكل منهما ترتدي ثوبًا من الصوف السميك يقيها شر البر.. ويبرز في الوقت نفسه تناسق أعضائها ورشاقة قامتها ..

وألقت الأم على ابنتيها نظرة حنان وإعجاب.. واستمرت في عملها..

أما الفتاتان فقد وضعت كبراهما على الأرض دمية جميلة كانت في يدها.. وشرعت مع اختها في مطاردة هرة سوداء صغيرة..

ولاحظت مدام «تيناردييه» أن «كوزيت» لا تصنع شيئًا وأنها ترقب ابنتيها في عبثهما فصاحت بها: أهكذا تشتغلين ؟ سأعرف كيف أجعلك تُقلعين عن هذا الخمول..

دعيها تلعب سيدتي.. هذه ليلة عيد الميلاد..

صاحت المرأة بحدة: ما دامت تأكل فيجب أن تشتغل.. إنني لا أستطيع إطعامها وإيواءها لوجه الله..

فسألها الرجل بلهجة رقيقة لا تُنتظر من إنسان في رثاثة حاله:

وماذا تريدنها أن تصنع يا سيدتي ؟

أن تصنع جوربًا لابنتي..

فنظر الرجل إلى قدمي «كوزيت» العاريتين.. وسأل:

كم من الوقت يستغرق صنع هذا الجورب ؟

ثلاثة أيام أو أربعة..

وكم يساوي بعد أن يتم صنعه ؟

فقلبت المرأة شفتيها باحتقار.. وأجابت: يساوي ثلاثين سنتيمًا على الأقل..

هل تقبلين خمسة فرنكات ثمنًا للجورب ؟

وكان «تيناردييه» قد سمع هذا الحديث.. فوجد من واجبه الآن أن يتكلم..

قال: نعم يا سيدي مادامت هذه رغبتك.. إننا لا ننكر على زبائننا شيئًا.. ولا نرفض لهم رغبة..

وقال الزوجة: والدفع فورًا..

فوضع الرجل الفرنكات الخمسة على المائدة.. وتحوّل إلى «كوزيت» وقال:

في استطاعتك أن تلعبي يا بنية..

فدس «تيناردييه» قطع النقود في جيبه.. وعضت زوجته على شفتيها.. ورمقت الرجل بنظرة بغض وكراهة..

وهتفت «كوزيت» وهي ترتجف: أصحيح هذا يا سيدتي ؟! هل أستطيع حقًا أن ألعب ؟

فأجابت المرأة بصوت رهيب: نعم..

فشكرتها الفتاة بشفتيها.. وشكرت الزائر بقلبها.. وغاصت تحت المائدة..

واقتربت مدام «تيناردييه» من زوجها وهمست في أذنه: منْ تظنّه هذا الرجل ؟

فأجابها «تيناردييه»: لقد رأيت أصحاب ملايين يرتدون ثيابًا عتيقة خشنة كثوب هذا الرجل..

ورأت «كوزيت» الدمية التي وضعتها إيونين على الأرض حين شرعت في مطاردة الهرة فتسللت من مخبئها بسرعة واختطفت الدمية لتلهو بها.. وهمَّت بالعودة إلى مكانها..

ولكن إيونين لمحتها وصاحت: انظري يا أماه..

فنظرت الأم ورأت «كوزيت» ممسكة بالدمية.. فصرخت مستنكرة: «كوزيت» !

فذعرت «كوزيت» ووضعت الدمية على الأرض في رفق بحركة تدل على القنوط وعادت إلى مخبئها دون أن تحوّل عينيها عن الدمية وما لبثت أن انفجرت باكية بصوت مسموع..

ونهض الرجل من مكانه وسأل ماذا حدث ؟!

فأجابت المرأة: قد تجاسرت هذه الشقية على لمس دمية ابنتي فقصد الرجل إلى الباب وفتحه وخرج..

وانتهزت مدام «تيناردييه» هذه الفرصة وركلت «كوزيت» بقدمها ركلة جعلتها تصرخ..

وعاد الرجل بعد دقائق وبين يديه تلك الدمية الكبيرة الجميلة التي سالت لُعاب الأطفال جميعًا في القرية..

قال وهو يضع الدمية بين يدي «كوزيت»: هذه لك !

فوجمت الفتاة وذهلت ولم تستطع الكلام.. بل ولم تستطع التنفس..

أما مدام «تيناردييه» فإنها جمدت في مكانها.. وتذكرت كلام زوجها وراحت تســأل نفســها ترى من يكون هذا الرجل ؟! سائل هو أم صاحب ملايين ربما هذا وذاك.. نعم.. ربما كان لصًا..

و شعرت مادام «تيناردييه» بانها لم تمقت إنسانًا في الوجود كما أ صبحت تمقت هذا الرجل المجهول الذي أر سلته العناية الإلهية إلى «كوزيت»..

وكأنما كانت سعادة «كوزيت» أكثر مما تطيق هذه المرأة رؤيته لأنها ما لبثت أن أر سلت ابنتيها إلى مرقدهما ثم استأذنت الرجل المجهول في إرسال «كوزيت» إلى مخدعها لأن المسكينة متعبة مُنْهَكة القوة..

وانصرفت «كوزيت» بدميتها المحبوبة وبقى الرجل المجهول في مكانه وقد وضع مرفقيه على المائدة وأسند رأسه بين كفيه.. وانصرف إلى التفكير..

وانقضت بضع ساعات وانتصف الليل وانصرف رواد الحانة والرجل الغريب قابع في مكانه لا يتكلم.. ولا يحرّك ساكنًا..

وأخيراً ضاقت المرأة ذرعًا فهمست في أذن زوجها:

هل في نيته أن يقضي الليل كلها هكذا ؟ سأنطلق إلى غرفتي.. ولك أن تصنع به ما تشاء..

فذهب إليه «تيناردييه».. وسأله باحترام ألا تشعر بالحاجة إلى النوم يا سيدي ؟

فأجاب الرجل: نعم.. نعم.. إنك على حق.. أين الإسطبل ؟

فقال «تيناردييه» وهو يبتسم: سأدلك إليه يا سيدي..

وتناول شــمعة مضــاءة.. وحمل الرجل عصــاه وحزمته وصــعدا إلى الطابق الأول.. وانتهيا إلى غرفة أنيقة فاخرة الأثاث والرياش..

فهتف الرجل: ما هذا ؟ فأجاب «تيناردييه» هذه غرفتنا الشخصية وقد ظلّت مغلقة منذ زفافنا..

أجاب الرجل بخشونة: كنت أفضل أن أنام في الإسطبل..

وقبل بزوغ الشمس.. كان الرجل المجهول مرتديًا ثيابه حاملاً حزمته وعصاه..

وأبصرته مدام «تيناردييه» فهتفت: أترحل بهذه السرعة يا سيدي ؟

نعم كما يجب أن أدفع ؟

فلم تجب مدام «تيناردييه».. وقدمت إليه قائمة حساب مبالغ فيها.. فتناولها.. وألقى عليها نظرة شاردة.. كان اهتمامه منصرفًا إلى شيء آخر..

سألها: كيف حال العمل هنا ؟

فأجابت.. وقد أدهشها إنه لم ينفجر غاضبًا ساخطًا بعد أن رأى قائمة الحساب:

إن العمل لا بأس به..

واستدركت قائلة: ولكن الأزمة شديدة على كل حال.. ومن حسن الحظ أن بعض الزبائن الكرام من أمثالك يختلفون إلى الحانة من وقت لآخر..

إن النفقات هنا باهظة يا سيدي.. والفتاة الصغيرة وحدها تكلفنا أكثر مما نطيق..

من تعنين ؟ أية فتاة صغيرة ؟

أعني «كوزيت»..

فقال الرجل بصوت هادئ.. وبقلة اكتراث: إذا افترضنا أنك تخلصتِ منها..

فصاحت.. وفي عينيها نظرة بغض وكراهة: خذها.. بالله ..يا سيدي.. خذها وأرحنا.. فأباركك وأبتهل على الله من أجلك ليل نهار.. هل تريد أن تأخذها في الحال ؟

نعم ادعيها..

فصاحت المرأة تنادي الفتاة «كوزيت»..

قال الرجل: كم يجب أن أدفع ؟

ونظر إلى قائمة الحساب مرة أخرى.. وغمغم في دهشة: ثلاثة وعشرون فرنكًا ؟!

وفي هذه اللحظة دخل «تيناردييه» وقال: الحساب ستة وعشرون سنتيمًا فقط..

فنظرت المرأة إلى زوجها مستنكرة.. وصاحبت: ستة وعشرون سنتيمًا فقط.. فأجاب «تيناردييه» ببروود: نعم عشرون سنتيمًا أجر الفراش.. و ستة سنتيمًا ثمن النبيذ .. أما مسألة الفتاة فإن لي فيها كلامًا سأقوله لهذا السيد على انفراد..

فانسحبت المراة.. وقدم «تيناردييه» مقعدًا للرجل.. وقال بسذاجة مصطنعة:

يجب أن أقول لك يا سيدي إنني أحب الفتاة حبَّ عبادة..

فنظر إليه الرجل المجهول بحدة وسأل: أية فتاة ؟

أية فتاة ! «كوزيت» طبعًا.. أليس في نيتك أن تأخذها ؟ دعني أقول لك في صراحة إنني لا أوافق لأنني لا أطيق فراقها.. لقد تعهدتها بالعناية مذ كانت طفلة.. لأنها يتيمة لا أب لها ولا أم أما زوجتي وإن كانت ضـيقة الصـدر سريعة الغضب.. فإنها تعطف كذلك على الفتاة وتحبها..

إنها كابنتنا وليس أحب إلى من أن أسمع صوتها يدوي بين جدران الحانة..

وكان الرجل لا يزال ينظر إليه بإمعان فاستطرد:

ثم إنني لا أتركها هكذا لأول عابر سـبيل.. هبْ أنني قسـوت على نفسيـ.. وتركت الفتاة تذهب معك.. أفلا يكون من واجبي أن أعرف مقرّها وأن أزورها لأتحقق من أنها سـعيدة ناعمة البال ! إنني لا أعرف حتى اسـمك فيجب على الأقل أن أرى أوراقك الشخصية أو جواز المرور الذي تحمله أو أي شيء من هذا القبيل..

فأجاب الرجل في رزانة دون أن يحوّل عينيه عن وجه «تيناردييه»: اصغ إلى يا مسيو «تيناردييه» ! إن الإنسان لا يحتاج إلى جواز مرور لكي يبتعد عن باريس أربعة فراسخ وأنا إذا أخذت «كوزيت» فإنني آخذها وأمضيـ في سبيلي ولا حاجة بك لأن تعرف اسـمي وعنواني.. إنني لا أريد أن يقع بصرـها عليك بعد ذلك ! . إنني سـأقطع الخيط الذي يقيد قدميها.. وأتركها تطير فهل يرضيك هذا ؟

وأدرك «تيناردييه» منذ اللحظة الأولى أنه أمام رجل قوي الإرادة بقدر ما هو قوي العضـلات وكان قد اهتم بمراقبته في الليلة السابقة.. لم تَفُتْهُ حركة من حركاته وأدهشته النظرات الغريبة الفاحصة التي كان يحدج بها الفتاة.. فسأل نفسه: ترى ما سرّ اهتمامه بها ؟ ومن هو هذا الرجل.. ولماذا يرتدي هذه الأسمال البالية وجيوبه عامرة بالمال ؟

ألقى على نفسه هذه الأسئلة ولم يهتد إلى جواب وقضى الليل كلّه في سُهد وتفكير..

كان المسـتحيل أن يكون الرجل والد «كوزيت» وإذًا لعله جدّها ! وإذا كان كذلك.. فلماذا لا يعلن شـخصـيته وصفته ؟

إذا كان لإنسـان حق فإنه لا يتردد في إثباته والحصـول عليه وإذًا فهذا الرجل لا صِـلة له ب«كوزيت».. ولا حقَ له عليها..

وكان «تيناردييه» من الرجال الذين يفهمون حقيقة الموقف بنظرة واحدة وقد رأى أن الفرصـــة ســـانحة للعمل بسرعة وصراحة..

قال : أصغِ إلي يا سيدي.. إنني أطلب ألفًا وخمسمائة فرنك..

فأخرج الرجل من جيبه حقيبة ســـوداء عتيقة.. وتناول منها ثلاثة ورقات مالية وضـــعها على المائدة وقال: جئني بالفتاة..

وما هي إلا لحظة حتى جاءت «كوزيت».. وأخرج الرجل من حزمته ثوب حداد لفتاة في السابعة من عمرها..

قال محدثًا «كوزيت» انطلقي بهذا الثوب إلى غرفتك أيتها العزيزة وأرتديه على عجل..

ولمّا تنفس الصـباح.. شـاهد بعض أهل القرية شـيخًا رث الثياب وفتاة في ثياب الحداد يسـيران جنبًا إلى جنب في الطريق المؤدية إلى باريس وقد أمسك الشيخ يد الفتاة وأمسكت الفتاة دمية كبيرة جميلة..

فأمَّا الشيخ فلم يعرفه أحد.. وأما «كوزيت» فلم يعرفها في ثوبها الجديد إلا القليلون..

وكانت مدام «تيناردييه» قد أطلقت يد زوجها في العمل وتوقعت نتائج باهرة..

وانتظر «تيناردييه» نصـف سـاعة بعد رحيل «كوزيت».. ثم انتحى بزوجته.. وأبرز لها الألف والخمس مئة فرنك فسألته:

هل هذا كل ما حصلت عليه ؟ ورمقته شزرًا.. فأطرق رأسه لحظة ثم قال:

إنك على حق.. وقد كنت مُغَفلاً إليَّ بقبعتي !

ودس النقود في جيبه وانطلق في أثر الرجل و«كوزيت» وهو يقول لنفسه:

نعم إنني حمار غبي.. وهذا الرجل من أصحاب الملايين بغير شك.. فقد أخرج من جيبه أولاً عشرين سنتيمًا.. ثم خمسة فرنكات.. ثم خمسين فرنكًا وخمس مئة.. وفعل ذلك بكل بساطة ولو طلبت خمسة عشر ألفا فرنك لأعطانيها بغير تردد؛ ولكني سالحق به..

وتذكر الثوب الذي أعدّه الرجل سلفًا لـ«كوزيت» وحار في فهم هذا اللغز..

ولحق بالرجل والفتاة في دغلٍ بعيد عن القرية.. وكان الرجل قد جلس تحت شـجرة هناك ليســمح للفتاة ببعض الراحة..

واقترب «تيناردييه» بخفة.. وفاجأ الرجل بظهوره.. وقال وهو يلهث:

عفوًا يا سيدي.. إليك الألف والخمسمائة فرنك..

فنظر إليه الرجل في هدوء وسأل: ما معنى هذا ؟

فاجاب «تيناردييه» باحترام: معنى هذا يا سيدي أنني أريد العودة بـ«كوزيت»..

فذعرت الفتاة وتعلقت بساعد الرجل..

أما هذا فإنه نظر إلى «تيناردييه» بحدّة وقال وهو يتمهل بعد كل كلمة..

تريد.. العودة.. بـ«كوزيت» ؟

نعم يا سيدي.. ويجب أن أقول لك إنني فكرت في الأمر مليًا.. والواقع أنه ليس من حقي أن أترك الفتاة لك.. فأنا رجل شريف كما ترى..

هذه الفتاة ليست ابنتي.. وقد استودعتنيها أمها.. وإلى أمها يجب أن أردها.. ستقول لي: « إن أمها ماتت » حسنًا في هذه الحال لا أسلم الفتاة إلى غير الشخص الذي يحمل تفويضًا من أمها. فالأمر واضح كما ترى..

فلم يجبه الرجل.. ودس يده في جيبه.. وأخرج حافظة النقود..

وهنا وثب قلب «تيناردييه» بين ضلوعه وقال لنفسه:

لقد صدقت ظنوني.. ها هو يسعى إلى إرضائي وابتياع سكوتي..

أما الرجل فإنه أجال النظر حوله.. وتحقق من إقفار المكان من المارة ثم فتح حافظة النقود ولم يخرج منها رزمة الأوراق المالية كما توقعّ «تيناردييه».. بل اخرج قصاصة ورق صغيرة قدمها إلى «تيناردييه» وهو يقول: إنك على حق.. إقرأ هذه الورقة..

فنشر «تيناردييه» الورقة في يده.. وقرأ فيها ما يلي: « مسيو «تيناردييه»

« أرجو أن تعهد بابنتي إلى حامل هذه الرسالة وسيتولى عني سدادا ما عليّ من ديون » « «فانتين» »..

سأله الرجل: هل تعرف هذا التوقيع ؟

كان توقيع «فانتين».. فلم يستطع «تيناردييه» إنكارًا..

قال الرجل: في استطاعتك أن تحتفظ بهذه الرسالة لوقت الحاجة..

فطوى «تيناردييه» الورقة.. وقال: ربما كان التوقيع مزوّرًا ببراعة..

ولكن ذلك لا يهمني كثيراً.. المهم أن تدفع الديون وهي كثيرة..

فنهض الرجل واقفًا وقال: يا مسيو «تيناردييه».. في يناير الماضي كانت والدة هذه الفتاة مدينة لك بمائة وعشرين فرنكًا.. وفي فبراير أرسلت أنت إليها قائمة حساب بمبلغ خمس مئة فرنك.. فبعثت إليك بثلاثمائة فرنك في نهاية ذلك الشهر وبمثلها في بداية شهر مارس..

وقد انقضت تسعة أشهر.. منذ ذلك العهد والأجر الشهري المتفق عليه هو خمسة عشر فرنكًا فيكون المجموع ١٣٥ فرنكًا ولكني أعطيتك منذ ساعة ألفًا وخمس مئة فرنك .

فشعر «تيناردييه» كأنه ذئب وقع في فخ.. ولكنه اعتصم بالجرأة والقحة..

قال: أنا لا أعرف اسمك يا سيدي.. فإذا لم تعطني ثلاثة آلاف فرنك فإني أعود بـ«كوزيت»..

فلم يزد الرجل على أن قال بهدوء: هلمّي بنا يا «كوزيت».. وحمل عصاه بيمناه.. وتأبط ساعدها بيسراه واستأنفا السير..

ولاحظ «تيناردييه» ضخامة العصا وإقفار المكان.. وأسقط في يده..

قال وهو يدور على عقبيه: إنني مازلت مغفلاً كان يجب أن أتسلح بمطواتي..



في الدير

لم يمت «جان فالجان» غرقًا كما أذاعت الصـحف.. لأنه في الوقع ما كاد ينقذ البحّار الذي أشرف على الغرق حتى ألقى بنفســه في الماء وغاص حتى ابتعد عن الســفينة.. ثم اعتصــم بأحد القوارب وتوراى هناك حتى أرخى الليل سدوله..

وقد رأينا كيف ذهب إلى بولانجيه.. وأنقذ «كوزيت» من براثن «تيناردييه» وزوجته وعاد بها إلى باريس..

وقد كان ذلك اليوم من الأيام المشـهودة في حياة «كوزيت».. وكان سرورها لا حدَّ له بالرغم من المرحلة العظيمة التي قطعتها إلى جانب مُنقذها ولم تشك تعبًا ولا نصبًا ولكن الرجل الطيب القلب شعر بتعبها فأشفق عليها وحملها فوق ظهره وغلبها الإعياء فاستسلمت لنوم عميق..

كانت الغرفة التي اسـتأجرها «جان فالجان» تكاد تكون بمعزل عن سـائر المنازل في مكان مقفر تنقطع فيه أقدام السابلة وهي غرفة حقيرة متواضعة الأثاث.. ليس فيها غير فراش بسيط ومنضدة ومقعدين وموقد..

ووضـع «جان فالجان» الفتاة في الفراش.. ثم أضـاء شـمعة ولبث برهة يتأمل وجهها وقد انعكسـت كل مشـاعره الرقيقة على صفحة وجهه.. وكاد حنانه الشديد وعطفه الأشد يسيلان من عينيه دموعًا.. وما تمالك إلاّ أن انحنى على يدها الممدودة وقبلها كما قبَّل يد أمها منذ تسعة أشهر حين نامت نومها الأبدي..

واسـتيقظ في صـباح اليوم التالي وهي ما تزال تسـتمتع بنومها العميق حتى إذا مرت إحدى عربات النقل الثقيلة وأزعجها دويّ عجلاتها.. انتفضت ونهضت واثبةً من مرقدها وعلى وجهها علامات الرعب وصاحت: هأنذا يا سيدتي !

وراحت تدور بعينيها حولها.. فوقع بـصرها على «جان فالجان» ووجدته ينظر ليها مُـشفقًا وعلى شفتيه ابتـسامة رقيقة فهدأ رَوْعها..

سألته قائلة: هل يجب أن أكنس ؟

فأجاب: كلا.. إلعبي..

فانصرفت إلى دميتها تناحبها وتدللها وهي أشد ما تكون سعادة وغبطة..

وتتابعت الأيام.. وهذان المخلوقان يســتمتعان بالســعادة في غرفتهما الصــغيرة.. وبدأ يعلّمها القراءة والكتابة.. وشعر بغبطة لا حدّ لها وهو يلقّنها كيف تصلب ويحدثها عن أمها.. ويراقبها وهي تداعب دميتها..

وكانت المرأة التي تقيم في بيتها عجوزًا ثرثارة.. ولطالما حاولت أن تكشــف أمره باســتدراج «كوزيت» ســائلة متقصية ولكنّ الصغيرة كانت لا تعلم من أمره وأمرها أكثر من أنه هبط عليها من السماء فانتشلها من الجحيم..

وخطر للمرأة يومصـــا أن تراقب «جان فالجان».. بعد عودته من ثقب القفل.. فرأته يخلع ســترته ثم جاء بمقص وقطع خيوط البطانة وأخرج منها ورقة مالية صفراء و ضعها في جيبه وتناول إبرة وخاط البطانة وأعادها كما كانت.. وبعد لحظة دعاها إليه وأعطاها تلك الورقة وطلب إليها أن تصرفها..

ونظرت المرأة إلى الورقة ووجدتها من ذوات الألف فرنكًا.. فدهشت.. وتضاعف فضولها..

وذات ليلة.. خُيل إلى «جان فالجان» أنه يسـمع وقع أقدام تنتقل بخفة أمام باب غرفته.. وكان قد أطفأ المصـباح وهم بالرقاد.. فاعتدل في فرا شه وأ صغى.. وما لبث أن رأى شعاعًا ينبعث من ثقب الباب.. ولاحظ في الوقت نفـسه انقطاع صوت الأقدام.. فأدرك أن هناك من ينظر إلى داخل الغرفة من خلال الثقب..

ثم تلاشى الشعاع فجأة.. وساد السكون..

و شعر «جان فالجان» بالقلق والجزع.. وقضى ليلته مسهدًا.. وفي اليوم التالي.. قالت له العجوز: أظن أنك سمعت صوت أقدام أمام غرفتك.. ليلة أمس.. يا سيدي.

فأجاب متظاهرًا بقلة الاكتراث: أظن ذلك..

قالت: إنه الساكن الجديد.. والظاهر أنه اعتاد التأخر ليلاً.. والنهوض مبكرًا..

الساكن الجديد؟ ما اسمه؟

لا أذكر.. ديمون أو درمون..

وماذا يصنع؟

فنظرت إليه المرأة بعينين ضيقتين وأجابت: أظن أنه يعيش من إيراده مثلك..

وربما لم تعن المرأة شيئًا خاصًا.. ولكن «جان فالجان» لم يطمئن إلى نظراتها وصوتها وعبارتها الأخيرة..

ولم يبرح «جان فالجان» الغرفة في ذلك النهار.. وما إن هبط الليل.. حتى خرج من المنزل.. وأجال البصـــ حوله.. واستوثق من خلو الطريق من الرقباء.. ثم عاد أدراجه إلى «كوزيت».. وقال لها: هلمي بنا.. وانصرفا معها..

واتخذ من الظلام سـترًا.. وما زال ينتقل بالفتاة بين الأزقة الملتوية.. وينظر وراءه بين الحين والحين كالجواد الطريد إلى أن بلغ زقاق «بيركاس».. وهو زقاق ضيق مظلم.. وهناك خُيل إليه أنه يـسمع وراءه وقع خطوات كثيرة.. و سمع صوتًا كقصف الرعد يهتف: ابحثوا عنه في هذا الزقاق.. جميعُ الشوارع المجاورة موضوعة تحت المراقبة..

وجمد «جان فالجان» في مكانه.. فقد عرف صوت «جافير».. وسمع وقد الأقدام تقترب بسرعة..

ونظر الطريد حوله.. وسُقِط في يده..

كان الزقاق موصدًا.. وتحيط به من كل ناحية جدران مرتفعة لا منفذ فيها..

وكأنما أحست «كوزيت» بخطورة الموقف.. فقالت وهي ترتجف خوفًا وفزعًا..

إني خائفة.. يا أبي !

فأجابها في همس: اطمئني..

ووقع بصره على المصباح الوحيد الذي يضيء الزقاق.. وكان المصباح يتدلى من حبل طويل.. فأسرع «جان فالجان» إلى المصباح فأطفأه.. وانتزع الحبل.. وعقده حول خصره «كوزيت»..

وكانت محاولاته المتعددة في ليمان طولون.. وقوة عضلاته ومرونته.. قد ساعدته على إتقان فن تسلق الجدران.. فدار بعينيه في جوانب الزقاق.. ووقع اختياره على أقل الجدران ارتفاعًا.. فأسرع إليه.. وأخذ يرقاه بخفة الهرة.. وكان ما يزال ممسكًا بطرف الحبل الذي عقده حول خصر «كوزيت».. فما أن استوى فوق حافة الجدار.. حتى شرع يجتذب الفتاة بوساطة الحبل.. ثم أدلى بها في الناحية الأخرى من الجدار.. ووثب في أثرها..

ووجد نفسه في حديقة مترامية الأطراف.. ينهض في نهايتها بناء منخفض مظلم..

وكانت «كوزيت» تلهث من التعب والخوف.. فاحتواها بين ساعديه وأرهف أذنيه.. فسمع جلبة وراء الجدار.. ولكنه لم يتبين حرفًا مما يقال.. ولما نظر إلى «كوزيت» بعد ذلك.. وجدها تغط في نومها..

وفيما هو حائر لا يدري ماذا يفعل.. سمع رنين جرس صغير.. ورأى رجلاً يتحرك في الحديقة وبيده مصباح.. وكان الجرس يرن كلما تحرك الرجل.. ويقف عن الرنين كلما كف الرجل عن الحركة.. فعجب لهذه الظاهرة.. ثم أدرك أن الرجل والجرس لابد أن يكونا كتلة واحدة..

ومس يد «كوزيت».. فإذا بها باردة مثلجة.. ونادها.. فلم تجب.. فذُعر وأشفق على الفتاة الصغيرة أن يقتلها البرد.. وغمغم: يا إلهي.. ألا يوجد ملجأ؟!

ومدد «كوزيت» على الأرض.. وقصد إلى الرجل الذي رآه يتحرك في الحديقة.. ولما اقترب منه.. رأى على ضوء المصباح جرسًا معدنيًا صغيراً مشدودًا إلى منطقته..

ولم يشعر به الرجل.. ففاجأه «جان فالجان» بقوله: هل لك في أن تربح مائة فرنك ؟

فذعر الرجل ورفع رأسه.. واستطرد «جان فالجان»: إنني أعطيك مائة فرنك.. إذا وجدت لي مأوى أقضي فيه هذه الليلة..

فرفع الرجل المصباح في يده.. ونظر إلى وجه «جان فالجان» طويلاً.. ثم هتف:

من ذا الذي أرى .. الأب «مادلين» ؟

فذعر «جان فالجان».. وتراجع خطوة إلى الوراء.. كان يتوقع كل شيء إلا أن يعرفه هذا الرجل الغريب.. في تلك الظروف المُريبة..

غمغم: من أنت؟ وما هذا المنزل ؟

فصاح الرجل: يا إلهي ! ألا تعرفني ؟ إنك أنقذت حياتي.. وأوجدت لي هذا العمل..

فحملق «جان فالجان» في وجه مُحدثه وعرف فيه «فوشليفان»..

غمغم: آه .. أهذا أنت؟ لقد عرفتك الآن.. ماذا تصنع هنا؟

إنني أشــفقت على الزرع من الصــقيع.. ولم يُطِبْ لي نوم.. فجئت لتغطيته حتى لا يصــيبه التلف.. ولكن كيف استطعت الوصول إلى هنا؟

رأى «جان فالجان» من الحكمة أن يلزم جانب الحذر.. فأجاب عن هذا السؤال بسؤال آخر..

قال: وما هذا الجرس المشدود إلى منطقتك ؟

إنني أحمله خصيصًا لكي يجتنبني..

ماذا تعني ؟ إنني لا أفهم شيئًا بحق السماء..

فغمز «فوشليفان» بعينه وقال: ذلك أنه لا يوجد في هذا المكان غير نسوة وبنات.. والظاهر أنه من الخطر عليهن أن يقابلنني.. فحملت هذا الجرس لكي يعرفن مكاني.. فيجتنبنني..

وما هذا المنزل ؟

ألا تعرفه ؟ أنت الذي أوجدت لي عملي هنا!

أجبني كما لو كنت لا أعرف شيئًا..

هذا دير سان أنطوان..

فتذكر «جان فالجان»..

قال فو شيلفان: ولكن.. بالله كيف ا ستطعت الدخول أيها الأب «مادلين»؟ إنك قديس حقًا.. ولكنك رجل على كل حال.. ودخول هذا الدير ممنوع على الرجال..

ولماذا دخلت أنت؟

إنني البستاني.. وليس هنا من الرجال سواي..

فاقترب منه «جان فالجان».. وألقى بيده على كتفه.. وقال بصوت رزين:

اصغ إلي يا «فوشليفان».. إنني أنقذت حياتك ذات يوم.. فهل تنقذ الليلة حياتي ؟ إنني أنوي البقاء هنا..

أنقذ حياتك؟ يا إلهي.. ماذا تقول أيها الأب «مادلين».. إنني لا أنقذ حياتك فحســـب.. ولكنني أفتديها بحياتي.. فتكلم.. ماذا تريدني أن أفعل ؟

هل لك غرفة خاصة ؟

بل إن لي ثلاث غرف في خرائب الدير في مكان لا يذهب إليه أحد..

حسنًا.. إنني أطلب منك أمرين: الأول ألا تتحدث عني إلى أحد.. والثاني ألا تحاول معرفة المزيد من أمري..

على رسلك.. أنا أعلم أنك لا تفعل غير ما هو كريم ونبيل..

إذًا سأجيء بالفتاة..

فهتف «فوشليفان»: أية فتاة ؟

إنها طفلة صغيرة..

هل هي ابنتك ؟

إنني جدها..

واسمها ؟

«كوزيت»..

ولســـائل أن يســـأل كيف اهتدى «جافير» إلى مخبأ «جان فالجان» بعد أن كان هو أول من اعتقد بموت غريمه غرقًا.. والجواب على ذلك.. أن صراحة «جافير» وذكاءه.. وحرصـــه على أداء واجباته.. كل ذلك لفت الأنظار إليه في إدارة الشرطة.. فنقل مفتشًا للشرطة في باريس.. وانتهى إليه عن طريق أعوانه وعيونه.. نبأ شيخ رقيق الحال.. اشتهر بهباته للفقراء وبأعماله الخيرية.. رغم ما يبدو من رثاثة حاله.. ومن أنه أجدر بالإحسان ممن يحُن هو عليهم..

فتحركت ريبته وذهب به الظن إلى أن هذا الرجل ربما كان من اللصــوص.. وقد اتخذ الإحســان والأعمال الخيرية ســتارًا يحجب به شروره.. فعمد إلى مراقبته.. وخُيّل إليه أنه عرف فيه «جان فالجان».. ولكنه حار في أمر الفتاة الصــغيرة التي رآها تخرج برفقة الشــيخ.. وكان يعرف أن «جان فالجان» لم يتزوج ولم يُنْســل.. ولكنه عاد فتذكر «فانتين».. وتذكر يوم أراد اعتقال «جان فالجان».. فاستمهله هذا ثلاثة أيام ليردَّ إلى المرأة التعسة ابنتها.. ثم تذكر أنه ألقى القبض عليه آخر مرة وهو يهمُّ بركوب عربة البريد إلى بولانجيه حيث توجد ابنة «فانتين»..

وزالت شكوكه وريبته حين علم من العجوز صاحبة المنزل أن «كوزيت» لا تعرف من أمرها ومن أمر هذا الشيخ الغريب إلا أنه أخذها من حانة في بولانجيه..

وعندئذ قرر «جافير» أن يعمل.. وقد رأينا كيف أفلت «جان فالجان» من قبضته..

أما «فوشليفان».. فإنه لم يخلص منقذه فحسب.. بل عمل على إقناع رئيسة الدير بحاجته إلى مساعد. وقدَّم إليها «جان فالجان» بصفته أخاه.. فألحقته بالعمل.. وضمَتْ «كوزيت» إلى بنات الدير..

وفي الدير قضى «جان فالجان» و«كوزيت» ثمانية أعوم.. تثقفت «كوزيت» في خلالها وكبرت وترعرعت وبلغت مبلغ النساء..

«ماريوس» و«جوندريت»

لم يكن «ماريوس» يعرف من أمر جاره شــيئًا.. ولم يهتم قطُّ بأن يعرف كل ما عمله من أمر هذا الجار هو أنه يدعى «جوندريت».. وأنه يعيش مع زوجته وابنتيه في غرفة حقيرة قذرة لا تصلح حتى للخنازير..

ولكن حدث في ذلك اليوم أن ســمع «ماريوس» في غرفة جاره جلبة غير عادية.. ووصــل إلى أذنيه صــوت «جوندريت» وهو يصيح بامرأته:

هلمي! أطفئي النيران.. وحطمي زجاج النافذة.. وارقدي في الفراش.. واملأي الدنيا أنينًا..

فدهش «ماريوس».. وعجب لماذا يأمر الرجل زوجته بإطفاء النار وتحطيم زجاج النافذة وملء الدنيا أنينًا..

وكان يفصل بين غرفته وغرفة «جوندريت» جدار في أعلاه كوة صغيرة مشبكة بالقضبان الحديدة.. فجاء بمقعد صعد عليه.. وأطل من تلك الكوة.. ورأى .. رأى «جوندريت» يسير في الغرفة الضيقة جيئة وذهابًا وهو يفرك كفيه بارتياح ويقول:

كنت واثقًا من أنه سيأتي.. فقد كتبت الرسالة بأسلوب يذيب الصخر.. فكيف بقلب شيخ متقدم في السن.. عُرف بحبه الخير وحدبه على الفقراء..

ثم التفت إلى ابنته الكبرى وقال: هل أنت واثقة من أنه سيأتي يا إيبونين؟

فأجابت إيبونين وهي تلهث: أؤكد لك أنه سيأتي.. إنه قرأ الر سالة.. وهز رأ سه.. و سألني عن عنوان المنزل.. وأمر سائق مركبته أن ينطلق به إلى هنا..

فانقلبت سـحنة «جوندريت».. وقال: إذا صـح ذلك وجب أن يكون هنا الآن.. وإلا كيف اتفق لك أن تسـبقي المركبة.. وتصلي قبله ؟

فأجابت إيونين: إنني انطلقت أعدو بين الأزقة.. وسلكت أقرب السبل إلى هنا..

فتحول «جوندريت» إلى زوجته وصـاح: هل سـمعت أيتها المرأة ؟! إنه قادم فاطفأي النار وتمددي على الفراش.. وأنت يا إيبونيين .. مزقي هذا المقعد.. وحطمي هذا الزجاج .

فأطاعته المرأة والفتاة.. وهتف «جوندريت» وهو يفرك كفيه: هذا حسـن.. هذا حسـن! ها نحن على اسـتعداد لاستقبال المحسن الكريم..

وما هي إلا دقائق.. حتى سمع «جوندريت» طرقًا على الباب.. فأ شار إلى امرأته وابنته أن يلزمن الصمت.. وقال: تفضل بالدخول يا سيدي !

وفتح الباب.. فدخل رجل متقدم في السن.. أشيبُ الشعر.. وبرفقته فتاة حسناء.. في مقتبل العمر..

ورأى «ماريوس».. من مخبئه.. ذلك الشيخ وتلك الفتاة.. فوثب قلبه بين ضلوعه..

لم يصدق عينيه..

كان قد رأى الفتاة للمرة الأولى في حدائق لكسمبورج منذ ستة أشهر.. فأعجب بجمالها واحتشامها.. ثم لاحظ أنها تتردد إلى الحدائق كل يوم بصـحبة ذلك الشـيخ الذي أطلق عليه.. في ما بينه وبين نفسـه.. اسـم مسـيو «لبلان» أي «الأبيض» نظرًا لبياض شـعره.. فراح بدوره يتردد إلى تلك الحدائق.. ولفت تردده نظر الفتاة.. فكانت تشـعر به كلما اقترب.. فيصعد الدم إلى وجنتيها.. ثم بادلته النظرات والابتسامات..

وتبعهما ذات يوم إلى منزلهما.. وأراد أن يستفسر من بواب المنزل عن حقيقة أمرهما وظنه البوابُ جاسوسًا.. فلم يرفض إجابته فحسـب.. بل أنبأ مسـيو لبلان بأمره.. وكانت النتيجة أن «ماريوس» لم ير الرجل والفتاة في لكسـمبورج بعد ذلك.. وعندما ذهب إلى المنزل.. أنبأه البواب بأنهما رحلا وأنه لا يعرف مقرهما..

وقضى «ماريوس» بضعة أسابيع في البحث عن صاحبته.. حتى استولى عليه اليأس.. لذلك كانت دهشته لا حد لها حين أبصرها أمامه فجأة كأنها هبطت من السماء..

ووقف مسيو لبلان بباب الغرفة.. وأجال حوله نظرة إشفاق ورثاء.. كانت غرفة صغيرة مظلمة تنبعث العفونة من جدرانها..

قال مسيو لبلان وهو يقدم لـ«جوندريت» حزمة كبيرة..

ستجد في هذه الحزمة يا سيدي ثيابًا جديدة وجوارب وأغطية..

فبسط «جوندريت» ساعديه.. وهتف ببراعة الممثل المقتدر:

جزاك الله عنا خير الجزاء أيها المحسن الكريم .

ولكنه قال لنفسه: هذا ما كنت أخشاه.. ثياب ولا شيء من النقود..

قال مسيو لبلان: أرى أنكم جديرون بالشفقة حقًا.. يا مسيو «جوندريت»..

إنني كنت ممثلاً عظيمًا يا سيدي.. إنني من تلاميذ «تالما» المشهور.. وقد عرفت معنى النجاح ومعنى السعادة.. ولكن وا أسفاه.. إن الحظ قلب لي ظهر المجن أخيرًا.. فأصبحت أنا وزوجتي وابنتاي بلا طعام.. ولا ثياب.. ولا نار.. في هذا البرد القاتل.. وها هي زوجتي المسكينة طريحة الفراش منذ شهرين.. أما هذه الغرفة فلم أدفع أجرها منذ ستة أشهر..

وكان «جوندريت» يتكلم وينظر إلى مسيو لبلان بحدة.. وقد تغضن جبينه.. وكأنه يفكر ويبحث بين ذكرياته القديمة..

وبحث مسيو لبلان في جيوبه.. ولم يجد غير قطعة من ذوات الخمسة فرنكات.. فدفعها إلى «جوندريت» وهو يقول: يا مسيو «جوندريت».. يؤسفني أنني لا أجد معي الآن غير هذا المبلغ التافه.. ولكني أعدك بزيارة أخرى في الساعة السادسة من مساء اليوم.. كم يبلغ دينك لصاحب المنزل ؟

ستين فرنكًا يا سيدي..

حسنًا ! إلى اللقاء في هذا المساء !

ودار مسيو لبلان على عقبيه.. فأسرع «جوندريت» إلى امرأته وهمس في أذنها: انظري إليه جيدًا أيتها المرأة.. وكان لبلان قد تأبط ساعد الفتاة وانصرف بها.. وعندئذ لاحظت إيبونين أنه ترك معطفه.. فصاحت: إنك نسيت معطفك يا سيدي !

فأجابها وهو يبتسم: كلا .. إنني لم أنس.. ولكني تركته..

فصاح «جوندريت»: يا لك من محسن كريم.. إن جسمي يكاد يذوب دموعًا..

وما كاد الرجل والفتاة ينصرـفان.. حتى وثب «ماريوس» من مخبئه.. وانطلق في أثر مركبتهما.. ولما عاد بعد ربع ساعة.. كان وجهه يتهلل بِشرًا.. ذلك أنه عرف منزل الشيخ والفتاة..

قال «جوندريت» لزوجته وهو يجادلها: سـأقول لك شـيئًا.. هو أنني وضـعت يدي اليوم على كنز ثمين.. وأننا سنشبع اليوم بعد جوع.. ونروى بعد ظمأ..

فسألته: ماذا تعني ؟

إليك ما أعني فأصغ إلي..

وصمت لحظة.. ثم استطرد بصوت خافت.. ولكنه ليس من الخفوت بحيث لا يصل إلى سمع «ماريوس»:

لقد وقع المليونير في الفخ هذه المرة.. إنه سيعود في الساعة السادسة.. وفي هذه الساعة يكون جارنا قد انطلق لتناول طعام العشاء.. وتكون صاحبة الدار في شغل بغسل الأطباق.. فلن يفطن إلينا أحد متى أنفذنا الخطة التي بسطتها لك..

ولكن هب أنه أنكر ورفض ؟

في هذه الحالة أرغمه على الرضوخ.. وإذا أصرَّ قتلته..

وأدرك «ماريوس» من هذه الكلمات أن الرجل وامرأته يدبران فخًا لمسـيو لبلان.. فاضـطرب وفزع.. ثم تجلد وتشجع.. وحزم أمره على إنقاذ الرجل إرضاءً للفتاة التي يحبها..

ولكن ماذا يصنع ؟

وفكر الشـاب في الأمر مليًا.. وانتهى من تفكيره إلى حل.. فغادر غرفته.. وقصـد ليقابل أحد مفتشيـ الشرـطة في مركزه.. وحدثه بما سمع..

وأصغى إليه المفتش في سكون ووجوم.. ثم سأل:

وهل تعتقد أن «جوندريت» ينوي الفتك بالرجل الذي أحسن إليه ؟

فأجاب «ماريوس»: إن جميع الأدلة تحمل على سوء الظن بهذا الرجل.. وأكبر ظني أنه سيستعين على إنفاذ خطته بآخرين على شاكلته.. لأنه هزيل ضعيف البنية .

هل معك مفتاح للباب الخارجي ؟

نعم..

أعطنيه..

فأطاع «ماريوس»..

قال المفتش: والآن.. حاول أن تعود إلى غرفتك.. وأن ترقب ما يحدث دون أن تُشعر جارك..

ومتى وجدت أن الفخ قد أُحكم وضعه.. وأن الجريمة توشك أن تتم.. أطلق رصاصة من هذه الغدارة.. فاخف إلى نجدتك واعتقال الأشقياء..

وناوله غدارة محشوة.. ثم سأل: متى يأتي الرجل ؟

في الساعة السادسة..

هذا حسن.. لا تنس أن تطلق رصاصة من المسدس !

وفعل «ماريوس» ما أشار به مفتش البوليس.. فكمن وراء الكوة.. وراح ينصت ويرقب..

كانت غرفة «جوندريت» خالية إلا من زوجته.. أما الابنتان فانطلقتا لاستجداء أكف المحسنين.. وأما «جوندريت» فإنه لم يعد إلا في الساعة الخامسة..

وفي الساعة السادسة تمامًا.. سمع «ماريوس» طرقًا على باب «جوندريت» فصاح هذا بلطف: تفضل بالدخول أيها المحسن الكبير..

وكان القادم مسيو لبلان حقًا.. فدخل الغرفة بخطى ثابتة.. ووضع على المائدة أربعة جنيهات.. وهو يقول:

إليك ما وعدتك به يا م سيو «جوندريت».. في ا ستطاعتك أن تدفع ديونك.. وتحتفظ ببقية من المال.. و سنرى ما يكون بعد ذلك .

فقال «جوندريت»: جزاك الله عنا أيها السيد النبيل !

وتظاهر بأنه يضع النود بين يدي زوجته.. وهمس في أذنها:

قولي لحوذي المركبة إن سيده يريده أن ينصرف..

فأطاعت المرأة.. وتسلل من الباب دون أن يشعر بها أحد..

وفي الوقت نفسه.. دخل الغرفة أربعة رجال.. الواحد منهم في أثر الآخر.. كانوا أ شداء السواعد.. أقوياء الأجسام.. لا يدعو منظرهم إلى الطمأنينة.. ولا تبشر وجوههم بخير .

وشعر مسيو لبلان بدخول أولئك الرجال.. وغلبت فيه غريزة الحذر فسأل: من هم هؤلاء ؟

فأجاب «جوندريت»: لا تلق إليهم بالاً يا سيدي.. إنهم جيراني !

ثم استطرد: اضطررنا أن نبيع كل ما نملك.. ولم يبق لنا سوى هذه الصورة.. إنها صورة ثمينة من صنع رسام بارع.. وأنا أحبها كما أحب ابنتي.. فهي تذكرني بالماضي السعيد! ولكنني مضطر إلى بيعها.. فهل تبتاعها يا سيدي؟ إنني لن أطالبك بثمن باهظ.. فكم تظنها تساوي ؟

فلم يحول لبلان عينيه عن الرجال الأربعة.. وأجاب بهدوء:

إنا لا تساوي أكثر من ثلاثة فرنكات..

فقال «جوندريت» في إصرار:

هل معك حافظة نقودك ؟ إنني أقنع بألف فرنك ثمنًا لها..

فاستند مسيو لبلان إلى الجدار.. ونظر حوله.. فرأى المرأة والرجال الأربعة يحرسون باب الغرفة ونوافذها..

وفجأة.. لمعت عينا «جوندريت» الشريرتان ببريق خاطف.. واعتدل ظهره المحدوب وتقدم نحو مسيو لبلان.. وزمجر بصوت كالرعد:

ليس ذلك ما أنا بسبيله ! فهل عرفتني ؟

تغير لون مسيو لبلان.. ولكنه ظل رابط الجأش.. وراح يدور بعينيه في أرجاء الغرفة كحيوان وقع في شرك..

وخُيل إلى «ماريوس» أن الوقت قد حان للتدخل.. فصوب غدارته من خلال الكوة وهمَّ بإطلاقها..

غير أن «جوندريت» انفجر ضاحكًا في تلك اللحظة.. وكان لضحكته دوي بغيض رجعت صداه جدران الغرفة..

وأعاد سؤاله على لبلان: هل عرفتني ؟

فأجاب لبلان بهدوء: كلا..

فصاح «جوندريت»: ليس اسمي «جوندريت».. إنما أنا «تيناردييه»! صاحب حانة بولانجيه ! فهل عرفتني الآن ! أنا «تيناردييه»!!

فاحمر وجه مسيو لبلان.. ولكنه أجاب بصوت هادئ النبرات: ذلك لا يعنيني !

وراح «تيناردييه» يذرع الغرفة جيئة وذهابًا وعلى وجهه ملامح الانتصار..

هتف: هأنذا قد وقعت عليك أخيراً يا سيدي المحسن .. ها .. ها .. ألا تعرفني ؟ ألم تكن أنت ذلك المليونير الذي جاء إلى حانتي في بولانجيه ليلة عيد الميلاد منذ ثمانية أعوام؟ ألم تخطف طفلتي «فانتين» من حانتي وتذهب بها ؟

فقال مسيو لبلان: إنني لا أفهم شيئًا مما تقول.. فما أنا إلا رجل فقير.. ولا صلة لي بأصحاب الملايين.. ولابد أنك توهمتني شخصًا آخر..

فبدت علامات الغضب على وجه «تيناردييه» وصاح:

لست أنا ممن يخطئون.. أصغ إلي.. إنني بحاجة إلى المال.. بل إلى الكثير من المال.. فإما أن تعطيني ما أطلب.. وإلا فالويل لك !

فصمت لبلان.. وصاح «تيناردييه»: أليس لديك ما تقول ؟

وأصرَّ لبلان على الصمت.. فجعل «تيناردييه» يسير في الغرفة بخطوات واسعة.. وقد ارتسمت على وجهه النحيل علامات القلق..

ثم وقف فجأة أمام سجينه وصاح: فتشوه !

وأقبل الرجال الأربعة على مسيو لبلان ففتشوه دون أية مقاومة من جانبه.. فوجدوا معه منديلاً وستة فرنكات..

وتناول «تيناردييه» المنديل ووضعه في جيبه.. ثم سأل: ألم تعثروا على حافظة نقود ؟

فأجابه أحد الرجال: كلا..

فتقدم «تيناردييه» من المحسن إليه.. وتكلم في رفق ولعله كان يرجو أن يظفر منه باللين بما لم يستطع أن يظفر به قسرًا..

قال: معذرة يا سيدي.. فقد أفقدني الغضب صوابي.. ولكنني تبينت الآن خطئي فأرجو صفحك.. بيد أني على استعداد للتفاهم معك وسأضحي بشيء من جانبي.. إنني لست بحاجة إلى أكثر من ألف فرنك.. ولقد يتبادر إلى ذهنك أنني مجنون حتى أطالبك بمبلغ لا تحمله الآن في جيبك.. ولكني أذكرك بأنه يوجد هنا قلم وورق فاكتب ما أمليه عليك..

وأدرك مسيو لبلان ألا فائدة تُرجى من المقاومة.. ولعله أراد أن يعرف إلى أي حد ينوي الشقي أن يمضي في مكيدته.. فتناول القلم وشرع يكتب.. و«تيناردييه» يُملي عليه: «ابنتي العزيزة : تعالي سريعًا.. فإنني في أشد الحاجة إليك.. وسيرشدك حامل هذه الرسالة إلى مكاني »..

فوضع مسيو لبلان القلم وسأل: لمن هذه الرسالة ؟

فأجابه «تيناردييه»: أنت تعرف لمن هي.. إنها لابنتك.. أسرع ووقع عليها بإمضائك..

فهز لبلان رأسه بهدوء.. وقال بصوت ثابت النبرات: كلا..

فزمجر «تيناردييه» وضرب الأرض بقدمه.. وصاح بأحد رفاقه: أحمِ القضبان الحديدية يا بيجول..

وصاح في آخر: وأنت يا مونبارناس.. اكشف عن ساعده.. سأعلمه كيف يُطيع..

ولكن المدعو مونبارناس ما كاد يقترب من مسيو لبلان.. حتى دوى في المكان طلق ناري.. وامتلأت الغرفة بالدخان.. فأفلتت من فم «تيناردييه» صرخة ذعر.. وصاح: ما هذا ؟

وفي اللحظة نفسها فُتح الباب.. ودخل المفتش «جافير» وهو يقول بهدوئه المخيف: لا شيء.. لا شيء.. كونوا مطمئنين..

ودخل في أثره سبعة من الشرطة.. وحدثت في الغرفة ضجة سريعة.. انتهت على نحو ما يحب «جافير»..

قال المفتش لرجاله: ضعوا أيديهم في الأصفاد..

ثم سأل: أين السيد الذي أرادوا قتله ؟

وكان مسيو لبلان قد انتهز فرصة الاضطراب الذي ساد الغرفة.. فوثب من النافذة وتوارى عن الأبصار..

قال «جافير» مرة أخرى: أين هذا السيد ؟!

ولكنه لم يسمع جوابًا..

ولم يستطع قط أن يعرف لماذا فر الرجل.. وقد قلق لذلك لأنه يعتقد أن المجني عليه الذي يلوذ بالفرار هو أجدر بالشك من الجاني..



رحلات غامضة

اعتاد «جان فالجان» أن يقوم من وقت إلى آخر برحلات غامضة فيغيب يومين أو ثلاثة.. ويلزم الصمت بشأن هذه الرحلات.. ولا يقدم عنها لـ«كوزيت» حسابًا..

ولكن «كوزيت» لاحظت أنه لا يقوم بهذه الرحلات إلا إذا نفدت نقوده.. كما لاحظت أنه يعود دائمًا وجيبه مليء بالأوراق المالية..

وقد أوصاها «جان فالجان» بأن تلزم المنزل في غيابه.. فلا تبرحه أبدًا..

في مساء أحد الأيام.. كانت «كوزيت» جالسة في حديقة المنزل الصغير الذي استأجره «جان فالجان».. والذي كان في وقت ما وكرًا لعشيقة أحد الوزراء..

وكان «جان فالجان» قد انطلق.. في اليوم السابق.. في إحدى رحلاته الغامضة فبقيت «كوزيت» وحدها.. ثم استوحشت المنزل فخرجت إلى حديقته وجلست هناك على مقعد حجري.. وراحت تتأمل السماء والنجوم شأن جميع العاشقين..

وفجأة.. أحسَّت بذلك الشعور الخفي الذي يُحس به الإنسان إذا تسلل وراءه شخص.. فنظرت خلفها ورأت الشاب الذي طالما أبصرته في حدائق لكسمبورغ وبادلها النظرات والبسمات..

نهضت واقفة.. وترنحت في مكانها.. وحدثتها فطرتها بالفرار.. ثم حدثها قلبها بالبقاء.. فتهالكت على المقعد.. وأطرقت رأسها.. وسمعته يتكلم بصوت لا يرتفع عن حفيف أوراق الشجر.

كان يقول: معذرةً ! فما أردت أن أزعجك.. ولكني لم أُطِق الحياة بعيدًا عنك.. فهل تعرفينني ؟ هل تذكرين يوم تقابلنا للمرة الأولى؟ كان ذلك في يوم ١٦ يونيو .. وهو تاريخ لا أنساه..

ثم هل تذكرين اليوم الذي لم نتقابل بعده؟ إنه يوم ٢ يوليو..

ولكني رأيتك في هذه الحديقة منذ بضعة أيام.. وهممت أن أثب من فوق السور كما وثبتُ الليلة.. ولكني رأيت خادمتك مقبلة.. فأطلقت ساقي للريح..

أفلا تسمحين لي بمقابلتك هنا في مستقبل الأيام ؟ إنك لا تعلمين كم أحبك..

وتناول يدها.. وضغطها على قلبه دون أن يعلم ما هو فاعل..

وتناولت يده بدورها.. ووضعتها على قلبها.. فهتف: أتحبينني إذًا ؟

فأجابت بصوت خافت لا يكاد يرتفع على أنفاسها: صه ! أنت تعلم أنني أحبك.

وأخفت وجهها في صـــدره.. وثمل الفتى بنشـــوة الســـعادة والحب والكبرياء.. ولم يدر.. ولم تدر كيف تقابلت شفاههما..

كانت قبلة أعقبها صمت طويل.. كأنما فقدا حاسة النطق..

وهدأت ثورة العاطفة بالتدريج.. وتبادلا الحديث حتى تغلغل كل منهما في أعماق صـــاحبه.. وأخيراً ســـألته: ما اسمك ؟

فأجاب: «ماريوس».. واسمك ؟

«كوزيت»..

وفي الليلة التالية.. ذهب «ماريوس» لمقابلتها في الموعد نفسه.. والمكان نفسه.. فوجدها في انتظاره.. ولكنها كانت حزينة.. وقد احمرت جفونها من تأثير البكاء.. فذُعر.. وهاله أن يطفو الكدر فوق حلمه السعيد بمثل هذه السرعة..

هتف من قلب يتمزق حزنًا: ماذا بك ؟

فأجابت: سأحدثك في صراحة.. لقد طلب مني أبي أن أستعد للرحيل..

ففتح «ماريوس» عينيه في دهشـــة.. وخانه النطق.. وأحســـت الفتاة بيد باردة كالثلج بين يديها فســـألته بدورها: ماذا بك ؟

أجاب: إنني لم أفهم ما تعنين..

قالت: لقد عاد أبي اليوم.. وأمرني أن أعد أمتعتي وأكون على اســتعداد لأننا ســنبحر إلى إنجلترا في خلال أســبوع.. لشأن يهمه.. فهتف الشاب: إلى إنجلترا؟! ولكن هذا مخيف..

كان من القســوة.. في نظره.. وســوء اســتغلال الســلطة أن يذهب مســيو «فوشــليفان».. وهو الاســم الذي قالت «كوزيت» إنه اسم أبيها ـ بابنته إلى إنجلترا لا لشيء إلا لأن عملاً هناك..

سأل بصوت خافت: ومتى يكون الرحيل ؟

لم يذكر لي موعده بالتحديد..

ومتى ستعودان ؟

لم يحدثني في هذا الصدد..

فنهض «ماريوس» واقفًا وقال ببرود: وهل تذهبين معه؟

فضمت يديها فوق صدرها.. وأجابت بلهجة اليأس والحزن:

وماذا أستطيع أن أفعل ؟

إذًا فقد اعتزمت الرحيل معه ؟

فضغطت على يده ولم تُجب.. ثم قال: في هذه الحالة يجب أن أرحل بدوري..

فحاولت الفتاة فهم هذه العبارة.. ولكنها أحست بالجزع.. وصاحت: ماذا تعني؟

فأجاب ببطء: أصغي إلي يا «كوزيت».. إنني لم أحنث بقسمي قط.. ولكن أقسم لك بشرفي الذي أحترمه أكثر من حياتي.. بأنك إذا رحلت فإنني أورد نفسي موارد الهلكة..

قال ذلك بلهجة هادئة رزينة جعلت الفتاة ترتجف من قمة رأسها إلى أخمص قدميها..

ثم قال: لا تنتظريني غدًا يا «كوزيت»..

ولماذا ؟

انتظريني بعد غد..

لماذا ؟ لماذا ؟

سوف ترين..

أتسمح بأن ينقضي يوم دون أن أراك ؟

فتناول يدها بين يديه.. وحدقت الفتاة في عينيه لترى ماذا فعلت كلماتها..

قال: وبهذه المناسبة يجب أن تعرفي عنواني على سبيل الحيطة.. فقد تركت منزلي القديم.. وإني أقيم الآن مع صديق لي يدعى «كورفيراك» في المنزل رقم ١٦ بشارع لافيراري..

وبحث في جيوبه.. وأخرج مطواة.. واستخدم نصلها في حفر هذا العنوان على المقعد الحجري..

فقالت وقد اشتد جزعها وقلقها: لماذا لا تصارحني حتى بما يدور بخلدك يا «ماريوس» ؟

فأجاب بحماسة: إليك ما أفكر فيه.. من المستحيل أن يرضى الله بفراقنا.. وستعلمين المزيد متى تقابلنا بعد غد..

وكيف أقضي يوم غد؟ إنك حر طليق.. تروح وتغدو وترفه عن نفسك كما تشاء.. أما أنا فسأقضي النهار وحيدة حزينة.. فما أسعد الرجال.. وما أشقى النساء !

ولكن حدثني ماذا تنوي أن تفعل غدًا ؟

فأجاب: سأقوم بمحاولة..

في هذه الحالة سأبتهل إلى الله أن تثمر محاولتك.. ولكن لا تنس أنني سأكون في انتظارك هنا بعد غد.. في مثل هذه الساعة .

وتعانقا .. وافترقا..

كانت لـــ«ماريوس» قصة .. فهو لم يخلق ليكون جارًا لرجل مثل «تيناردييه».. كان «ماريوس» حفيد شيخ واسع الثراء يُدعى «جيلنورمان»..

وكانت لجيلنورمان ابنتان.. ظلت إحداهما عانسًا.. واقترنت الأخرى برجل يُدعى «بونمرسي».. وتوفيت بعد أن وضعت «ماريوس»..

وعاش «ماريوس» في كنف جده.. ونَعِمَ بثروته ومجده.

وفرقت المبادئ السياسية بين جيلنورمان و«بونمرسي».. فالأول عريق في نُصرة الملكية.. والثاني من جنود نابليون الذين تذوقوا معه لذة الانتصار.. ومرارة الهزيمة.. وأبدوا معه في جميع المعارك أحسن البلاء..

وكان «بونمرسي» يضن بأواصر القرابة ويخشى أن تعصف بها أعاصير السياسة.. ولكن جيلنورمان كان شيخًا عنيدًا يعتبر الخصومة السياسية ضربًا من الخصومة الشخصية.. واشتد حنقه على زوج ابنته حين أنعم عليه الإمبراطور بلقب بارون ن واستحال الحنق إلى كراهة حين توفيت ابنته..

ولكنه تعهد «ماريوس» بالعناية.. وحرص على أن يمحو من ذهنه صورة أبيه..

وكبر «ماريوس» وترعرع.. والصلة بينه وبين جده كأفضل ما تكون الصلات بين الأجداد والأحفاد..

وتوفي «بونمرسي» بعيدًا عن ولده.. وتحدث أحد الخدم إلى «ماريوس» بقصة الخلاف الذي شجر بين جده وأبيه.. وعرف الفتى المزيد من قصة أبيه فأكبره.. وأحل ذكراه محلاً مقدسًا..

وفي أحد الأيام عثر جلينورمان الشيخ في غرفة صغيرة على بطاقة باسمه كتب عليها: «البارون ماريوس دي بونمرسي»..

وكان قد كتم عنه هذا اللقب الذي أنعم به نابليون على أبيه.. فثارت ثائرته.. ودعا إليه «ماريوس» وصـاح وهو يلوح بالبطاقة: ما معنى هذا يا سيدي ؟

فاحمر وجه «ماريوس» وأجاب: معناه .. أنني ابن أبي..

فضحك الشيخ.. وقال بصوت خشن: إنني أبوك..

فقال «ماريوس» دون أن يرفع عينيه إلى وجه جده:

لقد كان أبي فقيراً.. ولكنه .. ولكنه كان شجاعًا.. وقد أراق دمه في سبيل الجمهورية الفرنسية ومات منسيًا.. ولم يرتكب في حياته إلا جريمة واحدة.. هي أنه أحب شيئين جاحدين.. هما وطنه وابنه..

وكان ذكره أكثر مما يطيق الشيخ سماعه.. فصاح: «ماريوس».. إنني لا أعرف من كان أبوك.. ولا أريد أن أعرفه.. وبحسـبك أن تعلم أن الذين خدموا روبسـبيير كانوا لصـوصًـا.. والذين خدموا نابليون كانوا قطاع طرق.. جميعهم مجرمون خونة لأنهم تنكروا لمليكهم الشرعي.. وجميعهم جبناء لأنهم فروا أمام النمساويين في عهد روبسبيير.. وأمام الإنجليز في واترلو..

هذا كل ما أعلمه.. وإذا كان أبوك قد اشترك مع هؤلاء الخونة الجبناء فذلك ما أجهله وما آسف له..

وكان الفتى يرتجف حنقًا وغضـبًا.. فقد أُهين أبوه على مسـمع منه.. ومن ذا الذي أهانه؟! جدُه.. ولم يدر كيف يمحو هذه الإهانة.. ولا كيف يعاقب المهين.. ووجد نفسه واقفًا والقبر المقدس عن يمينه.. والشعر الأبيض عن يساره.. فترنح كالثمل ثم نظر إلى جده بحدة وصاح: ليسقط آلا بوريون ! ليسقط لويس الثامن عشر !

وكان لويس الثامن عشرـ قد توفي منذ أربعة أعوام.. ولكن ذلك لم يرفه من غضـب الشـيخ الذي احمر وجهه في الحال.. ثم مشي إلى الباب ببطء حتى إذا بلغه تحول إلى حفيده وقال في هدوء:

إن بارونًا مثلك وصعلوكًا مثلي لا يستطيعان البقاء تحت سقف واحد..

وهكذا ترك «ماريوس» بيت جده..

وفي اليوم التالي قال جيلنورمان لابنته:

أرسلي إلى هذا الثائر ستين جنيهًا كل ستة أشهر.. وحذار أن تذكري اسمه على مسمع مني..

ولكن «ماريوس» كان يرد المبلغ الذي أرسل إليه.. وقنع بالمرتب الضئيل الذي كان يتقاضاه من أحد المحامين..

وانقضت بضعة أشهر لم يسمع الشيخ في خلالها كلمة واحدة عن حفيده.. رغم حنانه عليه وشوقه.. إلى أن كانت إحدى الأمسيات إذ دخل عليه خادمه وقال: هل يسمح سيدي بمقابلة مسيو «ماريوس» ؟

فاعتدل الشيخ في جلسته.. ومرت في جسده وفي نفسه هزة عنيفة.. هتف: من هو «ماريوس» هذا ؟

لا أعلم.. قالت لي الخادمة إن مسيو «ماريوس» يرجو مقابلتك..

فأجاب الشيخ بصوت خافت: دعه يدخل..

ووقف «ماريوس» بالباب.. كأنه ينتظر أن يدعوه جده إلى الدخول..

ولم ير الشيخ ثوبه الرث فقط.. رأى وجهه الشاحب الحزين.. وشعر برغبة شديدة أن يبسط له ساعديه.. ويضمه إلى صدره..

كان قلبه يذوب حنانًا.. ولكنه لما تكلم انبعث صوته قاسيًا..

قال: ماذا جئت تفعل هنا؟ هل جئت تطلب صفحي.. ومغفرتي ؟ هل أدركت خطأك ؟

فضم «ماريوس» يديه فوق صدره.. وقال بصوت خافت مرتجف: رحمة بي يا سيدي !

تكلم ! ماذا تريد مني ؟

أنا أعلم.. يا سيدي.. أن وجودي هنا يزعجك.. ولكني جئت أطلب أمرًا واحدًا.. ثم أنصرف..

فقال الشيخ: إنك أحمق.. من ذا الذي طلب إليك أن تنصرف ؟!

ثم عقد ساعديه فوق صدره بكبرياء.. وقال: لنضع حدًا لهذا الحديث يا سيدي.. قلت إنك جئت في طلب شيء.. فما هو ؟

فقال «ماريوس».. وفي عينيه النظرة التي تتراءى في عين المشرف على هوة سحيقة:

سيدي: إنني جئت أطلب موافقتك على زواجي..

فدق جلينورمان الجرس.. وأقبل الخدم فقال له: أُدُع ابنتي..

ولزم الصمت إلى أن جاءت الآنسة جلينورمان.. فقال لها ساخرًا: لقد دعوتك لكي أقول إن هذا السيد يريد أن يتزوج.. والآن.. اذهبي..

وكان صوته ينم عن الغضب الهائل الذي يعصف في صدره.. فنظرت ابنته إلى «ماريوس» من قمة رأسه إلى أخمص قدميه.. وانصرفت دون أن تنطق بكلمة..

وأخذ الشيخ يمشي في الغرفة جيئة وذهابًا.. ثم أدار ظهره إلى حفيده.. وقال وهو يشد مرفقيه على حافة الموقد: تريد أن تتزوج وأنت في الحادية والعشرين؟ ولا ينقصك إلا أن تخبرني بذلك على سبيل العلم بالشيء.. تفضل بالجلوس يا سيدي..

ثم أردف قبل أني تمكن «ماريوس» من الكلام أو الجلوس: هل لك مهنة يا سـيدي ؟ هل تملك ثروة ؟ كم تربح الآن من عملك؟ فأجاب «ماريوس» بحدة: لا شيء يذكر . في هذه الحالة لابد أن تكون الخطيبة العزيزة واسـعة الثروة..

إنها.. مثلي.. لا تملك شيئًا..

مثلك؟ لا تملك شيئًا وليست لها ثروة ؟

نعم..

وما اسمها..

اسمها مدموازيل «فوشليفان»..

فقال الشيخ بلهجة من يتحدث إلى نفسه: عمره إحدى وعشرون سنة ولا عمل له.. ولا ثروة.. وزوجته البارونة مونمارنسي لا تملك قوت يومها.. هذا بديع !

وشعر «ماريوس» بآخر آماله ينهار.. فصاح: سيدي ! إنني أضرع إليك وأرتمي تحت قدميك متوسلاً أن تسمح لي بالاقتران بها..

فانفجر الشيخ ضاحكًا.. وقال: آه.. أكبر الظن أنك قلت لنفسك: «إنني الآن دون الخامسة والعشرين من عمري.. ولا حق لي في الزواج بغير إذن ولي أمري.. فلأذهب إلى هذا الشـيخ المأفون.. لأقول له: أيها الشـيخ! إنك تكاد تطير فرحًا برؤيتي.. ولذلك يجب أن تسمح لي بالاقتران بالآنسة كذا.. فإنها جديرة بي.. وأنا جدير بها.. فهي لا تملك حذاء.. وأنا لا أملك قميصًا.. وإنني على استعداد لأن ألقي في النهر بشبابي ومستقبلي وحياتي.. ما دامت تحبني.. ذلك هو ما حزمت أمري عليه.. فيجب أن توافق.. فيبتسم الشيخ المأفون.. ويوافق »..

أبي !

أبدًا !

قال الشيخ مرة أخرى: تكلم.. وحدثني بقصة غرامك.. يا إلهي.. ما أشد غباوة الشباب ! فرد «ماريوس»: أبي..

وأضاء وجه الشيخ.. وغمغم: نعم.. نعم.. أُدعني أباك..

وانبسطت أساريره بعد عبوس.. وسالت عيناه حنانًا بعد قسوة..

قال وهو ينظر إلى حفيده في دهشة:

أحقًا أنك لا تملك مالاً؟ إنك ترتدي ثيابًا كثياب اللصوص.. إليك مائة جنيه لتبتاع ثيابًا جديدة..

ما أطيب قلبك يا أبي! لو تعلم فقط كم أحبها! إنني رأيتها للمرة الأولى في حدائق لكســـمبورج فلم أُلِق إليها بالاً في أول الأمر. ثم غرقت في حبها إلى أذني دون أن أشـــعر.. وقابلتها مرتين في حديقة بيتها تحت جنح الظلام دون أن يعلم أبوها.. فتصــــور هذا يا أبي ! ولكن أباها يريد الآن أن يرحل بها إلى إنجلترا.. فقلت لنفسيـــ «لأذهب إلى أبي وأحدثه بكل شيء».. ولابد أن أقترن بها وإلا أُصاب بالجنون..

وأصغى الشيخ إلى حديث حفيده.. حتى إذا فرغ من كلامه.. نظر إليه في رفق وقال: أصغ يا ولدي.. إن الإنسان يستطيع أن يستمتع بالحب دون أن يقتل نفسه بالزواج.. فهل فهمتني ؟!

فهز «ماريوس» رأسه سلبًا.. وصاح الشيخ: أيها الأبله.. لماذا لا تتخذها عشيقة ؟

فامتقع وجه «ماريوس».. ونهض واقفًا.. وتناول قبعته.. ومضى إلى الباب بخطوات ثابتة.. وهناك تحول إلى جده.. وأحنى قامته باحترام.. وقال:

إنك منذ بضعة أشهر أهنت أبي.. واليوم أهنت زوجتي.. فليس عندي ما أقوله لك يا سيدي.. وداعًا !

فجمد الشيخ في مكانه وفتح فمه ليتكلم.. وحاول أن ينهض..

وقبل أن يفعل شيئًا من ذلك.. كان «ماريوس» قد أغلق الباب وراءه ومضى في سبيله..

وقصد مسيو جيلنورمان إلى الباب بأقصى سرعة شيخ في التسعين من عمره وفتحه.. وصاح: النجدة ! النجدة !

ولما خفت إليه ابنته قال لها بصوت متحشرج:

أسرعي في أثره.. أمسكي به.. إنني أهنته.. فجن جنونه.. ومن المؤكد أنه لن يعود بعد هذه المرة..

وأطل من النافذة.. وجعل يلوح بيديه المرتجفتين ويصيح:

«ماريوس».. «ماريوس».. «ماريوس»..

ولكن الفتى كان قد غاب عن الأبصار..

ثورة ضد الحكومة

هبط «جان فالجان» إلى حديقة المنزل.. وراح ينتقل بين أشجارها.. وهو مستغرق في التفكير..

كان الحادث الذي وقع له أخيراً مع «تيناردييه» قد أزعجه.. وأزعجه أن يمر «جافير» بحياته مرة أخرى.. وعلى الرغم من أنه كان واثقًا من أن «جافير» لم يلمحه في بيت «جوندريت» المزعوم.. فإنه لم يشعر بالطمأنينة.. واشتد قلقه حين أحس بأن الجو السياسي أصبح مشحونًا بالكهرباء.. وسمع في الطرقات وفي كل مكان ذهب إليه همسًا عن ثورة تدبَّر لإسقاط الحكومة وإعلان الجمهورية..

ولهذا كله.. قرر أن يبرح فرنسا إلى إنجلترا.. وطلب إلى «كوزيت» أن تستعد لهذه الرحلة..

بيد أنه كان مهمومًا دائم التفكير في العقبات التي تحول دون حصوله على جواز للسفر..

وتعب من السير بين الأشجار.. وهمَّ بالجلوس على المقعد الحجري.. وعندئذ وقع بصره على هذه الكلمات: «رقم ١٦ شارع لافيراري» محفورة على المقعد بخط يختلف عن خط «كوزيت»..

قطب حاجبيه.. وزاد قلقه .

هذه الكلمات لم تكن هناك في اليوم السابق.. وإذًا فلا بد أنها حفرت على المقعد الحجري أثناء الليل.. وذلك دليل على أن شخصًا أو أشخاصًا اجتازوا سور الحديقة في ظلام الليل..

أما «ماريوس» فإنه خرج من بيت جده في حالة يُرثى لها.. ذهب إلى ذلك البيت بأمل ضعيف وانصرف منه بيأس عظيم.. وقضى النهار كله هائمًا على وجهه في انتظار الموعد المتفق عليه مع «كوزيت»..

ووصل إلى سمعه.. وهو يسير على غير هدى.. ضجيج عظيم يأتي من أنحاء المدينة.. وحمل النسيم إلى أذنيه صياح الغوغاء والطلقات النارية.. فسأل نفسه:

ما معنى هذا ؟ هل ثمة معركة ؟

وصادفه في الطريق صديقة كورفيراك.. الذي يشاطره غرفته.. وكان يعدو ويلهث.. فسأله: إلى أين أنت ذاهب ؟

فأجابه كورفيراك وعلى شفتيه ابتسامة ذات مغزى:

أنا ذاهب لإسقاط الحكومة.. هذا وقت النضال في سبيل الحرية والإخاء والمساواة.. أتضن بدمك على هذه المبادئ الثلاثة التي يجب أن يتألف منها الدستور الإنساني ؟

فصاح «ماريوس» وقد لمعت عيناه:

على مذبح هذا الدستور جاد أبي بدمه.. فحدثني إلى أين أنت ذاهب ؟

إلى المتاريس في شارع سان أنطوان..

ومضى كورفيراك في سبيله..

و شعر «ماريوس» بالقلق وعدم الا ستقرار.. وود لو يغمض عينيه فيرى النهار قد انصرم والليل قد أقبل.. فيخف إلى مقابلة «كوزيت» وينعي إليها أمله في الحياة والسعادة في الحب.. ويودعها الوداع الأخير..

ولكن شاءت الأقدار ألا ينعم بهذه السعادة المريرة.. سعادة توديعها.. و ضمها إلى صدره للمرة الأخيرة.. فإنه لما ذهب إلى بيت «كوزيت» بعد ساعات طويلة مرت كأنها دهر.. رأى الباب مفتوحًا.. والمنزل يسبح في الظلام الدامس.. ولا أثر فيه أو في الحديقة لإنسان..

هتف من قلب يتمزق حزنًا ويأسًا: «كوزيت».. «كوزيت»..

ولكنه لم يسمع جوابًا..

وبعد دقائق.. كان يعدو كالمعتوه في الطريق إلى شـــارع ســـان أنطوان حيث اقام الثائرون المتاريس.. وتأهبوا لمقاومة رجال الحرس الوطني..

أما ما حدث.. فهو أن «جان فالجان» ما كاد يقرأ ذلك العنوان على المقعد الحجري في حديقة المنزل حتى ملكته الوساوس والهواجس.. وشعر شعورًا غامضًا بأنه لم يعد في مأمن.

وراح يقلب وجوه الرأي.. وانتهى من تفكيره إلى وجوب الانتقال من ذلك المنزل في الحال..

وما أن اختمرت لديه هذه الفكرة حتى انصرف من المنزل.. وعاد إليه بعد ساعة.. وقال لـــ«كوزيت» إن لديه من الأسباب ما يحتم انتقالهما في الحال إلى المنزل رقم ٧ بشارع «لوم آرميه»..

وبهتت «كوزيت» وفكرت في موعدها مع «ماريوس».. وحاولت أن تُثني «جان فالجان» عن عزمه.. أو ترجئ الانتقال إلى اليوم التالي على الأقل..

ولأول مرة في تاريخ سعادتهما المزدوجة.. تعارضت إرادة «كوزيت» مع إرادة «جان فالجان».. ولم يسع الفتاة في النهاية إلا الإذعان..

واجتمع الاثنان في المســـاء حول مائدة الطعام.. فلم تأكل «كوزيت» إلا القليل واعتذرت بصـــداع.. وانطلقت إلى غرفتها.. وبقي «جان فالجان» وحيدًا..

كان مطمئنًا.. ناعم البال.. فقد زالت مخاوفه وشكوكه.. ولم يزعجه «صداع» «كوزيت».. وأدرك أنها غضبة سوف تهدأ قبل بزوغ شمس اليوم التالي..

وبينما هو يسير في إحدى الغرف متفقدًا.. إذا بعينيه تستقران على شيء غريب..

قرأ بوضوح وجلاء هذه الكلمات منعكسة على مرآة في الجدار:

«مسيو «ماريوس» «بونمرسي».. بمنزل مسيو كورفيراك.. رقم ١٦ شارع لافيراري: يؤسفني أن أنهي إليك نبأ إصرار أبي على الرحيل من البيت في الحال.. وسنكون الليلة بالمنزل رقم ٧ بشارع «لوم آرميه».. وبعد أسبوع نرحل إلى لندن».. «كوزيت»..

جمُدَ «جان فالجان» في مكانه..

كانت هذه الكلمات منعكسة على المرآة من ورقة نشاف نسيتها «كوزيت» على مائدة أمام المرآة..

واقترب «جان فالجان» من المرآة.. وقرأ الرسالة مرة أخرى.. ولم يصدق عينيه..

وتناول ورقة النشاف.. وقلبها بين يديه.. ثم ترنح.. وسقطت الورقة من يده.. وسقط جسمه على أحد المقاعد..

لم يخطر بباله أن «كوزيت» يمكن أن تغيب من حياته في أحد الأيام.. إلا إذا أمكن أن يغيب النور من الدنيا..

كانت تلك هي المحنة العظمى.. وهل من محنة أعظم من أن يفقد في لحظة واحدة كل ما يحب في هذه الحياة ؟

ووجد «جان فالجان» نفسه بباب المنزل دون أن يشعر..

كان عاري الرأس.. مشعث الشعر شاحب اللون.. وفي عينيه نظرة ذاهلة شاردة..

وجلس.. دون أن يشعر.. على مقعد خشبي بجانب الباب..

وكان الظلام حالكًا.. والشارع مقفرًا إلا من بعض الناس وهم يهرولون إلى بيوتهم.. وطلقات البنادق تدوي من بعيد.. ويحمل النسيم دويها إلى آذانهم..

ولكن «جان فالجان» لم ير ولم يسمع شيئًا.. وانقضت ساعة أو بعض الساعة وهو قابع في مكانه كتمثال من رخام لا يتنفس ولا يتحرك..

واشتد دوي الرصاص فجأة.. فرفع «جان فالجان» رأسه.. ونظر حوله كأنه يبحث عن مصدر الدوي.. وعندئذ وقع بصره على غلام من غلمان الأزقة وهو يروح ويجيئ أمام المنزل.. وينعم النظر ببابه كأنه يبحث عن شيء..

فخرج «جان فالجان» عن ذهوله.. وسأل الغلام في رفق: ماذا بك يا بني ؟

فأجاب الغلام: ليس بي من شيء .هل أنت من أهل هذا الشارع..

نعم.. لماذا ؟

هل تعرف أين يوجد المنزل رقم ٧ ؟

وما شأنك والمنزل رقم ٧؟

فهم الغلام بالكلام.. ثم تردد وصمت..

وبدا ل«جان فالجان» خاطر فسأل: هل جئت بالرسالة التي أنتظرها ؟

التي تنتظرها أنت ؟ إن الرسالة لامرأة..

إنها للآنسة «كوزيت».. أليس كذلك ؟

«كوزيت» ؟ نعم.. أظن أن هذا اسمها..

فقال «جان فالجان»: إذًا فاعطني الرسالة..

ما دمت تعرف بأمر هذه الرسالة.. فيجب أن تعلم كذلك أنني قادم بها من المتاريس..

طبعًا أعلم ذلك..

فدسَّ الغلام يده في جيبه.. وأخرج ورقة مطوية دفع بها إلى «جان فالجان» وهو يقول:

يخيل إلي أنك رجل أمين.. وأنك ستوصل الرسالة إلى صاحبتها..

وتركه ومضى..

ودخل «جان فالجان» المنزل.. وبسط الورقة بين أصابعه.. ولم ير من محتوياتها غير هذه العبارة:

«.. إني أموت .. وعندما تقرأين هذه الرسالة تكون روحي بمقربة منك »..

قرأ هذه العبارة.. واستولى عليه ذهول مخيف.. وكأنما هدَّته الانفعالات الهائلة التي عصفت في أعماقه..

نظر إلى رسـالة «ماريوس» بشيـء من الارتياح.. وكأنه يرى فيها مصرـع هذا الإنسـان البغيض.. وأحس بأن حملاً ثقيلاً قد ارتفع فجأة عن صدره..

نعم.. قد زال غريمه.. واتصلت سعادة مستقبله بسعادة ماضيه.. ولن يقف بينه وبين «كوزيت» منافس بعد الآن..

ليس عليه إلا أن يطوي الورقة.. ويخفيها في جيبه.. فلا تعلم «كوزيت» إلى الأبد بما صار إليه أمر ذلك الشاب..

بمثل هذا كان يتحدث إلى نفسه.. وهو مطرق رأسه.. وقلبه مفعم بالأسى..

وبعد ساعة شوهد وهو يغادر المنزل في ثوب جندي ن جنود الحرس الوطني جاءه به البواب..

رابط الثوار في شارع سان أنطوان.. وأقاموا فيه متاريس عظيمة من الأخشاب والأحجار وأكياس الرمل.. واتخذوا من إحدى الحانات مركزًا للقيادة.. وتأهبوا لمقابلة جنود الحرس الوطني..

وقد وصل «ماريوس» في الوقت المناسب.. حين كان الثوار ينظمون صفوفهم.. ويضعون خطط الهجوم والدفاع..

ولم يكن جنود الحكومة قد وصلوا بعد لإجلاء الثوار عن معقلهم.. فلم يجد «ماريوس» صعوبة في الوصول إلى المتاريس.. والانضمام إلى صديقه كورفيراك..

ولفت نظره وهو يسير بين أكياس الرمل رجل طويل القامة متين البناء.. يشتغل بنشاط في إقامة الحواجز.. وخُيل إليه أنه يعرف هذا الرجل.. ثم أسعفته ذاكرته فأمسك بساعد كورفيراك.. وسأله.. هل تعرف هذا الرجل ؟

وأشار إليه.. فأجاب كورفيراك: كلا !

- إنه جاسوس.. إنه رجال الشرطة..

- هل أنت واثق ؟

- إنني عرفته منذ بضعة أيام..

فأسرع كورفيراك إلى صديقه «أنجولراس» الذي أشرف على إقامة المتاريس.. وتولى الدفاع عنها.. ولعب دورًا خطيراً في تلك الثورة الدامية.. فهمس في أذنه كلامًا.. فدعا أنجولراس ثلاثة من رجاله الأشداء.. وقصد بهم إلى حيث كان الرجل الذي أومأ إليه «ماريوس».. وسأله: من أنت يا هذا ؟

ولا شك في أن الرجل لم يكن يتوقع هذا السؤال لأنه رفع رأسه بحدة وحملق في عيني أنجولراس وعلى شفتيه ابتسامة سخرية واحتقار ثم قال: لقد عرفت ما يدور بخلدك..

- هل أنت جاسوس ؟

- إنني من رجال الحكومة..

- واسمك ؟

- «جافير»..

فأشـار أنجولراس إلى أعوانه فانقضـوا على «جافير» وطرحوه أرضًـا وشـدوا وثاقه.. ثم فتشـوه.. ووجدوا في جيوبه بطاقة باسمه.. وبعض النقود.. ورسالة بخط مدير الشرطة تتضمن هذه العبارات:

«على المفتش «جافير» بعد الفراغ من مهمته السياسية أن يراقب ضفة «السين» اليمنى بالقرب من قنطرة «يينا» حيث يلجأ المجرم «تيناردييه» الذي تمكن من الفرار أثناء نقله إلى السجن »..

وأمر أنجولراس بنقل المفتش «جافير» إلى الحانة..



إبادة الثوار

كانت المعركة التي وقعت بين الثوار ورجال الحرس الوطني في شارع سان أنطوان.. والشوارع المحيطة به من المجازر الدموية الخالدة في تاريخ الثورة الثانية.. ونحن لا يهمنا من أمر هذه المعركة إلا ما يتصل بأبطال هذه القصة.. فنقول إن جنود الحرس استطاعوا بعد معركة عنيفة شغلتهم الليل كله.. واستخدموا فيها السيوف والبنادق والمدافع.. أن يبيدوا الثوار.. ويهدموا حصونهم ومتاريسهم.. فلما بزغت الشمس.. لم يكن قد بقي على قيد الحياة من زعماء الثورة غير تسعة أشخاص.. اعتصموا بالحانة ونشطوا للدفاع عنها..

ثم ضيق الجنود الحصار على الحانة وتأهبوا لنسفها.. فجمع أنجولراس أعوانه لاستطلاع رأيهم.. فإما الجلاء.. وإما الدفاع إلى النهاية والموت تحت أنقاض الحانة.

وانتهى الرأي إلى أن الجلاء أولى بهم.. وأجدى على قضية الثورة.. وتم الاتفاق على أن تكون الأسبقية في الجلاء لأصحاب العائلات.. على أن يبقى الآخرون لمناوشة الجنود.. ومنعهم من الهجوم..

وكان بينهم خمسة من أرباب العائلات ولديهم أربعة ثياب رسمية غنموها من رجال الحرس الوطني الذين وقعوا في أسرهم.. وكانت هذه الثياب هي عدتهم للفرار.. والخروج من نطاق الجنود.. فصار من الضروري أن يبقى مع المدافعين عن الحانة واحدًا من أرباب العائلات..

والبقاء في الحانة معناه الهلاك.. فأي الخمسة يجب أن يبقى ؟

صاح كل من الرجال الخمسة: أنا أبقى..

وصاحوا جميعًا: ليحيى الموت..

قال أنجولراس: أيها الإخوان.. إن الجمهورية ليست غنية بالرجال.. والتضحية.. بلا سبب.. جريمة.. ومتى كانت للإنسان أسرة يعولها فليس من حقه أن يضحي بنفسه.. أتريدون أن تموتوا ؟! هذا حسن.. موتوا إذًا.. وليتضور أطفالكم جوعًا غدًا..

إن المسألة مسألة أمهات وزوجات وبنات.. فالرجل إذا جاع استجدى: أما المرأة فإنها إذا جاعت باعت..

فصمت الرجال الخمسة وأطرقوا رؤوسهم..

قال أنجولراس محدثًا «ماريوس»:

اختر من هؤلاء الأبطال واحدًا يبقى معنا.. ولينصرف الآخرون..

فوقف «ماريوس» حائرًا..

وفجأة.. هبط من السماء ثوب من ثياب الحرس الوطني.. وبذلك نجا الرجل الخامس..

وكان «جان فالجان» قد تمكن من اختراق الحصار والوصول إلى المتاريس بفضل الثوب.. وقد قضى الليل كله في جحيم المعركة.. ولكنه لم يشترك في القتال.. وقنع بنقل القتلى.. ومساعدة الجرحى..

سأل أنجولراس: من هو هذا الرجل ؟

وهمس «ماريوس»: إنني أعرفه..

وكان في ذلك ما يكفي.. فالتفت أنجولراس إلى «جان فالجان».. وقال:

إنني أرحب بك أيها المواطن..

ثم استطرد: ولكن هل تعلم أنك تبرعت بالدرع الذي يقيك شر الموت؟ فصمت «جان فالجان»..

وارتدى الرجال الخمسة ثياب الحرس.. وصاح أنجولراس:

والآن.. إلى العمل ! ستطلق الرصاص من النوافذ.. ونلفت الأنظار الأعداء إلينا ريثما ينصرف زملاؤنا الخمسة.. ثم نتراجع في أثرهم الواحد بعد الآخر..

وقصد الرجال الخمسة إلى الباب.. والدموع تترقرق في عيونهم..

والتفت أنجولراس إلى «جافير».. وكان ما يزال موثق اليدين والقدمين.. وقال له:

لا أظن أنني نسيتك..

ووضع مطواة على إحدى الموائد وقال: يجب على آخر رجل يبقى على قيد الحياة أن يُلهب راس هذا الجاسوس بهذه المطواة..

فسأل سائل: أيقتل هنا ؟

فأجاب أنجولراس: كلا.. إن دمه يلوث جثث ضحايانا.. فليقتل على سلم الحانة أو في الخارج..

وهنا اقترب «جان فالجان» من أنجولراس وسأله:

هل أنت القائد هنا ؟

نعم..

هل نظن أنني فعلت شيئًا يستحق المكافأة ؟

لا شك في ذلك..

إذًا فإنني أطلب مكافأتي..

وما تطلب ؟

أريد أن ألهب راس هذا الجاسوس بنفسي..

فرفع «جافير» رأسه.. ورأى «جان فالجان».. ودهش.. ولكنه غمغم: هذا هو الإنصاف..

ونظر أنجولراس إلى أعوانه وسأل: هل من يعترض؟

ثم تحول إلى «جان فالجان» وقال: خذه ! إنه لك !

فتناول «جان فالجان» المطواة..

وفي هذه اللحظة دوى في الخارج صوت بوق.. أعقبه انطلاق مئات العيارات النارية.. فتفرق الثوار في سائر قاعات الحانة.. وتأهبوا للدفاع..

وما كاد «جان فالجان» ينفرد ب«جافير» حتى حل وثاق قدميه.. وأمره أن ينهض.. ثم أمســـك بعنقه وقاده كما يقود الحيوان للذبح..

وكان «ماريوس» يطل من إحدى النوافذ.. فرأى «جافير» وجلاده يخرجان من الباب الخلفي الصـغير.. ويغيبان في الظلام..

ومر «جان فالجان» وأســـيره بين أكياس الرمل وأكوام الجثث.. حتى وصـــلا إلى زقاق مظلم قريب من منطقة القتال.. فوقف «جان فالجان»..

وحدج «جافير» بعينين تتألقان في الظلام كأنهما شعلتان..

قال الشرطي: انتقم لنفسك..

فدس «جان فالجان» يده في جيبه.. وأخرج سكينًا..

قال «جافير»: أحسنت ! فذلك أشفى لغلك..

وقطع «جان فالجان» وثاق «جافير».. وقال له في هدوء: اذهب فأنت حر..

فجمد «جافير» في مكانه.. وحبس أنفاسه دهشة وذهولاً..

واستطرد «جان فالجان»: لا أعتقد أنني سأخرج من هذا المكان على قيد الحياة.. ولكن إذا حدث وخرجت.. فإنك تستطيع أن تجدني في المنزل رقم ٧ شارع «لوم آرميه»..

فزمجر «جافير».. وهو يعض على نواجذه:

كن على حذر !

اذهب..

قلت إنك تقيم بشارع «لوم آرميه»؟

نعم.. بالمنزل رقم ٧..

فردد «جافير» بصوت خافت: رقم ٧.. رقم ٧..

وأصلح ثوبه.. وعقد ساعديه فوق صدره.. ومشي مرفوع الراس بيد أنه ما كاد يبتعد بضع خطوات.. حتى دار على عقبيه وقال: إنك تزعجني.. كنت أؤثر أن تقتلني..

اذهب..

فاستأنف «جافير» سيره ببطء.. وما لبث أن توارى في الظلام..

وفي هذه الأثناء.. كانت المعركة على أشـدها بين الجنود وبقايا الثوار.. فقُتل أنجولراس.. وكوفيراك.. ولما عاد «جان فالجان» إلى الحانة.. وجد «ماريوس» ممدًا على الأرض وقد أصيب برصاصة في عنقه.. وفقد الرشد..

قلنا إن «جان فالجان» لم يشـترك في القتال.. وإن يكن قد اسـتُهدف مرارًا للموت.. ويقول الذين أبصروه إنه لم يحول بصره قط عن «ماريوس».. فلما سقط الفتى.. اختطفه «جان فالجان» اختطافًا.. وانطلق به من الباب الخلفي للحانة في اللحظة نفسها التي كان فيها الجنود يقتحمون الباب الأمامي..

وأسرع «جان فالجان» الخطى في شارك كورنيت.. ولكنه ما كاد يتوسط هذا الشارع.. حتى سمع خطوات الجنود الذين أحاطوا بذلك الحي كله منذ بدء القتال.. وشرعوا الآن في تضييق الحصار لإبادة الثائرين..

واقترب الجنود من كل صـوب.. فتراجع «جان فالجان» بضـع خطوات.. وأرهقه حمله.. فوضـع جسـم الفتى على الأرض.. وراح يفكر بسرعة للخلاص من مأزقه..

كان الموقف شديد الحرج.. فالتقدم مستحيل.. والتقهقر انتحار.. فماذا يصنع؟

وحانت منه التفاتة فرأى كومة من الأحجار أعدها الثوار ليعتصموا بها.. وقد حجبت هذه الكومة جزءًا من فوهة سرداب للمجاري.. فأقبل على الأحجار.. وراح يرفعها بسرعة البرق وقوة العمالقة.. وقد نشطت فيه مواهب السجين الذي عرف كل وسائل الفرار.. وتذوق حلو المغامرات ومرها..

ثم حمل جثة «ماريوس».. وهبط بها من الفوهة.. ووجد نفسه في ظلام السراديب وأوحالها..

تريث وهو يلهث.. وانتظر حتى ألفت عيناه الظلام.. ثم واصل السير ببطء.. مسترشدًا بانحدار السراديب.. آملاً أن ينتهي إلى النهر حيث المجاري..

وجد نفسه وسط شبكة من السراديب والأزقة الأرضية لا أول لها ولا آخر.. وليس ثمة صوت يهتدي به.. أو ضوء يرشده..

وطالت رحلته.. وأنهكه التعب.. واستولت عليه الوساوس والأوهام..

ترى هل ضل في هذه المدينة الأرضية.. وهل يهلك جوعًا.. وتنزف دماء «ماريوس» قبل أن يتمكن من تضميد جراحه ؟

وفجأة.. لاحت له وسط الظلام الدامس حلقة من الضوء.. فتنفس الصعداء.. ودخل في روعه أنه أشرف على نهاية الرحلة.. فوسع الخطى حتى بلغ تلك الحلقة .

فإذا هي ضوء منبعث من كوة مفتوحة في سقف السرداب..

على أنه رحب بهذا الضوء.. فمدد «ماريوس» على الأرض.. ومزق قميصه.. وضمد جراحه.. ثم فتش جيوبه.. فعثر على ورقة عليها هذه الكلمات: «اسمي «ماريوس» «بونمرسي».. فأرجو نقل جثتي إلى بيت جدي مسيو جيلنورمان بالمنزل رقم ٦ بشارع كافير»..

وكان «ماريوس» قد كتب هذه الورقة على سبيل الحيطة.. حتى إذا قتل في المتاريس نقلت جثته إلى بيت جده..

ورد «جان فالجان» الورقة إلى جيب صاحبها.. وجلس يلتمس الراحة..

وعاد بعد قليل إلى استئناف رحلته الشاقة في تلك السراديب البغيضة .

وبعد نصف ساعة أخرى.. بان له ضوء ضئيل أخذ ينتشر كلما اقترب.. ثم بدا له مخرج السرداب وسمع خرير الماء في نهر السين.. فوثب قلبه بين ضلوعه..

على أنه ما كاد يقترب من مخرج السرداب.. حتى ألفاه مغلقًا بباب مشبك بالقضبان الحديدية.. فأسند «ماريوس» إلى الجدار.. وأمسك القضبان الحديدية بيديه القويتين.. وهزها بعنف.. ولكنها لم تتحرك.. فأسقط في يده.. وتصبب العرق البارد على جبينه..

هاله مجرد التفكير في العودة من حيث أتى.. وانصرف ذهنه في هذا المأزق إلى «كوزيت»..

يا إلهي ! أيمكن أن نفقدهما معًا.. هو و«ماريوس»؟

وإنه نهبة اليأس.. إذا به يشعر بيد توضع على كتفه.. وإذا بصوت يقول في همس:

لنقتسم الغنيمة..

وخُيل إلى «جان فالجان» أنه يحلم.. فإنه لم يسمع وقع خطوات المتكلم.. نظر إليه وعرفه.. وأدهشته هذه المقابلة الفجائية..

كان المتكلم هو «تيناردييه»..

ولم ير «تيناردييه» وجه غريمه.. لأنه كان واقفًا في الظلام.. وكان جسم «ماريوس» يحجب نصف وجهه..

قال: كيف تنوي الخروج من هنا ؟

فلزم «جان فالجان» الصمت..

قال «تيناردييه»: يستحيل عليك أن تزحزح الباب من مكانه.. ومع ذلك فإنه من الضروري لك أن تخرج من هذا الجحيم..

فأجاب «جان فالجان»: هذا صحيح..

إذًا فلنقتسم الغنيمة !

ماذا تعني ؟

إنك قتلت هذا الرجل.. واستوليت على نقوده.. أما أنا.. فقد استوليت على مفتاح هذا الباب..

واستطرد بعد قليل: إنني لا أعرفك.. ولكن لا أشك في أنك من أهل المهنة.. ومن واجبي أن أعاونك..

ففهم «جان فالجان» غرضه.. وأدرك أن «تيناردييه» يحسبه لصًا وقاتلاً..

قال «تيناردييه»: أصغ إلي أيها الزميل ! لابد أنك فتشت جيوب الرجل بعد أن قتلته.. فأعطني نصف الغنيمة فأفتح لك الباب.. ها هو المفتاح !

وقدم مفتاحًا حديديًا ضخمًا.. فتناول «جان فالجان» المفتاح وانبسطت أ سارير وجهه.. لقد أر سلت إليه العناية الإلهية ملاكًا في صورة شيطان..

ودسَّ «تيناردييه» يده في جيبه الواسع.. وأخرج حزمة من الحبال.. دفعها إلى «جان فالجان» وهو يقول: خذ هذا مع نصيبك من الصفقة..

وماذا أفعل بهذا الحبل ؟

إنك أيضًا في حاجة إلى حجر.. ولكنك ستجد كثيرًا من الأحجار في الخارج..

وماذا أفعل بالحجر ؟

يا لك من جاهل ! كيف تلقي بالجثة في ماء النهر دون أن تربطها بحجر لكي تغوص..

فمد «جان فالجان» يده بحركة آلية.. وتناول الحبل..

قال «تيناردييه»: الآن دهنا نُبرم الصفقة.. إنني أبرزت لك المفتاح والحبل.. فأبرز لي نقودك..

بحث «جان فالجان» في جيوبه.. ولم يجد غير جنيه واحد وبضعة فرنكات فقدمها جميعها إلى «تيناردييه»..

قال هذا في دهشة: لا شك أنك لم تقتل الرجل لأجل هذا المبلغ التافه..

وتقدم من «جان فالجان» ببساطة.. وراح يفتش جيوبه.. ثم بحث في جيوب «ماريوس».. وعثر على ثلاثين فرنكًا.. فاستولى على المبلغ كله.. وقال وقد تناسى نظرية الاقتسام:

الآن تستطيع أن تذهب أيها الزميل..

وساعده على حمل «ماريوس».. وفتح باب السرداب..

وما إن خرج «جان فالجان» من السرداب.. وسقط على وجهه الضوء المنبعث من أحد مصابيح الشارع.. حتى فتح «تيناردييه» فمه.. وحبس أنفاسه دهشة وعجبًا !

وترك «جان فالجان» وراءه تلك السراديب المخيفة.. واستقبل نسيم الليل.. وتنفس ملء رئتيه..

مدد «ماريوس» على ضفة النهر.. وفرك صدغيه بالماء.. وإذا به يحس بالغريزة.. كما يحس الحيوان في الدغل.. بأن هناك عينًا ترقبه من الوراء.. فنظر خلفه بسرعة.. ووقع بصره على رجل طويل القامة يرتدي معطفًا طويلاً.. ويمسك بيده عصا ثقيلة.. وقد عقد ساعديه فوق صدره.. وجعل يرقبه بإمعان..

عرفه «جان فالجان».. عرف فيه غريمه الأبدي «جافير»..

وهكذا سقط «جان فالجان» من صخرة إلى صخرة.. وجاءت مقابلة «جافير» بعد مقابلة «تيناردييه».. فكانت صدمة عنيفة زلزلت أعصابه..

على أن «جافير» لم يعرف غريمه.. فقد قضى «جان فالجان» ليلته في المتاريس.. وقضى نهاره في السراديب.. فتمزقت ثيابه.. وتلوث وجهه بالرماد والأوحال..

ولم يحرك جافير ساعديه.. ولكنه ضغط مقبض العصا بأصابعه..

سأل: من أنت ؟

أنا «جان فالجان»..

فأمسك «جافير» العصا بأسنانه.. وألقى بيديه على «جان فالجان».. وأمعن النظر في وجهه وعرفه..

كاد وجهاهما أن يتلامسا.. ورأى «جان فالجان» في عيني مفتش الشرطة نظرة مخيفة..

قال: أيها المفتش «جافير».. إنني في قبضة يدك.. أنا أسيرك منذ الصباح.. ولم أذكر لك عنواني لكي أحاول الفرار.. فألق القبض علي.. فقط لي رجاء واحد..

فبدا على «جافير» أنه لم يسمع.. ولم يحول عينيه الثاقبتين عن وجه «جان فالجان».. ولكن لوحظ عليه في تلك اللحظة أن جبينه تغضن.. وأنه دفع ذقنه إلى الأمام.. وألقى رأسه إلى الأرض..

وبعد صمت قصير.. ترك كتفي «جان فالجان».. وأمسك العصا بيده.. وسأل بصوت الحالم: ماذا تصنع هنا؟ ومن هو هذا الرجل ؟

فأجاب «جان فالجان» بصوت أيقظ محدثه: لقد أردت أن أحدثك عنه.. فافعل بي ما شئت.. ولكن ساعدني أولاً على نقله إلى منزله.. ذلك هو رجائي الأوحد..

فأخرج «جافير» من جيبه منديلاً غمسه في الماء.. ومسح به الدم عن جبين «ماريوس».. وقال بصوت خافت كأنه يحدث نفسه:

لقد كان هذا الرجل بين الثوار..

نعم.. وهو جريح..

إنه ميت..

كلا.. لم يمت بعد..

إذًا فقد حملته من المتاريس إلى هنا ؟

ولابد أنه كان مســـتغرقًا في تفكير عميق.. فلم يلفت نظره هول المرحلة التي قام بها «جان فالجان» في سراديب المجاري.. ولم يفطن إلى صمت هذا الأخير وامتناعه عن الإجابة..

كذلك كان «جان فالجان» منشغلاً بالتفكير..

قال بعد قليل: إنه يقيم مع جده في شارع كالفير..

وبحث في جيب «ماريوس» عن القصــاصــة التي كتب عليها الفتى عنوانه.. فعثر عليها.. ولكنه عثر في هذه المرة أيضًا على الرسالة التي بعثت بها «كوزيت» إلى «ماريوس».. وتسلمها الشاب وهو يقاتل في المتاريس..

قال «جان فالجان»: هوذا عنوانه..

فتناول «جافير» القصاصة.. وحملق إليها بعينين فوسفوريتين كعيون طيور الليل..

وكان «جافير» قد جاء إلى تلك الناحية في إحدى مركبات الأجرة.. وأمر الســائق أن ينتظره.. فقد يحتاج إلى مركبته في مطاردة «تيناردييه»..

صاح: تعال أيها الحوذي«»..

فاقترب الحوذي بالمركبة وصعد إليها الرجلان.. وظل «جان فالجان» ممسكًا ب«ماريوس» من ساعده..

وانطلقت المركبة في الظلام.. وفي جرفها أبطال المأســـاة.. أحدهم كالجثة.. والثاني كالشـــبح.. و«جافير» تمثال من رخام..

ووقفت المركبة بباب المنزل رقم ٦ بشارع كالفير.. ووثب منها «جافير» وطرق الباب بعنف..

وفُتح الباب بعد لحظة.. وأطل البواب..

فسأله «جافير» بخشونة رجال الشرطة: هل يقيم هنا رجل يُدعى جيلنورمان ؟

نعم.. هذا منزله.. فماذا تريد ؟!

لقد جئنا بابنه..

فصاح البواب في دهشة: ابنه ؟!

نعم.. وهو ميت..

وعجز البواب عن فهم كلمة واحدة .. فاستطرد «جافير»:

إنه كان مع الثوار في المتاريس.. اذهب وأيقظ أباه..

فقنع البواب بإيقاظ الخادم «باســك».. وقنع «باســك» بإيقاظ الآنســة جيلنورمان.. ولم يجرؤ أحد على إيقاظ الشيخ..

وحمل «ماريوس» إلى غرفة في الطابق الأول.. وانطلق «باسك» في طلب الطبيب..

وظل «جان فالجان» واقفًا ينظر إلى الجثة كمن هو في حلم.. إلى أن شــعر بيد «جافير» تمس كتفه.. ففهم وانصرف.. وسار «جافير» في أثره وصعدا إلى المركبة..

قال «جان فالجان»: أيها المفتش «جافير».. إن لي رجاء آخر: إسمح لي بقضاء بضع دقائق في بيتي.. ولك أن تفعل بي بعد ذلك ما تريد..

فصمت «جافير» لحظة.. ثم صاح بالسائق: إلى المنزل رقم ٧ شارع لوم آرميه..

ولم يدر بينهما حديث أثناء الطريق.. ففيم كان «جان فالجان» يفكر ؟ وماذا كان يبغي ؟

كان يريد أن يُنذر «كوزيت» برحيله.. وأن يطلعها على مكان «ماريوس».. ويرتب شؤونه للمرة الأخيرة..

ووصلت المركبة إلى شارع لوم آرميه ووقفت في أوله لضيقه.. فنقد «جافير» السائق أجره.. ورافق «جان فالجان» إلى باب البيت..

وكان الشارع مُقفرًا من المارة كالمعتاد.. ففتح «جان فالجان» الباب ونظر إلى «جافير»..

قال الشرطي: اذهب ! وسأنتظرك هنا..

فدهش «جان فالجان».. لم تكن عادة «جافير»..

ولكنه دخل المنزل متمهلاً.. وصعد السلم ببطء..

وكان للسلم نوافذ يستمد منها الضوء.. فحانت من «جان فالجان» نظرة غير مقصودة إلى إحدى هذه النوافذ.. وأدهشه ألا يرى «جافير» بالباب حيث تركه..

أما «جافير» فإنه انتظر حتى توارى «جان فالجان» داخل المنزل ثم سار في الشارع ببطء.. وقد سقط رأسه على صدره لأول مرة في حياته.. ولأول مرة في حياته كذلك.. كانت يداه معقودتين خلف ظهره..

قبل ذلك اليوم.. لم يكن «جافير» يعرف من الحركتين اللتين امتاز بهما نابليون.. غير الحركة التي تعبر عن السطوة وقوة الإرادة والجبروت وهي رفع الرأس.. وعقد الساعدين فوق الصدر..

أما الحركة التي تن عن الشــك والقلق.. وهي عقد اليدين خلف الظهر.. فإن «جافير» لم يعرفها في حياته إلى أن كانت تلك الليلة..

كان موقفه لا يُطاق..

نعم.. كان مما لا يطاق أن يدين بحياته لأحد المجرمين وأن يقبل هذا الدين.. ثم يقوم على سداده..

كان مما لا يطاق أن يضع نفسه في مستوى واحد مع سجين هارب من الليمان.. ويقابل معروف السجين بمعروف مثله..

شيء واحد أدهشه.. هو أن يعفو عنه «جان فالجان».. وشيء واحد روَّعه.. هو أن يعفو عن جان فالجان..

على أنه لم يغفل عن حقيقة ثابتة هي أنه ارتكب مخالفة خطيرة للقانون.. فقد أغمض عينيه عن مجرم عائد وسجين هارب.. وانتزع من قبضة القانون رجلاً من حق القانون..

فعل ذلك.. ولم يدر كيف فعله.. وشعر بأنه أخل بواجبه فلم يبق ثمة معنى لحياته..

فهل ذلك مما يطاق ؟ كلا ..

كان موقفه دقيقًا.. ولا مخرج منه إلا بإحدى وسيلتين: إما القبض على «جان فالجان» وغيداعه السجن.. وإما ..

وكان السـكون شـاملاً.. والظلام دامسًـا.. والشـوارع مقفرة من المارة.. وهذا الرجل الذي يعتبر الواجب والقانون جزءًا من كيانه.. بل كل حياته.. يسير على مهل فوق جسر «بينا»..

ووقف فوق الجسرـــ.. وأطل من فوق حاجزه.. ورأى ماء «الســين» ينحدر في تلك البقعة بقورة.. تاركًا تلافيف سريعة لا تلبث أن تتلاشى..

وظل «جافير» في مكانه بعض الوقت.. وعيناه لا تتحولان عن الماء المظلم..

ثم خلع قبعته.. ووضعها على حافة الجسر..

وبعد لحظة.. شـــوهد شـــبح طويل ينهض فوق الحاجز وينحني نحو النهر.. ثم يهوي نحو الماء فيبتلعه الماء والظلام..



السعادة

أقبل الطبيب على عجل.. وفحص «ماريوس» فوجد أن الر صا صة أ صابت العنق وكسرت عظم الترقوة.. أما سائر أعضاء الجسم فلم تُصب بأذى.. ولكن ما سال من دم الشاب بعد إغمائه أضعفه كثيرًا..

وكان الطبيب ما يزال يغسل الجرح حين فتح باب الغرفة فجأة.. ودخل مسيو جيلنورمان.. وهو في قميص النوم..

وكانت الضجة التي أحدثها الخدم قد أيقظت الشيخ.. فنهض من فراشه.. وقصد إلى الغرفة التي خُيل إليه أنها مصدر الاضطراب..

وتقدم خطوة إلى الأمام.. ثم جمد في مكانه.. ونظر في الفراش.. وإلى الطبيب.. وإلى ابنته.. ووضع يده فوق فمه كأنما ليمنع صرخة أوشكت أن تُفلت منه.. ثم هتف فجأة بصوت ثاقب: «ماريوس» !

فقال الخادم باسك: لقد جيء به في التو واللحظة يا سيدي.. والظاهر أنه ذهب إلى المتاريس و..

فصاح الشيخ: إنه مات.. مات.. إنه أورد نفسه موارد التهلكة انتقامًا مني.. ويل للتعس.. ويل لشارب الدماء.. ويل لي !

واقترب من الفراش.. ونظر إلى الشاب.. وتناول ساعده.. وراح يهزه.. ويغمغم في الوقت نفسه بصوت لا يكاد يسمع: أيها الوغد.. أيها القاسي القلب..

كان كمحتضر يعتب على جثة .

ثم سال الكلام من فمه بعد ذلك بقوة.. وصاح:

ذلك لا يهمني أيها الشقي.. فسأموت مثلك.. وما دمت لم تشفق على نفسك.. فإنني لن أحزن لموتك.. هل سمعت أيها القاتل ؟!

وفي هذه اللحظة تحركت أهداب «ماريوس».. وفتح عينيه ببطء وألقى حوله نظرة تحجبها غشاوة..

فصاح الشيخ: «ماريوس» ! يا ولدي العزيز ! يا ابني المحبوب! إنك فتحت عينيك.. إنك تنظر إلي.. إنك على قيد الحياة.. شكرًا لله .

وقضى «ماريوس» بضعة أسابيع بين الموت والحياة.. ولم يكف في هذيانه عن ترديد اسم «كوزيت».. ولم يبرح الشيخ بدوره فراش حفيده.. وهو كحفيده يتردد بين الموت والحياة..

وفي كل يوم.. بل ومرتين كل يوم.. كان شيخ أشيب الشعر نظيف الهندام يتردد إلى المنزل.. ويستفسر الرجل عن حال الجريح.. ويترك عنده ضمادات وعقاقير للجروح..

وأخيراً.. وبعد أربعة أشـــهر من تلك الليلة المشـــهودة التي حملت فيها جثة «ماريوس» إلى بيت جده.. أعلن الطبيب أن الجريح تجاوز الخطر.. وعندئذ فقط.. عاد الشيخ جيلنورمان إلى غرفته..

وبزوال الحمى.. كف «ماريوس» عن ترديد اسم «كوزيت».. ولكنه لم يكف عن التفكير فيها..

وفي أحد الأيام.. انحنى جيلنورمان فوق حفيده.. وقال بلطف: أصغ إلي يا صغيري.. لو كنتُ في مكانك لما ترددت في تناول لحم الضـأن بدل السـمك.. فالترحيب بأكل السـمك دليل على النقاهة.. ولكن أكل الضـأن يسـاعد المريض على الوقوف على قدميه..

فاعتدل «ماريوس» في فراشــه.. ونظر إلى وجه جده بإمعان.. ثم قال بلهجة جدية: ذلك يحملني على أن أقول لك شيئًا..

ما هو ؟

هو أنني أريد أن أتزوج..

فانفجر الشيخ ضاحكًا وصاح: اتفقنا.. ستقترن بصاحبتك الصغيرة..

فلم يصدق «ماريوس» أذنيه.. ومضى الشيخ يقول: نعم.. ستقترن بهذه الصغيرة البديعة.. إنها تستفسر عنك كل يوم في صورة رجل كهل.. وقد حصلت على ميع المعلومات الضرورية.. فالفتاة تُقيم في شارع لوم آرميه أليس كذلك ؟! وأنت تُريدها زوجة لك.. فليكن ذلك..

أصـــغ إلي.. إنني لاحظت أنك لا تُحبني.. فقلت لنفسي ــ « ماذا يجعل هذا الحيوان يُحبني ؟» ثم فكرت في «كوزيت».. وقلت إذا جئته بها.. فربما أحبني وسأجيئك بها.. وعليك أن تتجشم عناء الزواج..

فأطبق «ماريوس» بساعديه على عنق جده وغمغم الكلمة التي يتوق الشيخ دائمًا إلى سماعها: يا أبي المحبوب..

أتحبني إذًا ؟ لقد دعوتني أباك..

فأجاب: لقد شفيت الآن يا أبي.. وأظن أنني أستطيع أن أراها..

ستراها غدًا ..

فهتف محتجًا: أبي ! ماذا ؟ ألا يمكن أن أراها اليوم ؟

بل ستراها اليوم.. إنك دعوتني أباك ثلاث مرات وهذا يكفي..

وتلاقى العاشقان .. ولن نحاول وصف لقائهما.. فهناك أشياء لا يمكن تصويرها.. والشمس إحدى هذه الأشياء..

وكان جيلنورمان وابنته وخادمه وخادمته في غرفة «ماريوس».. حين أقبلت «كوزيت» وفي إثرها كهل حسن الهندام تتلاعب على شفتيه ابتسامة شاردة مؤلمة..

كان هذا الكهل مسيو «فوشليفان».. كان «جان فالجان»..

كان يرتدي ثوبًا جديدًا.. ورباط عنقه أبيض.. ويحمل تحت إبطه شيئًا ملفوفًا في ورقة..

وقد وقف مسيو «فو شليفان» بباب الغرفة كأنه يخشى الدخول.. ورمقته الآنسة جيلنورمان بنظرة فاحصة.. ثم همست في أذن وصيفتها نيكوليت:

إنه يحمل تحت إبطه كتابًا..

فأجابت نيكوليت: لعله من العلماء..

أما جيلنورمان فإنه أحنى قامته باحترام وقال:

هل لي الشرف بالتحدث إلى مسيو «فوشليفان» ؟

فأحنى «جان فالجان» قامته بدوره ولم يُجب..

قال الشيخ: إن لي كل الشرف أن أطلب يد ابنتك لحفيدي البارون «ماريوس» «بونمرسي»..

فأحنى «جان فالجان» قامته مرة أخرى.. وتعانق العاشقان..

وتأملت الآنسة جلينورمان هذه السعادة التي انبثقت في الغرفة.. لا كما تنظر البومة إلى حمامتين.. وإنما كما تنظر عانس في السابعة والخمسين من عمرها.. إلى شيء أقفرت منه حياتها المجدبة.. وهو الحب.. بمعناه الصحيح..

وتحول جيلنورمان إلى «كوزيت».. وقال: هذه الابنة بديعة حقًا.. إنها فتاة صغيرة.. ولكنها سيدة عظيمة.. ومما يؤسف له أنها بارونة فقط.. وليست مركيزة.. فما أبدع أهدابها الطويلة..

ثم استطرد بحزن: من سوء الحظ أنني أستثمر كل ثروتي في أحد المصارف.. ولا يجوز لي أن أستردها قبل انقضاء عشرين عامًا.. فإذا مت قبل ذلك ..

وكف عن الكلام.. وأحزنه هذا الخاطر..

وعندئذ قال قائل: إن الآنسة «كوزيت» «فوشليفان» تملك ستمائة ألف فرنك..

كان المتكلم هو «جان فالجان».. الذي قبع منذ دخوله في أحد الأركان فلم يشعر به أحد..

فردد جيلنورمان في دهشة: ستمائة ألف فرنك !

فأجاب «جان فالجان»: أقل من ذلك بضعة آلاف..

وتناول الحزمة التي كانت تحت إبطه.. وفتحها.. فإذا بها تحوي على رزمة كبيرة من الأوراق المالية..

وأحصيت تلك الأوراق.. فإذا قيمتها ٥٨٤ ألف فرنك..

فغمغمت الآنسة جيلنورمان: ما أثمن هذا الكتاب !

ولابد أن يكون القارئ قد عرف مصدر هذه الثروة.. وأدرك سر الرحلات الغامضة التي كان يقوم بها «جان فالجان» في بعض الأحيان..

ذلك أنه كان قد استطاع في الوقت المناسب أن يسحب الثروة التي أودعها بنك لاقيت باسم الأب «مادلين».. ثم وضع هذه الثروة مع شمعداني الأسقف في صندوق صغير.. وأخفى الصندوق في دغل بالقرب من قرية «بولانجيه»..

ومنذ بضعة أيام.. سافر إلى بولانجيه وعاد بالكنز كله..

وبدأ الاستعداد للزفاف.. فمهد «جان فالجان» كل شيء.. وذلل كل صعب.. واستطاع بفضل اضطلاعه السابق بوظيفة العمدة أن يجعل هذا الزواج ممكنًا.. وقد كان من المستحيل أن يصرح بنشأة «كوزيت».. فزعم أنها ليست ابنته.. ولكنها ابنة شقيقه «فوشليفان» الآخر.. الذي كان يشتغل بستانيًا في حديقة سان أنطوان.. ولم يكن في استطاعة راهبات الدير بطبيعة الحال أن يفرقن بين الأخوين.. فقررن أن «كوزيت» هي ابنة «فوشليفان» البستاني الذي توفي منذ بضعة أعوام..

وهكذا علمت «كوزيت» أنها ليست ابنة الرجل الذي طالما دعته أباها.. ولو علمت ذلك في وقت آخر لحزنت أشد الحزن.. ولكنها كانت وقتئذ في غمرة السعادة.. فمرت هذه السحابة دون أن تترك في نفسها أثرًا.. وظلت بالرغم من ذلك تدعو «جان فالجان» أباها..

وتقرر أن يقيم العروسان في بيت جيلنورمان.. وأصر الشيخ على أن ينزلها في غرفته.. وكانت أثمن غرفة في المنزل..

ولم تشغل السعادة «ماريوس» عن العمل لإرضاء ضميره وإشباع فضوله..

كان يريد أن يعرف الرجل الباسل الذي خاطر بحياته.. وأنقذه من المتاريس.. وحمله إلى بيت جده.. وتركه ومضى دون أن يذكر اسمه أو ينتظر كلمة شكر..

بيد أن جميع الجهود التي بذلها لمعرفة هذا الباســـل المجهول ذهبت أدراج الرياح.. فقنع بأن يحمل له في قرارة نفسه أسمى معاني الشكر وعرفان الجميل..

ولما فاض قلبه بالســعادة.. وعاودته ذكرى منقذه الكريم.. فاهتم بالبحث عنه بمعونة الخادم «باســك» واهتدى أخيراً إلى الحوذي الذي نقله في مركبته.. وذكر الحوذي كيف أن أحد رجال الشرطة استأجر المركبة منذ الساعة الثالثة حتى منتصف الليل.. وكيف أنه قضى أكثر هذا الوقت في انتظار الشرطي على ضفة نهر السين أمام فوهة المجاري.. وكيف رأى باب الفوهة يفتح ويخرج منه رجل حاملاً جثة إنسان ميت.. ثم كيف ألقى الشرطي القبض على الرجل ونقل الجثة إلى شارع «كالفير».. وكيف غادر الرجل والشرطي المركبة في شارع لوم آرميه وغابا عن بصره..

وسمع «ماريوس» هذه القصة.. فراجع رأيه واستغرق في تفكيره .

إذًا كان منقذه قد خرج به من فوهة السرداب فمعنى ذلك أنه اجتاز باريس كلها من الشرق إلى الغرب.. في ظلام السراديب.. والجثة على كتفه.. فما السر في هذا الإخلاص العجيب ؟!

وذات مساء سرد «ماريوس» قصة هذا المنقذ على مسمع من «كوزيت» و«جان فالجان».. وختم حديثه بأن صاح:

لقد كان نبلاً من الرجل أن يجازف بحياته في المتاريس.. وأن يتجشم عناء حملي على كتفه والسير بي في السراديب الأرضية المظلمة بضعة أميال.. فلماذا فعل ذلك؟ لابد أنه قال لنفسه حينما رآني «ربما ما يزال في هذا الشاب رمق من الحياة فلأجازف بحياتي.. فربما أنقذت حياته»..

وجازف بحياته لا مرة واحدة بل عشرين مرة.. فهل ثمة أنبل من ذلك ؟!

أواه! لو كنت أملك ثروة «كوزيت» !

وكف عن الكلام.. فقال «جان فالجان»: إنك تملكها..

فأجاب «ماريوس»: إذًا ليس أحب إلي من أن أنفقها إلى آخر سنتيم في سبيل العثور على هذا الرجل..

فصمت «جان فالجان»..

ليلة الزفاف

كانت ليلة ١٦ فبراير من الليالي الخالدة في حياة «كوزيت»..

فهذه الليلة هي ليلة زفافها.. كانت ربيبة «جان فالجان» ملاكًا يشع حوله الحب والجمال والسعادة..

وقد مدت المائدة الكبرى في بهو واسع أضيئت في جوانبه الشموع المعطرة.. وانتشرت في أنحائه باقات الزهر..

وراح الشيخ جيلنورمان ينتقل بين الغرف متبخترًا مختالاً كأن الليلة ليلة زفافه..

وجلس «جان فالجان» على مقعد وراء أحد الأبواب.. وقد شد ساعده إلى عنقه..

كان قد جرح إصبعه منذ أيام.. ورفض أن يسمح حتى لـ«كوزيت» أن ترى الجرح..

واقتربت الفتاة من الشيخ الذي وفر لها كل هذه السعادة ..و سألته بصوت رقيق.. فيه دعابة الطفل و سخريته: هل أنت سعيد يا أبي ؟

فأجاب «جان فالجان»: نعم.. إذًا فاضحك.. فضحك..

وبعد بضع دقائق.. دُعي القوم لتناول الطعام.. فداروا حول المائدة..

وكان هناك مقعدان كبيران حول مقعد العروس.. أحدهما لجيلنورمان والثاني لـــ«جان فالجان».. فجلس الأول في مقعده.. وبقي المقعد الثاني خلوًا من صاحبه..

وانقضت بضع دقائق.. ولم يحضر «فوشليفان».. فصاح جيلنورمان بخادمه:

ألا تعرف أين ذهب مسيو «فوشليفان» ؟

فأجاب باسك: نعم يا سيدي.. إنه طلب إلي أن أنبئك بأنه يشعر بألم في إصبعه ويعتذر لعدم قدرته على تناول الطعام..

فوجم المدعوون.. ولكنهم أقبلوا على الطعام بعد ذلك.. وأغناهم وجود جيلنورمان عن وجود «فوشليفان»..

أما «جان فالجان» فإنه بعد أن ضحك كما طلبت منه «كوزيت».. نهض واقفًا دون أن يشعر به أحد.. وتسلل إلى الغرفة المجاورة التي دخلها منذ ثمانية أشهر.. عندما نقل إليها جثة «ماريوس».. وهناك صادفه باسك.. فأشار إلى ساعده المشدود إلى عنقه.. وطلب منه أن يبلغ المدعوين اعتذاره.. ثم عاد إلى منزله وأضاء المصباح..

كان المنزل خلوًا مقفرًا.. فأحدث وقع أقدامه على الأرض جلبة غير عادية..

نظر إلى الجدران.. وأغلق الخزانة.. وانتقل من غرفة إلى أخرى.. ثم عاد إلى غرفته.. ووضع المصباح على المائدة.. وحل الرباط الذي يشد ساعده إلى عنقه.. واستخدم أصابع يده كما لو لم تكن بها إصابة..

ثم انتقل بصره إلى حقيبة صغيرة في أحد الركان.. فتناولها.. وفتحها وأخرج منها الثياب التي كانت «كوزيت» ترتديها منذ عشرة أعوام.. يوم غادرت معه حانة «تيناردييه»..

أخرج الثوب.. والمئزر والمنديل.. والحذاء الضخم والجوارب.. وبسطها جميعها على الفراش.. فوضع المئزر فوق الثوب.. ووضع المنديل في جيب المئزر.. والجوارب تحت الثوب.. والحذاء تحت الجوارب.. ونظر إليها جميعًا.. وخُيل إليه أنه يرى «كوزيت» أمامه.. كأول عهده بها.. طفلة في الثامنة من عمرها.. تمسك يده بإحدى يديها.. ودميتها باليد الأخرى.. وهي تضحك.. وليس لها في الحياة سواه..

تأمل الثياب طويلاً.. ثم سقط رأسه الأبيض الوقور فوق الفراش.. ودفن وجهه بين تلك الثياب.. وتداعى قلبه الكبير.. فبكى بكاء الأطفال..

شعر «جان فالجان» في تلك الليلة بأنه يقاتل في المعركة الأخيرة وقد احتلَّ ذهنه سؤالٌ واحد هو: كيف ستكون صلته بسعادة «كوزيت» و«ماريوس» ؟

إنه أراد السعادة.. وعمل لها.. وأوجدها.. وهو الآن ينظر إليها كما ينظر صانع السيوف إلى اسمه منقوشًا على نصل السيف الذي طعن به نفسه.. فماذا تكون صلته بهذه السعادة بعد الآن ؟

ولقد أصبحت «كوزيت» ملكًا لرجل آخر.. فهل من حقه أن يحتكر لنفسه منها أعظم قسط يستطيع احتكاره ؟

هل من حقه أن يفرض نفسه على سعادتها فرضًا بالصفة التي كان له قبلاً كوالدها؟

هل من حقه أن يُثقل مستقبلها بماضيه دون أن ينطق بكلمة ؟

قضى الليل كله.. وهو يُلقي على نفسه هذه الأسئلة ويحاول أن يجد لها جوابًا.. وانبثق الفجر وهو ما يزال في مكانه أمام الفراش..

اثنتا عشرة ساعة قضاها كذلك دون أن يأتي بحركة أو ينطق بكلمة..

كان يخيل للناظرين إليه أنه رجل ميت.. فإذا ألصق فمه بثوب «كوزيت» وقبله.. عندئذ فقط تبدو عليه علامات الحياة..

نبش الماضي

خيم على بيت جيلنورمان في اليوم التالي ذلك السكون العميق الذي يعقب السهرات الصاخبة..

وكان باسك يعمل في ترتيب الأثاث.. حين سمع طرقًا على الباب ففتحه.. فإذا الطارق مسيو «فوشليفان»..

سأله «جان فالجان»: هل استيقظ سيدك ؟

أيهما ؟ العجوز أو الشاب ؟

البارون «بونمرسي»..

آه .. لا أعلم .. ستحقق من ذلك.. هل أقول له إن مسيو «فوشليفان» يريد مقابلتك ؟

كلا.. لا تقل له إنني زائر.. قل له إن شخصًا يطلب التحدث إليه على انفراد.. ولا تذكر له اسمي..

ولاحظ «جان فالجان» دهشة الخادم فاستطرد: إنني أريد مفاجأته..

وبقي «جان فالجان» جامدًا في مكانه حيث تركه الخادم..

كان غائر العينين من تأثير التعب والانفعال والبكاء.. وقد تهدل ثوبه الجديد بعد تلك الليلة المسهدة الطويلة..

وما هي إلا لحظة.. حتى أقبل «ماريوس».. وهو منتصب القامة مرفوع الراس.. ضاحك الثغر لامع العينين..

لم يكن بدوره قد تذوق طعم النوم في تلك الليلة..

هتف الشـاب: أهذا أنت يا أبي.. لماذا إذًا لم يذكر الأحمق «باسـك» اسـمك؟ ولكنك جئت مبكرًا يا أبي.. فالسـاعة الآن الثانية عشرة.. ولا تزال «كوزيت» نائمة..

كانت كلمة «أبي» التي ترددت في فمه دليلاً على مبلغ سـعادته وجذله.. ذلك ن الصـلة بين الرجلين كان يخالطها دائمًا شيء من البروة والفتور.. ولكن حرارة السـعادة التي تعتمل في نفس الفتى.. أذابت هذه البرودة.. وجعلته يرى في «فوشليفان» «أبًا » له.. مثل «كوزيت»..

واستطرد «ماريوس»: ما أشد سعادتي بلقياك! كيف حال إصبعك؟

ولم ينتظر جوابًا.. وأردف على الأثر:

لقد تحدثنا عنك طويلاً.. لأن «كوزيت» تحبك كثيراً.. فلا تنس أن لك غرفة هنا.. نحن لا نريد أن تقيم في شـــارع لوم آرميه.. إنه زقاق ضيق صغير يفتقر إلى أ سباب الـصحة.. ويجب أن تنتقل للإقامة معنا منذ الآن.. وإلا حا سبتك «كوزيت» حسابًا عسيراً.. إننا أفردنا لك الغرفة المجاورة لغرفتنا.. وهي غرفة فسيحة تطل على الحديقة.. وسوف

يرحب جدي بإقامتك معنا.. ثم إن «كوزيت» قد تحتاج إليك لتستند على ساعدك إذا خرجت للنزهة.. كما كانت تفعل في حدائق لكسمبورغ..

إننا مصممون على أن نكون سعداء.. ويجب أن تشاطرنا سعادتنا.. أسمعت يا أبي ؟ وبهذه المناسبة.. يجب أن تتناول طعام الإفطار معنا..

فقال «جان فالجان»: إن لي ملاحظة واحدة.. يا سيدي.. هي أنني كنت من نزلاء الليمان..

توجد أشياء تستحيل على العقل.. وأشياء تستحيل على الأذن.. وقد كانت العبارة التي نطق بها «جان فالجان» مستحيلة على العقل والأذن معًا فلم يعها عقله.. ولم تعها أذنه.. وقد شعر بأن شيئًا قيل له.. ولكنه لم يدر ما هو..

وقف مفتوح الفم.. فيما أخذ «جان فالجان» يحل رباط يده.. حتى إذا فرغ من ذلك.. بسط أصابعه أمام عيني «ماريوس».. وقال:

ليس بيدي شيء.. فقد كان من الضروري أن أتوارى من حفل الزفاف.. فاخترعت حكاية الجرح.. لكيلا ارتكب جريمة تزوير تلغي عقد الزواج..

فغمغم «ماريوس» وهو يترنح في مكانه: ماذا تعني ؟

فأجاب «جان فالجان»: أعني أنني سجين سابق.. وأنني كنت من نزلاء الليمان..

فصاح «ماريوس» في ذعر: أتريد أن تفقدني عقلي ؟

أصغ إلي يا مسيو «بونمرسي».. إنني قضيت في الليمان تسعة عشر عامًا بتهمة السرقة.. ثم حُكم عليَّ بالسجن المؤبد لسرقة أخرى.. فأنا الآن سجين هارب..

وكان «جان فالجان» يتكلم بلهجة جادة رزينة.. فانكمش الفتى.. وهاله ما سمع.. وانقضت بضع دقائق قبل أن يتمكن عقله من استيعاب الحقيقة المستحيلة.. ثم صاح في ذعر وهو يتراجع إلى الوراء: أنت .. أنت .. والد «كوزيت» ؟

فرفع «جان فالجان» قامته بكبرياء حتى كأن طوله تضاعف.. وقال:

يجب أن تصدق كل كلمة أنطق بها يا سيدي.. وإن كان قسمنا أمام المحاكم لا قيمة له ولا وزن.. إنني لست والد «كوزيت»..

كلا.. بحق السماء لست والدها.. إنني فلاح بسيط من أهل «فافيرول».. واسمي «جان فالجان».. لا «فوشليفان».. ولا قرابة من أي نوع بيني وبين «كوزيت».. فكن مطمئنًا..

فغمغم «ماريوس» وقد أثملته الدهشة:

وأين الدليل ؟

كلامي هو الدليل..

فنظر «ماريوس» إلى الرجل.. فألفاه حزينًا.. هادئًا.. ولا يمكن أن يصدر الكذب عن مثل هذا الهدوء..

قال: إنني أصدقك..

فأحنى «جان فالجان» رأسه كأنما يسجل هذه الحقيقة واستطرد:

هل تريد أن تعرف صـــلتي ب«كوزيت»؟ ما أنا إلا عابر ســـبيل في حياتها.. ومنذ عشرـــة أعوام لم أكن أعلم لها وجودًا.. ولكني أحبها كما يحب كبار الشيوخ صغار الأطفال.. كانت يتيمة الأبوين.. وبحاجة إليَّ.. فأوقفتُ عليها حبي وحناني.. أما الآن فقد خرجت من حياتي.. وانقطعت أسباب دنياي من أسباب دنياها.. وتفرقت بنا السُبل.. وأصبحتُ لا أملك لها نفعًا.. أراك لا تنطق بكلمة عن الســـتمائة ألف فرنك.. ولكني أعرف ما يدور بخلدك.. فاعلم إذًا أن هذا المبلغ وديعة بين يدي.. ولا تســـألني عن مصـــدر هذه الوديعة.. أو كيف انتهت إلي.. فذلك لا يهم في قليل أو كثير.. وبحسبي أنني رددتُ الوديعة إلى أصحابها..

فزادت دهشة الشاب.. ثم ما لبث أن صاح:

ولكن لماذا تقول لي كل هذا؟ من يرغمك على قوله؟ أما كان أجدر بك أن تحتفظ لنفســـك بهذا السرـــ.. ما دمت بمأمن من الفضيحة والمطاردة ؟

أتسـألني لماذا أصـارحك بكل هذا؟ وتقول إنني بمأمن من الفضـيحة والمطاردة؟ كلا.. إنني مُطارد.. ومن ذا الذي يطاردني؟ ضميري يطاردني.. فهو الذي يتعقبني.. ويقبض عليّ.. ويحاكمني.. ومتى سقط الإنسان في قبضة ضميره.. فلا مفر له..

وأمسك عنقه بقبضة يده واستطرد:

انظر إلى هذه اليد.. أترى أنها تقبض على العنق بحيث لا يســـتطيع منها خلاصًـــا ! إن الضـــمير يختلف كثيراً عن قبضة اليد.. فإذا شئت أن يعيش سعيدًا يا سيدي.. فحاول ألا تفهم الواجب لأنك إذا فهمته وقعت تحت نيره..

وكف عن الكلام قليلاً.. ثم استطرد في هدوء وسكينة:

يا مسيو «بونمرسي».. إنني رجل أمين.. وأنا أرفع نفسي في نظري بتحقيرها في نظرك..

وصمت مرة أخرى وازداد لعابه بصعوبة كأنما تمضه مرارته..

متى كان للإنســان ماض كماضي.. فليس من الإنصــاف أن يُحَمِلَ الآخرين أهواله دون أن يشــعروا.. لقد أعارني «فو شليفان» ا سمه.. ولكن لا حق لي في أن أحمل هذا الا سم.. لأن الا سم يعبر عن الـشخـصية.. والرجل الذي يحمل اسمًا غير اسمه هو جريمة تزوير مجسدة من لحمٍ ودم.. والتقط أنفاسه بصوت مسموع.. وقال في هدوء:

فيما مضي سرقت رغيفًا لكي أعيش.. ولكني اليوم أسرق اسمًا لكي أعيش.. لكي أعيش؟

إنك لست بحاجة إلى هذا الاسم أو أي اسم آخر لكي تعيش..

فهز «جان فالجان» رأسه مرارًا وقال: إنني أفهم نفسي..

وساد بين الرجلين صمت عميق.. فقد أمسك كل منهما عن الكلام واستغرقا في التفكير..

وأخيراً غمغم الطريد: لقد زال الآن عن صدري حِملٌ ثقيل !

وأخذ يسير في الغرفة جيئة وذهابًا إلى أن وقف فجأة أمام «ماريوس» وقال:

هب الآن يا ســـيدي أنني أصـــارحك بالحقيقة.. وأنني ما زلت «فوشـــليفان».. وأنني احتللت مكاني في بيتك وأصبحتُ واحدًا من أسرتك.. وهب أننا ـ نحن الثلاثة ـ قد خرجنا للنزهة.. أو دُعينا إلى سهرة فمشينا جنبًا إلى جنب.. لأنك تعتقد أنني لا أقل عنك شأنًا وكرامة.. وأخيراً: هب أن صوتًا صاح فجأة ــ ونحن نتحدث ونضحك ــ هوذا «جان فالجان».. وأن يد الشرطة امتدت فجأة من الظلام وأماطت اللثام عن وجهي.. فماذا يكون ؟

وصمت.. وأحس «ماريوس» برعدة قوية تمشي في جسده..

قال «جان فالجان»: ماذا تقول في هذا ؟

فلم يجب «ماريوس».. وأردف الطريد:

هل ترى أنت يا ســيدي أنني أحســنتُ صــنعًا إذ صــارحتك بالحقيقة ؟ فعش أنت ســعيدًا.. وكن ملاكًا.. وأنعم بالحب في ضوء الشمس.. ولا يزعجنك اعتراف شقي يرى من واجبه أن يعترف أن أمامك رجلاً بائسًا يا سيدي..

فاجتاز «ماريوس» الغرفة ببطء.. حتى إذا اقترب من «جان فالجان».. بســـط إليه يده.. ولكن «جان فالجان» لم يحرك ساكنًا.. فاضطر «ماريوس» أن يتناول يده.. وجدها كقطعة من الرخام.. وقال:

إن لجدي أصدقاء من ذوي النفوذ.. وفي استطاعته أن يحصل لك على عفو..

فأجاب «جان فالجان»: لا فائدة من ذلك يا سيدي.. فهم يعتقدون أنني مت.. وذلك يكفي.. فالموتى لا يو ضعون تحت الرقابة.. والموت أشبه بالعفو..

وخلص يده من «ماريوس» وأردف:

وبعد.. فإنني لا أعرف من الأصدقاء غير الواجب.. ولا أطلب إلا عفوًا واحدًا.. هو عفو ضميري..

وفي هذه اللحظة.. فتح أحد أبواب الغرفة بلطف.. وأطل منه رأس «كوزيت».. كان شعرها المضطرب يزيد جمال وجهها.. وكانت حركتها أشـــبه بحركة الطير حين يطل برأســـه من وكره.. نظرت أولاً إلى زوجها.. ثم نظرت إلى «جان فالجان» وصاحت وهي تضحك:

أراهن على أنكما تتحدثان في السياسة.. أما كان الأجدر بكما أن تقضيا الوقت معي ؟

فبُهِتَ «جان فالجان».. وهتف «ماريوس»: «كوزيت»..

ثم صمت.. واصطدمت عيناه بعيني «جان فالجان»..

وقالت «كوزيت».. وهي ما تزال تبتسم ابتسام الوردة النضرة:

لقد فاجأتكما.. وسـمعت الأب «فوشـليفان» يتحدث عن الواجب والضـمير.. وذلك حديث سـياسي لا أسـمح به قط..

فأجاب «ماريوس»:

إنك مخطئة يا «كوزيت».. فحديثنا يدور حول شـؤون أخرى لا تتصـل بالسـياسـة.. إننا نفكر في أفضـل وسـيلة لاستثمار ثروتك..

فقالت: سأدخل.. وإن كان يُخيل إلي أن وجودي غير مرغوب فيه..

فلم ينطق «جان فالجان» بكلمة.. وتحولت إليه «كوزيت» وهي تقول:

إني أطالبك أولاً يا أبي.. بأن تخف لمقابلتي وتقبلني.. ما معنى صمتك هذا ؟ أرأيت أبًا كهذا الأب يا «ماريوس» ؟ تعال وقبلني في الحال..

وقدمت إليه جبينها.. فاقترب منها خطوة.. ولكنها اعتدلت فجأة وهتفت:

ماذا بك يا أبي ؟ إنك ممتقع الوجه.. ألا تزال إصبعك تؤلمك ؟ فأجاب: كلا..

هل أصابك أرق الليلة ؟

كلا..

هل أنت حزين ؟

كلا..

وقدمت إليه جبينها.. فقبّله..

وقالت: ابتسمْ

فأطاع «جان فالجان».. ولكنها كانت ابتسامة الأشباح..

قالت «كوزيت»: والآن سبأقى معكما..

فاجاب «ماريوس» متوسلاً:

كلا يا «كوزيت».. إننا نتحدث في أمرٍ مهمّ ويجب أن نفرغ منه..

يا لك من زوج قاس ! وأنت يا أبي.. لماذا لا تضمّ صوتك إلى صوتي ؟! ما أشدّ قسوتكما ! سأشكوكما إلى جدي..

وانطلقت من الغرفة كالغزال النافر..

كان قدومها وانصرافها أشبة بومضة االبرق في غرفة مظلمة.. وهزّ «ماريوس» رأسه وقال:

مسكينة «كوزيت».. عندما تعلم الحقيقة ..

فارتجف «جان فالجان» من قمّة رأسه إلى أخمص قدميه .. ونظر إلى «ماريوس» بعينين شاردتين.. وقال:

«كوزيت» ؟ آه صحيح أنك ستحدثها بكل شيء.. ولكن صبراً.. إنني لم أفكر في ذلك.. إن الإنسان قد يحتمل صدمة تزلزل كيانه.. ولكنه قد لا يحتمل صدمة أخرى في ذلك.. أتو سّل إليك يا سيدي.. عدني بألا تحدثها بـشيء.. أتقول لها إنني سجين هارب ؟ ! كلا ! أواه يا إلهي !

وغاص في أحد المقاعد ودفن وجهه بين كفيه.. ولم يسمع أحد صوت بكائه.. ولكنّ اهتزاز كتفيه دلّ على أنه يبكي.. كانت دموعه صامتة.. دموعًا رهيبة.. و سمعه «ماريوس» يتمتم بصوتٍ خافت كأنه ينبعث من جوف هاوية لا قرار لها:

أوّاه.. ما أحبّ الموت !

رَأْفَةً بنفسك يا سيدي.. فأسكتم سرّك..

وكان في صوته شيء من الخشونة.. فكم من الفظاعات سمعها خلال تلك الساعة الأخيرة على غير انتظار.. جعلته يرى الهوّة العميقة التي تفصل بينه وبين هذا الرجل.. وقال بعد لحظة:

ولكني أرى أنه من المستحيل ألا أقول كلمة في صدد الوديعة التي رددتها.. فتلك أمانة تُحمّد عليها.. وتستحقّ من أجلها أن تُثاب.. فحدد المكافأة التي تطلبها.. اطلب المبلغ الذي تريده.. ولا يهمّك أن يكون جسيمًا..

فأجاب «جان فالجان» بلطف: إنني أشكرك يا سيدي..

وأطرق رأسه مفكرًا.. ثم قال بعد لحظة:

انتهى كل شيء تقريبًا يا سيدي.. ولم يبق لي إلا شيء واحد.. ثم تنم بصوت خافت مرتجف:

الآن وقد علمت كل ذلك يا سيدي.. فهل تعتقد ـ وأنت السيّد هنا ـ بأنه لا يجدر بي أن أحضرّ مرة أخرى لزيارة «كوزيت»..

فاجاب «ماريوس» ببرود : أظنّ ذلك..!!

فتمتم «جان فالجان»: إذًا لن أزورها مرّة أخرى..

ومشى إلى الباب.. ووضع يده على مقبضه.. وفتحه.. وهمَّ بالخروج.. ثم عاد فأغلقه فجأة.. ثم فتحه مرة أخرى وتحوّل إلى «ماريوس».. كان شاحب اللون.. وفي عينيه بريق مخيف.. ثم قال بصوت هادئ:

مهلاً يا سيدي.. إذا سمحت لي فإنني أحضر لرؤيتها.. أؤكد لك أنني أتوقُ كثيراً إلى رؤيتها.. ولولا ذلك ما اعترفت لك بما اعترفت به.. ولكنت قد ذهبت إلى حال سبيلي دون أن أقابلك.. ولكنني أردت البقاء حيث توجد «كوزيت».. أردت البقاء لكي أراها دائمًا.. لذا صارحتُك بالحقيقة كلّها.. ! فإذا لم يكن ثمة مانع فإنني سأحضر لرؤيتها بين وقتٍ وآخر.. وأعدُك بألا أطيل زيارتي.. نعم يا سيدي.. إنني أودّ أن أرى «كوزيت» ولو نادراً.. ثم إن انقطاعي المُفاجئ قد يبدو في نظرها غريبًا وقد يترك في نفسها أثراً سيئًا .

فقال «ماريوس»: في استطاعتك أن تأتي لزيارتها كلّ مساء وستجدها في انتظارك..

أنت طيبّ القلب يا سيدي..

وافترق الرجلان..

وفي مساء اليوم التالي طرق «جان فالجان» الباب ففتح باسك وحيّا الزائر وقال له:

لقد أمرني سيدي البارون أن أستفسر منك عما إذا كنت ترغب في البقاء هنا أو الصعود إلى الطابق الأول ؟

فأجاب «جان فالجان»: بل سأبقى هنا..

فذهب به الخادم إلى غرفة اسـتقبال في الطابق الأرضي.. وقدم له مقعدًا.. كانت غرفة مظلمة تنبعث من جدرانها العفونة والرطوبة.. ورأى «جان فالجان» النار تســـتعر في موقدها.. فأدرك أن بقاءه في الطابق الأرضي كان مُنتظرًا.. وأقبلت «كوزيت».. فلم يرّها «جان فالجان».. ولكنه شـــعر بوجودها.. فنهض واقفًا.. ورمقها بنظرة إعجاب.. كانت جميلة كالشمس المشرقة..

قالت له مؤنبة: ما معني هذا يا أبي ؟ أنا أعلم أنك غريب الأطوار.. ولكن لم أتوقّعْ أن تبلغ غرابة أطوارك إلى هذا الحد..

لقد قال لي «ماريوس» إنك ترغب في زياراتي هنا..

فأجاب: هذا صحيح..

قالت: لقد كنت أتوقع هذا الجواب فكن على حذر.. وإلا أنزلتُ بك أشـد عقاب.. ولكن لنبدأ من البداية.. قبلني أولاً يا أبي.. وقدمت إليه خدها ولكنه ظلّ جامداً في مكانه لا يتحرك..

قالت: يُخيل إلى أن الموقف يتطور تطوراً خطيرًا.. لماذا أنت ناقم عليّ.. هل أســـأتُ إليك ؟ هلم معي إلى غرفة الاستقبال الأخرى في الطابق الأول..

مستحيل..

فذهلت.. وهتفت: ولكن لماذا ؟ لماذا يقع اختيارك على أحقر غرفة في المنزل..

أنت تعلمين يا «كوزيت»..

وصمت.. واستدرك الأمر قائلاً.

أنت تعلمين يا سيدتي أنني على شيء من غرابة الأطوار..

فصاحت: يا سيدتي ؟ هذه نغمة جيدة.. فما معنى كل هذا ؟

فابتسم لها «جان فالجان» ابتسامة كسيرة وقال:

وقابلته «كوزيت» كالمعتاد.. وعندما همّ بالانصراف قال له:

لقد حدثني زوجي بالأمس حديثًا مضحكًا..

ماذا قال ؟

قال: أصغي إلى يا «كوزيت».. إن إيرادنا من جدي ثلاثة آلاف فرنك في العام.. وإيرادك من ثروتك سبعة وعشرون ألف فرنك فهل تستطيعين الاكتفاء بالثلاثة آلاف ؟ فأجبته بالإيجاب.. واستفسرت منه عن السرّ في هذا السؤال.. فأجاب «أردت فقط أن أعرف»..

فلم يُجب «جان فالجان» بكلمة.. ولعل «كوزيت» كانت تنظر منه إيضاحًا.. بيد أنه أصغى إليها في سكون.. وانصرف إلى بيته وهو مكتئب حزين

كان من الواضح أن «ماريوس» داخلته الريبة في مصدر الستمائة ألف فرنك.. ولعله ظن أنها جُمعت بوسائل غير مشروعة.. أو اكتشف أن «جان فالجان» هو صاحبها فنفر منها.. وآثر أن تعيش «كوزيت» في فقر على أن تنعم بثروة مشكوك في مصدرها.

وبدأ «جان فالجان» يشعر بأنه أصبح غير مرغوب فيه.. وذلك عندما ذهب لزيارة «كوزيت» فلم يجد في الغرفة مقاعد على الإطلاق.. ووجدته «كوزيت» واقفًا في انتظارها فصاحت:

يا إلهي.. أين المقاعد ؟

لقد قلتُ لـ «باسك» إنني لا أريد الجلوس.. لأن زياراتي الليلة قصيرة..

يا إلهي ! ما أغرب أطوارك !

فغمغم بصوت لم تسمعه: وداعًا..

وانصرف مُحطمًا كسير القلب لأه فهم..

ولم يذهب لزياراتها في اليوم التالي.. فانزعجت «كوزيت» وقالت:

إن مسيو جان لم يحضر الليلة..

ولكن «ماريوس» طمأنها بقبلة..

وانقضى يومان ولم يات «جان فالجان» لزيارتها.. فأرسلت وصيفتها للاستفسار عنه.. وعادت الوصيفة تقول إنه يبلغها تحيتّه وإن بعض الشؤون أقعدته عن زيارتها.. ولكنه سيزورها في فرصة قريبة..

على أنه لم ينقطع يومًا عن الذهاب إلى شارع كالفير.. إذ كان يطوف بالبيت مرارًا ولا يرفع عينيه عن نافذة «كوزيت»..

ثم ما لبثت صحته أن اعتلت فحُرِم من النعمة الأخيرة نعمة الطواف ببيتها.. والتطلع إلى نافذتها..

وأراد الخروج في أحد الأيام.. فعجز لضعفه وانتهت رحلته عند باب منزله.. فقضى بضع دقائق جالسًا على المقعد الخشبيّ.. ثم عاد أدراجه إلى غرفته.. وهذه كانت رحلته الأخيرة..

وفي اليوم التالي لم يبرح غرفته.. وفي اليوم الثالث لم يبرح فراشه..

وكانت زوجة البوّاب تُعِد له الطعام فأدهشها في أحد الأيام أن تجد الطعام كما وضعته.. هتفت: ماذا دهاك يا سيدي المسكين؟ إنك لم تتناول منذ الأمس شيئًا من الطعام ؟

فأجابها: بل تناولت..

إن آنية الطعام ملأى كما وضعتُها..

انظري إلى آنية الماء.. إنها فارغة..

ذلك معناه أنك شربت.. ولكن ليس معناه أنك أكلت..

أنني لم أشعر بغير الجوع إلى الماء..

ذلك يكون ظمأ.. وإذا الإنسان لم يأكل فتكون حمّى..

وانقضى أسبوع ولم يبرح «جان فالجان» غرفته.. فقالت زوجة البواب تحدث زوجها:

هذا الشَّيخ لا ينهض من فراشه.. ولا يأكل.. ولن يعمِّر طويلاً.. إن الحزن يأكل قلبه.. وأغلب الظن أن ابنته لم توفق في زواجها..

وذات يوم .. لم يقو «جان فالجان» على الجلوس في فراشه.. ولوحظ أنه هزُل وضعُفَ.. ولكنه مع ذلك بذل جهدًا عنيفًا حتى استطاع مغادرة الفراش.. ثم تناول ثياب «كوزيت» وبسطها أمامه.. ووضع الشموع في شمعدانيه وأضاءهما.. على رغم أن الغرفة كانت تسبح في أشعّة الشمس.. وكان في كل خطواته يستند إلى إحدى قطع الأثاث.. وانتهى به الطواف أمام المرآة التي عكست رسالة «كوزيت».. فتهالك على مقعد هناك ونظر إلى المرآة ولم يعرف نفسه.. رأى على جبينه شيئًا آخر غير تجعدات الشيخوخة.. رأى عليه طابع الموت..

وقضى في جلسته أمام المرآة زمنًا طويلاً.. ثم نهض واقفاً.. وأخذ يجرّ نفسه جراً حتى وصل إلى طاولة الكتابة وهناك أُغمِي عليه..

ولمّا أفاق من إغمائه شعر بظمأ شديد.. ولكنه لم يستطع رفع الآنية إلى فمه فأحنى رأسه فوقها وبلل شفتيه بمائها.. ثم حوّل يده نحو الفراش ونظر طويلاً إلى ثياب «كوزيت».. ذلك الكنز العزيز المحبوب..

وفجأة.. مرّت بجسده رعدة قوية.. وشعر ببرد شديد.. فغمغم وهو يترنَّح في مكانه: يا إلهي ! انتهى كلُّ شيء.. ولن أراها مرة أخرى..

وفي هذه اللحظة.. سمع طرقًا على الباب..



ظهور الحقيقة

في ذلك المساء.. كان «ماريوس» يهمّ بالخروج من قاعة الطعام حين قدّم له «باشك» رسالة وهو يقول: إن صاحب هذه الرسالة ينتظر في قاعة الاستقبال..

ففض «ماريوس» الرسالة وقرأ ما يلي:

«سيدي البارون: كاتب هذه الرسالة يعرف سرًا يهمك.. وهو على استعداد لأن يضع معلوماته تحت تصرفك »..

«تيناردييه»

دهش «ماريوس».. وأعاد قراءة الرســالة.. ثم تذكر أنه ســمع هذا الاســم من قبل.. ولكن أين ؟ أين ؟ نعم إنه سمعه في غرفة «جوندريت».. إنه اسم «جوندريت» نفسه.. ولكنه ما نوع السرّ الذي يعرفه هذا الشقيّ ؟

وعلى الرغم من عناية «تيناردييه» بتغيير زيّه وملامحه.. فقد عرفه «مريوس» بمجرد أن وقع عليه بصرــه.. دخل الغرفة.. ثم حيّاه ببرودٍ.. وقال له دون أن يدعوه إلى الجلوس: ماذا تريد ؟

فأجاب «تيناردييه»: هل تَفَضَّل سيدي البارون وقرأ رسالتي ؟

نعم.. ولكنها تحتاج إلى إيضاح..

إنني أعرف سرًا وأريد أن أبيعه..

وهل يهمني أن أعرف ذلك السرّ ؟

أظن ذلك.. تكلم إذًا..

إن سيدي البارون يُؤوي في منزله لصاً.. وقاتلاً..

فدهش «ماريوس» وهتف: في منزلي !

فارتسمت على وجه «تيناردييه» ابتسامة عريضة وقال:

نعم ياســيدي.. في منزلك.. وإني لا أتكلم عن أشــياء قديمة طوتها الأيام.. وإنما اتكلم عن حقائق ما يزال رجال العدالة يجهلونها.. يا ســيدي البارون.. إن الرجل الذي أعنيه قد اكتســب ثقتك وتســلل إلى كنف أسرتك تحت اســم مستعار.. وقد رأيتهُ معك ومع عروسك في مركبتك في حفل الزفاف.. سأذكر لك الآن اسمه الحقيقي وأذكره مجانًا وبلا ثمن..

تكلم: إنه يدعي «جان فالجان»..

أعلم ذلك.. وسأكشف لك عن حقيقة أمره مجانًا.. إنه كذلك سجين سابق..

أعلم ذلك.. فدهش «تيناردييه» ولكنه لم ييأس.. وقال: ذلك دليل على أنني أستقي المعلومات من مصادرها.. والآن يبقى السرَّ الذي لا يعرفه سواي.. وهو سرّ خطير من شأنه أن يؤثر في مركز سيدتي البارونة.. ولكني سأبيعك هذا السرَّ لقاء أربعين ألف فرنك فقط..

فقال «ماريوس» ببرود: إنني أعرف هذا السرّ أيضاً..

فذعر «تيناردييه» وهتف: يا إلهي ! هل معنى ذلك أنني لن أتناول العشاء الليلة ؟ إن السرّ عجيب جدًا يا سيدي وسأذكره لك.. أعطنى عشرين فرنكًا..

فنظر إليه «ماريوس» بإمعان.. وقال: إنني أعرف سرك الخطير أيضًا.. ألا تريد أن تقول إن «جان فالجان» لصّ لأنه سرق أموال رجلٍ من أصحاب المصانع يدعي الأب «مادلين» ؟ وإنه قاتل لأنه فتك بالمفتش «جافير»..

فنظر إليه «تيناردييه» في دهشة وقال: إنني لا أفهمك يا سيدي البارون..

إذن دعنى أذكر لك الحقائق بالتفصيل.. فأصغ إليَّ.. حدث منذ بضعة أعوام أن رجلاً في «باو كاليه» ارتكب جريمة سرقة.. فأُرسِلَ إلى السجن وقضى مدة العقوبة.. ولكنه سلك سواء السبيل بعد ذلك.. وأطلق على نفسه اسم الأب «مادلين».. وأنشأ مصنعًا.. وجلب الرخاء إلى مدينة برمتها.. ثم عُيِن عمدةً لتلك المدينة.. واتُفق هذا مع كون سجينًا آخر وقف على سرَّ للأب «مادلين» يوقعه تحت طائلة القانون.. فوشى به.. وانتهز فرصة إلقاء القبض عليه.. وذهب إلى باريس وسحب من بنك «لافيت» وبتوقيعٍ مزور جميع أموال الأب «مادلين».. وهي أموالٌ تزيد عن نصف مليون فرنك.. تلك هي الحقيقة التي عرفتها من صرّاف البنك نفسه.. أما السجين الذي سرق الأب «مادلين» فهو «جان فالجان».. وأما جريمة قتل المفتش «جافير».. فإنها وقعت تحت سمعي وبصري وفي ظروف أعرفها كما لا يعرفها سواي.. أليس هذا هو سرّك الخطير ؟

فلمعت في عيني «تيناردييه» نظرة فوز.. وقال: كلا يا سيدي البارون.. إنك مخطئ..

ماذا ؟ هل تعرف ما ينقض هذه الحقائق ؟

إن الحقَّ حقَّ يا سيدي.. وأنا لا أحب أن تصبَّ التُهمَ على الناس جزافًا هكذا.. فـ «جان فالجان» لم يسرق الأب «مادلين».. ولم يقتل المفتش «جافير».. وذلك لسببين..

ما هما ؟ تكلم..

إنه أولا لم يسرق الأب «مادلين».. لأن «جان فالجان» هو الأب «مادلين»..

ما هذا الجنون ؟

وثانيًا هو لم يقتل المفتش «جافير».. لأن المفتش «جافير» انتحر..

أتسخر مني أيها الوغد ؟

صبرًا.. صبرًا يا سيدي البارون.. خذ واقرأ..

وقدّم له صــفحة من جريدة قديمة.. وأخرى من جريدة جديدة فقرأ «ماريوس» في الأولى النبأ الذي أذاعته الصحف عقب اعتقال «جان فالجان» في باريس.. وقرأ في الثانية نبأ العثور على جثة المفتش «جافير» في نهر السين..

ودهش «ماريوس» وغمغم: إذاً فالرجل لم يقتل ولم يسرق !

بل قتل وسرق يا سيدي.. فأصغ إليّ..

وقصّ عليه كيف فاجأ «جان فالجان» في سراديب المجاري حاملاً جثّة شاب قتله وسرق نقوده..

فصاح «ماريوس» وقد بدأت تتضح له الحقيقة: أتتذكر متى حدث ذلك ؟

فاجاب «تيناردييه»: طبعًا أذكرُ ذلك ولا أنســاه.. لقد ارتكب «جان فالجان» جريمته في ليلة الثورة.. فصــاح «ماريوس» وهو ينهض على قدميه: إنني الشــاب الذي قتله «جان فالجان» .. قبَّحك الله من وغد يتاجر بأسرار الناس.. إنك أنت القاتل وأنت اللص يا تيناردييه.. أو يا «جوندريت».. ولقد رأيتُ بعيني رأسي كيف نصبتَ في غرفتك شركًا لسرقة «جان فالجان»..

قال ذلك بلهجة تنمّ عن الغضب.. ولكنَّ قلبه كان مقمعًا بالشكر والامتنان..

واسـتطرد قائلاً: قلت إنك لا تملك ثمن عشـائك ؟ خذه.. واغرب عن وجهي أيها النذل.. وألقى إليه بورقة من ذات المائة فرنك.. فاختطفها ولاذ بالفرار..

وأسرع «ماريوس» إلى غرفة «كوزيت» .. وصــاح وهو يلهث: «كوزيت» .. «كوزيت» .. هلمي بنا .. وأنت يا «باسك».. مُر بإعداد المركبة.. إنه الذي أنقذ حياتي يا «كوزيت».. فلنذهب إليه لنذهب في الحال !

فلم تفهم «كوزيت» كلمة من هذا الهذيان ولكنها أطاعته..

ونادى «ماريوس» على الحوذي: هلمّ بنا إلى شارع «لوم آرميه»..

فانبسطت أسارير «كوزيت» قائلة: أتذهب لزيارة مسيو جان ؟

لزيارة أبيك يا «كوزيت».. إنه أبوك أكثر مما كان في أي وقت مضى.. لقد عرفتُ الحقيقة..

طرق «ماريوس» الباب.. فسمع من الداخل صوتًا يهمس: أدخل..

ففتح الباب.. ووثبت «كوزيت» إلى الداخل..

هتف «جان فالجان»: «كوزيت» !

وبسط يديه النحيلتين المرتجفتين.. فألقت «كوزيت» بنفسها فوق صدره.. وهي تصيح أبي !

وغمغم الشيخ: «كوزيت».. «كوزيت».. أهذه أنت ؟ يا إلهي..

وتقدّم «ماريوس».. وهو يُطرق رأسه والدموع تنهمر من عينيه.. وتمتم: أبي !

فقال «جان فالجان»: وأنت أيضًا ؟ هل صفحت عني ؟ شكرًا لك..

فصـمت «ماريوس» ولم يقو على الكلام.. وخلعت «كوزيت» قبعتها ومعطفها.. وجلسـت على ركبتي «جان فالجان».. ورفعت خصلة الشعر عن جبينه وقبّلته.. فقال بصوت مرتجف: ما أشدّ غباء الإنسان.. لقد كنتُ أقول لنفسي في التوّ واللحظة إنني لن أراها بعد الآن.. ولكني أغفلت إرادة الله.. وهأنذا أرى «كوزيت» مرةً أخرى.. ثم التفت إلى «ماريوس» وقال: هل تسمح لي أن أدعوها «كوزيت» ؟

سيكون ذلك لمدة قصيرة فقط..

فقال «كوزيت»: ما أقسى قلبك يا أبي ! لماذا أمسـكت عن زيارتنا كلَّ هذا الوقت.. أُنظر يا «ماريوس» إن يده باردة.. إنه كان مريضاً وكتم عنا خبر مرضه..

وقال «جان فالجان» مردّدًا: إذًا قد صفحتَ عني يا مسيو مونمارنسي.. شكرًا لك.. شكرًا لك..

وعندئذ تعذَّر على «ماريوس» أن يضبط العاطفة التي تعصف في أعماقه فصاح: هل سمعت يا «كوزيت» ؟ إنه يشـكرني.. هل تعلمين ماذا فعل من أجلي ؟ لقد أنقذ حياتي.. بل فعل أكثر من ذلك.. إنه تنازل لي عنك بعد أن أنقذ حياتي.. وبعدها ضحَّى بسعادته في سبيل سعادتنا وها هو الآن يشكرني.. إن لهذا الرجل كلَّ حسنات الملائكة.. يا «كوزيت».. فقال «جان فالجان» في همس: كفي ! كفي !

لماذا لم تحدثني بكل شيء ؟ لماذا لم تقل لي إنك الأب «مادلين» وإنك أخليتَ سـبيل «جافير» لماذا لم تقل لي إنك أنقذت حياتي ؟!

لأنني رأيت مثلك أنه من الضروري أن أترككما.. ولو صارحتُك بحادث السرداب لاعترضـتى عليّ رحيلى.. لذلك فضلت السكوت..

وهل تظن أنك ستبقى هنا ؟ إنك ستعود معنا ! يا إلهي كلّما فكرت في أنني لم أعرف الحقيقة إلا مصادفة.. إنك لن تقضي يوماً آخر في هذا المنزل المخيف.. فلا تتوهّم أنك ستكون هنا غدًا..

ماذا تعني ؟ كلا.. كلا إننا لن نسمح لك بالسفر.. ولن نفترق بعد اليوم..

فقالت «كوزيت»: إن المركبة في انتظارنا بالخارج.. وفي نيتنا أن نلجأ إلى القوة إذا قضت الضرورة !

وضـــحكت وتظاهرت بأنها تهمّ بحمل الشـــيخ.. واســـتطردت: إن الغرفة التي أعددْناها لك في بيتنا ما تزال في انتظارك.. فتعالى معنا والآن «سيدتي البارونة» و «مسيو جان» ولأكن أنا «كوزيت».. ولتكن أنت أبي..

أ صغى إليها «جان فالجان» بإمعان.. و سمع مو سيقى صوتها.. أكثر مما وعى معنى كلامها.. وانحدرت من عينيه دمعة واحدة كبيرة وغمغم:

ليس أدل على كرم الله من وجودها هنا هذه الساعة..

ثم اســـتطرد بصـــوت مرتفع: جميل أن أقيم معكما.. وجميل أن أرى «كوزيت» في كل وقت.. وأن أدعوها ابنتي وتدعوني أباها ولكن..

فأحاطت يده بيدها وقالت: ولكن ماذا يا أبتاه ؟! إن يدي تزداد برودة فهل أنت مريض ؟!

أنا ؟ كلا.. ليس بي شيء.. وفقط..

ثم توقفَّ عن الكلام مرةً أخرى فسألتُه: فقط ماذا ؟!

فأجاب: فقط.. إننى سأموت في الحال..

فذعر الشابان وهتف «ماريوس»: تموت ؟!

فأجاب: نعم.. ولكن ذلك لا قيمة له..

وابتسم مستطردًا: كنت تتحدثين إليَّ يا«كوزيت».. فامضى في حديثك لكي أسمع صوتك..

فاشتدَّ ذعر «ماريوس».. وصرخت «كوزيت» في فزع: أبي ! أبي ! ستعيش ! لابد أن تعيش !

فرفع «جان فالجان» رأسه وقال: ليتني أستطيع أن أطيعك.. إنني كنت في ريق الموت عندما دخلت..

فهتف «ماريوس»: إنك ما زلتَ في عنفوان الحياة.. أتحســـب أنَّ الإنســـان يموت هكذا؟!.. لقد عرفت الأحزان من قبل.. ولكنك لن تعرفها بعد اليوم.. هأنذا أركع تحت قدميك.. وأسألك الصفح والمغفرة.. فهل تأتي الآن معنا ؟

فأجاب «جان فالجان» وهو ما يزال يبتسم: هل يجديني ذلك ؟ كل شيء قد انتهى..

فدفنت «كوزيت» وجهها في صـــدره وانفجرت باكيةً.. ولكنه تناول طرف ثوبها.. وقبله والتفت إلى «ماريوس» وقال:

لقد آلمني أن تمتنع عن مال زوجتك يا مسيو «يونمرسي» إنه مالها.. وقد آل إليها من صناعة الخزف والحلي الزجاجية.. هل أدلك كيف تُصنع هذه الحليّ ؟

وكان صوته يزداد خفوتًا.. وتضطرب أنفاسه.. ويثقل جفناه.. فتعاون «ماريوس» و«كوزيت» على نقله إلى فراشه..

قال وهو يلهث: شـكرًا لكما.. لقد كنت واثقًا من أنك تحبينني يا «كوزيت» إنني أترك لك هذين الشـمعدانين.. إنهما من الفضة.. ولكنهما كانا بالنسبة إليَّ أثمن من الذهب.. وأثمن من الماس.. ولا تنسيا يا ولديّ أنني رجل فقير.. فلتوضع جثتي في قبور الفقراء.. ولا أريد أن يُنقش اسـمي على قبري.. هل ترين هذا الثوب الأسـود الصـغير يا «كوزيت» ؟ هل تعرفينه ؟ إنه كان ثوبك منذ عشرـــة أعوام فقط.. فما أسرع مرور الأيام.. أتذكرين قرية «بولانجيه» يا «كوزيت»؟ هناك قابلتك للمرة الأولى.. وكنت خائفة مذعورة.. وهناك تناولتُ آنية الماء من يدك.. ثم أتذكرين الدمية الكبيرة ؟ كانت مدام «تيناردييه» شديدة القسوة عليك.. ولكن يجب على الإنسان أن يتعلم الصفح.. أظنُّ أن الوقت قد حان لأذكر لك اسم أمك يا «كوزيت».. إنها تُدعي «فانتين».. فتذكري هذا الا سم.. «فانتين».. واجثي على ركبتيك كلما ذكرته.. فهو ا سم امرأة قا ست كثيراً.. وأحبتك كثيراً.. وعرفت من معاني الشقاء بقدر ما عرفت أنتِ من معاني السعادة.. وهكذا يوزع الله النعيم والشقاء..

إنني أموت سعيدًا.. فاقتربا.. لأضع يدي على رأسيكما العزيزين..

فركعا حوله.. والعبرات تخنقهما.. ووضع «جان فالجان» يديه على رأسيهما..

ولم تتحرك يداه بعد ذلك..



الفهرس